مكتبه في كتاب واحد

عام الوداع

كل ماتريد معرفته عن رسول الله ﷺ من حجة الوداع الى وفاته



كتاب رؤى الثقافية

محمد خير الطرشان

عام الوداع

الأيام والساعات الأخيرة في حياة الرسول محمد صلى الله عليه وآله وسلم

محمد خير الطرشان
علاء الدين آل رشي



دراسة توثيقية معرفية متكاملة

عندما تتشابه وجهات النظر فهذا يعني أن الجميع لا يفكرون.

جورج هس ياتون

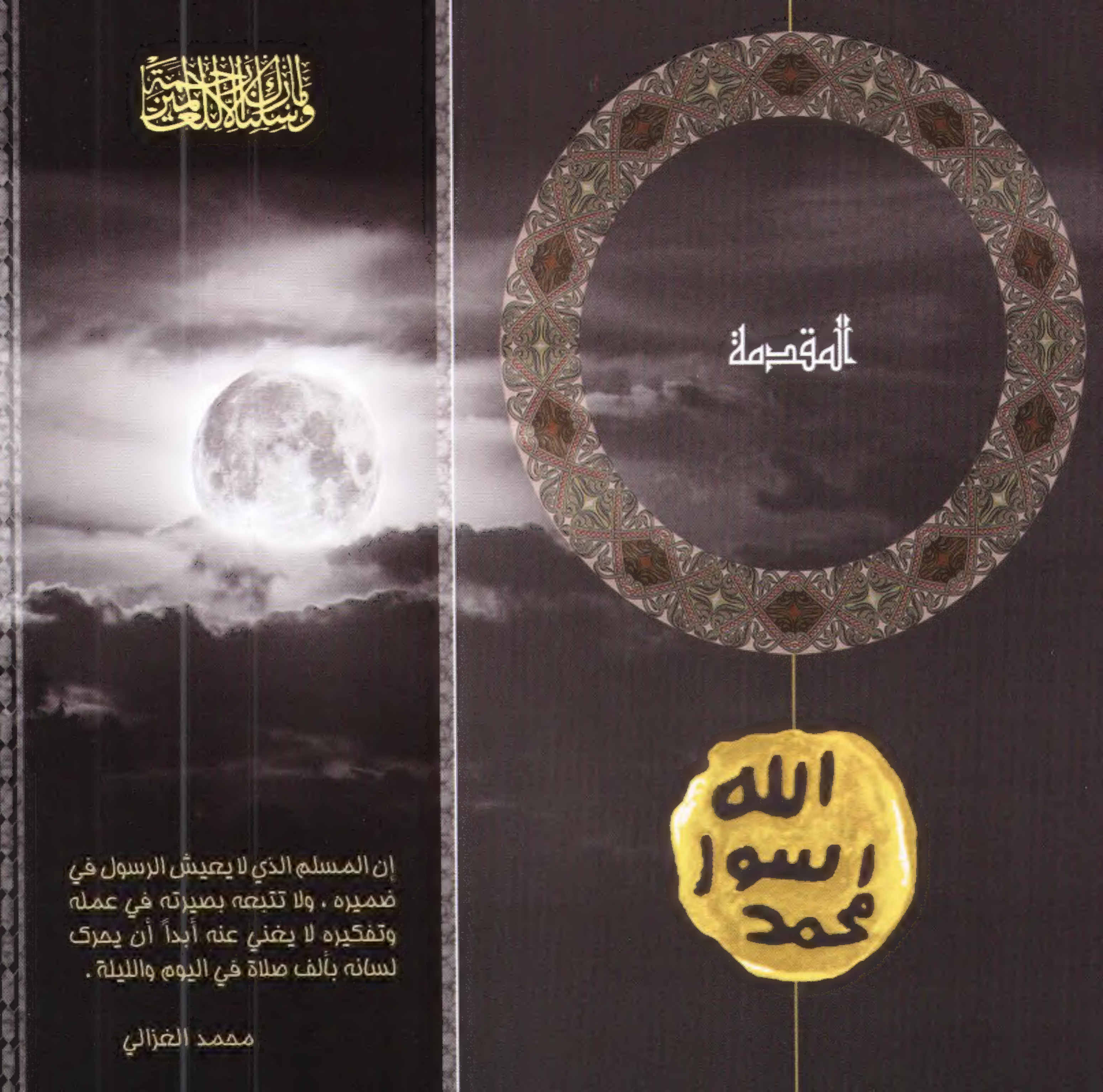


مؤسسة رؤى الثقافية

ثقافة وفنون

المملكة العربية السعودية
صندوق بريد ٥٧٠٣٨
الرمز البريدي ١١٥٧٤
تلفون المكتب: ٢١٦٨٦١٤
فاكس: ٢١٦٨٦١٤ ـ تحويلة ١٠٨

الطبعة الثانية : ٢٠٠٩م - ١٤٢٩؛ ١٤٣٠هـ .
عدد الصفحات : ٣٢٠
المؤلف : محمد خير الطرشان
الكتاب : (عام الوداع)
الأيام والساعات الأخيرة في حياة الرسول محمد ﷺ .


وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين
المقدمة
إن المسلم الذي لا يعيش الرسول في ضميره ، ولا تتبعه بصيرته في عمله وتفكيره لا يغني عنه أبداً أن يحرك لسانه بألف صلاة في اليوم والليلة .
محمد الغزالي
الله
رسول
محمد

إنه لشرف عظيم، وفخر كبير لي ، أن أقدم هذه الموسوعة الفريدة، التي قام بإعدادها الأستاذ محمد خير الطرشان ، فيما كنت أجيل النظر، وأعمل العقل في بياناتها ومدلولاتها .

واجهني سؤال وأنا أتحدث عن هذه الموسوعة المباركة ، هل أنت مع نشر ثقافة بكائية ؟

في البداية صدمني هذا السؤال ...فما هو معروف عني أني بعيد أشد البعد عن كل ضعف ، أو إحياء ثقافة غير حياتية، إذ الذوق الثقافي -الذي اعتدت عليه وعودت عليه الكثيرين معي- ، لا يستسيغ تحويل الفكر إلى حالة بكائية، أو حروف غير مدربة إلا على النواح واللطم، ثم إني أومن أننا نعيش حياتنا في اطراد قدري عفوي ، وفكرنا أو ثقافتنا معلبات تاريخ، الذات عندنا جوهر ثابت اكتمل مرة وإلى الأبد، لا يتغير مع الزمان وآحاد البشر شأنهم شأن وحدات الأرابيسك تكرار نمطي وعددي . والامتداد الزماني لا يعني أولا وأساسا فعلا إنسانيا نشطا وتغييرا متصلا ..

مجتمع الأمس مثل مجتمع اليوم، ومجتمع الآخر نريده مثل مجتمع (الأنا) ثقافة اجتماعية وسلوكا، أو هكذا نرى قدره المرسوم، وإن اختلف معنا زعمنا أنه ضل السبيل .. الجميع سواء و ما يصدق على ذاك يصدق على الكل ، ولا مجال للتنوع ومن ثم لا مجال للحوار مع الآخر ، ولا مجال للتسامح مع الرأي المخالف، ولا نسعى إلى فهم أسباب الاختلاف أو السبيل إلى الوحدة مع التباين والتنوع والاختلاف، وسبب هذا الخطأ أو هذه الخطيئة أننا نظن أننا نملك الحقيقة المطلقة وهكذا أيضا تم تلقيننا أننا لنا الصدر أو القبر .[1]

---

١ انظر لماذا ينفرد الإنسان بالثقافة ، من مطبوعات عالم المعرفة

ليس في سرد سيرة محمد ﷺ أو التوقف في محطة من محطات حياته المباركة الميمونة، شيئا من البكائية أو استحضار التاريخ المقطوع الصلة بالواقع المعاش .

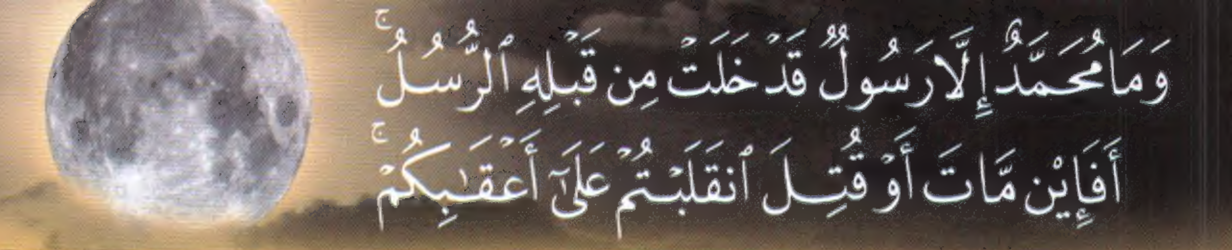
إننا نقع في مأزق حضاري مع هذا الرجل الشهم الكريم المبارك رسول الله ﷺ، فنحن قطعنا الصلة مع كثير من تعاليمه، وكذلك لم نقم بنشر أريج أيامه فقد اكتفينا بسرد تقليدي لسيرته أو تضخيم لجانب الغزوات على حساب دراسة جوانب أخرى مهمة في حياته المباركة، وفي الحقيقة لا يستوقفني مايثار من قبل الآخرين حول صدق دعوة النبي فنحن قبل أن نعمل على رد مكائد أو تخر صات الخصوم لنقف قليلا مع ذاتنا كيف خدمنا سيرة ودين الحبيب المصطفى ﷺ .

هل قمنا بالتمحيص للمرويات وبمراجعة الكثير من النصوص التي ألفنا تكرارها دون وعي لها هل تخدم ديننا حقا ؟

متى نكف عن مجرد الرواية والرواية فقط إلى الدراية الواعية ؟؟

أما خصوم الرسالة فنذكرهم بما قاله الكاتب الإنكليزي توماس كار ليل في كتابه الأبطال :

(لقد أصبح من أكبر العار على أي فرد متمدن من أبناء هذا العصر أن يصغي إلى مايظن من أن دين الإسلام كذب، وأن محمدا خداعا مزور ، وآن لنا أن نحارب مايشاع من مثل هذه الأقوال السخيفة المخجلة، فإن الرسالة التي أداها ذلك الرسول مازالت السراج المنير مدة اثني عشر قرنا لنحو مئتي مليون من



الناس أمثالنا خلقهم الله الذي خلقنا، أفكان أحدكم يظن أن هذه الرسالة التي عاشت بها وماتت عليها هذه الملايين الفائقة الحصر والإحصاء أكذوبة وخدعة ؟ أما أنا فلا أستطيع أن أرى هذا الرأي أبدا، ولو أن الكذب والغش يروجان عند خلق الله هذا الرواج، ويصادفان منهم مثل التصديق والقبول، فما الناس إلا بله ومجانين وما الحياة إلا سخف وعبث وأضلولة كان الأولى بها الأتخلق !!) [٢]. لقد عاش الرسول الكريم زاهدا في كل شئ إلا مرضاة ربه وتبليغ كلماته للناس ، مستبسلا في حماية الحقيقة والذود عن المستضعفين .

كان محمد ﷺ وفيا لأخوته الأنبياء موسى وعيسى. آمن بهما كي يصح إيمانك بمحمد فلو آمنت بمحمد دون أن تؤمن بموسى وعيسى لن تكون مسلما ومؤمنا حقا .

صادق محمد ﷺ الإنسان، علم من حوله القضايا الكبرى، حرض على الخير، تعامل مع خصومه بشرف وصدق، رحم النساء، تسامح مع المخطئين، علم الأطفال، رفق بالحيوان، طالب بنقاء البيئة، نثر أبجديات التحضر والعمران الإنساني، وربط الحياة بالآخرة، وعاش دون أسرار ورفض أن يكون لدينه رموز وكهنوت بل في متناول الجميع .

---

٢ أنظر روح الدين الإسلامي للأستاذ . عفيف عبد الفتاح طبارة ص ٧١ .

انتقل ﷺ إلى الرفيق الأعلى ولم يورث درهما ولا دينارا سبحان الله تدين له الجزيرة وتؤول إليه مقاليد كل شئ - تجارة قريش وأموال تجارها والكعبة -وكل شئ ويبقى زاهدا في كل شئ ﷺ.

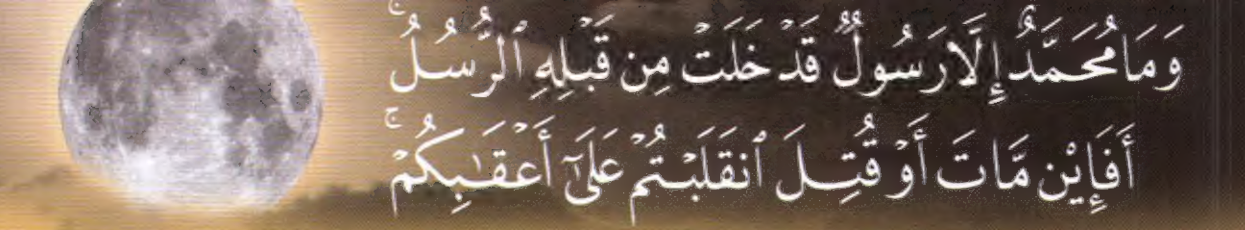
وشد من سغب أحشاءه وطوى
تحت الحجارة كشحا مترف الأدم
وراودته الجبال الشم من ذهب
عن نفسه فأراها أيما شمم

إن محمدنا هو شرف وعز العرب بل والعالم أجمعين.

جدير بنا ونحن في هذا العصر المتحرك أن نجعل عين تاريخه صفحات مباركات، نتوقف فيها على مفاصل أو الأحداث الأخيرة في حياة النبي الكريم ﷺ بماذا كان يفكر ؟ وماذا قال ؟ وماذا أوصى ؟

لفت نظري أن العمل جاء شاملاً وقد تميز بأنه:

* أول عمل متكامل يستعرض قدرا كبيرا من الأخبار الواردة بكل مايتعلق بالأحداث الأخيرة ، قبيل وفاة الرسول وكذلك مايتعلق بوفاته ﷺ .
* الوقوف عند كل حكمة من الممكن استخراجها من سرد الحدث المبارك المتعلق بحياة صاحب الرسالة، والحقيقة أن هذه الحكم جاءت بيانا واضحا وشفافا ومتنوعا في إنسانية وواقعية حياة الرسول المباركة .
* تم رصد الكثير من الشبهات، والتساؤلات التي يمكن أن تثار حول الرسول ﷺ وزوجاته ومعجزة الإسلام الخالدة (القرآن) والحديث عن صحابته الكرام .



* تعدد المراجع التي تم اعتمادها بين تراثية، ومعاصرة وفق قراءة مزجية تتوخى السياق الصحيح، والدقة في المعلومة ، مع توفير الفكرة العميقة .

* روعة الإخراج الذي هو بحق يعد نقلة نوعية، حيث لم يكن مجرد عمل اعتيادي تقوم به الكثير من الدور الناشرة، بل روعي الجمال الفني، وتم تمييز حديث الرسول ﷺ بخط ولون مغاير ليتعرف المسلم على قول الرسول في الفترة الأخيرة من حياته، وحتى اللون الداخلي للصفحات كان معبرا عن قمر يغيب ولكن نوره باق، وكذلك تم إرفاق صور للآثار المباركة المتعلقة بالنبي الكريم .

إن سيدنا محمد ﷺ هو النقطة المضيئة في تاريخ العرب، وقد أكرم الله به منطقتنا فعاشت بنور دعوته وبسمو دينه أياما، وهو رحمة الله للعالمين فإذا كنت من أتباعه فكن رحمة للناس من حولك .

استمع إليه وهو يدعو ربه فيقول : (اللهم من ولي من أمر أمتي شيئا فشق عليهم فاشقق عليه ، ومن ولي من أمر أمتي شيئا فرفق بهم فارفق به) [٣].

وهو يقول : (لايرحم الله من لايرحم الناس) [٤].

في القاهرة، والدار البيضاء ، والخرطوم، ودبي ، وبغداد والقدس، والرياض ودمشق ... وسائر عواصم العالم قلوب محبة لمحمد ﷺ .

---

(٣) مسلم ج ٣ ص ١٤٥٨
(٤) البخاري ج ٢٦٨٦



فهو الذي تم معناه وصورته
ثم اصطفاه حبيبا بارئ النسم
منزه عن شريك في محاسنه
فجوهر الحسن فيه غير منقسم

يأتي هذا الكتاب (كحلوى) لكل أولئك وهدية ثقافية توقد جذوة القلب ، وتغذي الشعور، وتحيي الروح، وتنشر عبير الذكرى الطيبة في نفوس المحبين .

اللهم صل على محمد وآل محمد صلاة ترضيك وترضيه، وترضى بها عنا يا أرحم الراحمين .



الفصل الأول:

شخصية الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في القرآن الكريم

محمد أشرف الأعراب والعجم
محمد خير من يمشي على قدم
محمد باسط المعروف جامعه
محمد صاحب الإحسان والكرم
محمد تاج رسل الله قاطبة
محمد صادق الأقوال والكلم
محمد ثابت الميثاق حافظه
محمد طيب الأخلاق والشيم

البوصيري







قوس النبي صلى الله عليه وآله وسلم

وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِين مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَـٰبِكُمْ

جمال أخلاقك يكمله حسن مظهرك، ولكن زينة الصورة لا تخفي قباحة الحقيقة

وصف معاصرو الرسول شكله ﷺ وصفاً دقيقاً فقد كان بصورة عامة قوياً شديد البنية، مربوع القامة، يميل إلى الطول لا إلى القصر، ضخم الأكتاف، شديد العصب، ذا أطراف - يدين وقدمين - ضخمة، ثم صار يميل إلى زيادة الوزن في أواخر حياته ﷺ، ذا رأس واسع بشكل متناسق جميل وموضوع بدقة على رقبته ﷺ الطويلة نسبياً والمنسجمة بصورة عامة في موضعها مع الصدر والرأس، وكان للرسول ﷺ جبهة عالية متسعة بين الأصداغ يمر فيها عرق حتى الحواجب، وينتفخ هذا العرق إذا غضب ﷺ أو أثير، أما وجهه فكان بيضوياً تحدده علامات واضحة، به أنف جميل أقنى بعض الشيء، وعينان واسعتان دعجاوان، فوقهما حاجبان قوسيان يكادان ينقفلان معاً، وفم واسع ليس فيه انثناء، يدل على الرشاقة والبلاغة، وأسنان بيضاء منتظمة بها بعض التباعد من الأمام، وشعره ﷺ كان أسود ينسرح على رأسه بدون تجعد، ولحية مليئة كثة وطويلة.

أنت بعقلك لا بعضلك فأجج مدركاتك تصفو حياتك

أما تصرفاته فكانت هادئة ومتوازنة، وكان يمزح أحياناً نادرة لكنه كان يميل إلى الوقار في كل الأحيان، وله ابتسامة عذبة أخاذة، أما حمرة وجهه الأبيض ﷺ فهي غير شائعة في وجوه العرب، ويحمر وجهه في لحظات الحماس والتأثر بشكل رأى فيه أتباعه إشراقاً يعكس نور النبوة.

أما قدراته العقلية ﷺ فقد كانت بدون أي شك من صديق أو عدو فائقة غير عادية وفريدة من نوعها، فقد كان ذا فهم سريع وثاقب، وذا ذاكرة نادرة، وتصور حي، وعبقرية مبدعة، وكل هذا لا يدين به إلى أي تعليم أو معلم، فدقة ملاحظته ﷺ هي أساس معلوماته - قبل النبوة -، والتي خزنتها ذاكرته الفائقة بمعلومات متنوعة حول الوجود والأشياء والتقاليد القديمة، وحديثه اليومي كان واقعياً إلى أبعد الحدود يملؤه بالعظات التي لم يأت مثلها عند العرب، وكان لفظه ﷺ أنيقاً واضحاً دون تأنق أو تشدق مفتعل، تدعمه نبرة صوت عذبة عميقة - تصبح بحة حين المرض - تسمى صحلاً.

إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ

تحكم بسلوكك وعاداتك، تكسب حياتك

لقد كان الرسول ﷺ ذا قدرة عالية على الضبط الذاتي والتعفف، وخاصة في طعامه وشرابه، وصارماً في مراعاة الصيام، ولم يكن يهتم بظواهر الأشياء، وخاصة بالمظاهر والتباهي التي يقع بها ضعاف العقول، ولم يكن لباسه البسيط ﷺ ليقلل من احترام الناس له، ونتيجة ذلك كله كان زهده بكل المظاهر التي يمكن أن تميزه صلى الله عليه وسلم عن عامة الناس وبالتالي تبعده عنهم، وكان ثوبه إما من الصوف أو القطن اليماني - الذي كان يسمى بالحبرة اليمانية - وكان ﷺ يخيطه كلما اهترأ، كذلك كان يعتم بالعمائم على اختلاف ألوانها ويؤكد أنها كناية عن تيجان الملائكة والعرب، وكان يسدل طرف عمامته على كتفيه ﷺ مؤكداً أن هذه هي الطريقة المثلى للتعمم بها كما تفعل الملائكة، وقد حرم نهائياً لبس الحرير سامحاً بالنسيج الذي يخالط خيطه الحرير فقط، كما كره اللون الحمر في الألبسة ومنع أتباعه من وضع الخواتم الذهبية في أصابعهم، لكنه لبس خاتماً

التشبه المنكور يكون في العقائد والخلال، لا في الملابس والنعال

من الفضة عليه ختمه ﷺ بارماً الختم إلى جهة الأصابع قرب راحة اليد، وعلى خاتمه نقش العبارات التالية بالتتابع «الله، رسول، محمد» لتقرأ من الأسفل إلى الأعلى «محمد رسول الله» كذلك كان متشدداً بالنظافة الذاتية، والوضوء فرض على المسلمين خمس مرات في النهار على الأكثر، كما نهى الرسول ﷺ عن التبتل مؤكداً أنه لا يُقَرِّب العبد إلى ربه إنكار ومعاوضة غرائز الإنسان، بل يبعد العبد عن الله تعالى الكذب والالتواء فيها، فسنته ﷺ بالزواج المتعدد، لقد أحب الرسول ﷺ الطيب والنساء والطيبات، وقرت عينه ﷺ في الصلاة، وكره الخبائث في هذه الأمور بالإغواء والنفاق والتظاهر بالصلاة والصلاح كذباً، لذلك كان من سنته ﷺ الإكثار من الطيب في ثيابه النظيفة دوماً ودهون الرأس العبق، وكان إذا خطب امرأة أحسن من هندامه وضبط حاجبيه بحركة دائبة، وقد توفي الرسول ﷺ عن تسع نساء، وحصر

وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ

حيثما وجد الإنسان كان الإسلام

بعض العلماء زوجات الرسول ﷺ خلال حياته ﷺ بست عشرة امرأة، رغم أن مؤرخين آخرين عدوهن بخمس وعشرين. وكان ﷺ يطوف على نسائه جميعاً في اليوم الواحد، ولكل منهن منزلها - سكنها - المنفصل عن الأخرى، وقد كان حكم الزواج بهذا العدد مختصاً به ، ومن بين كل أولاده ﷺ لم يبق عقبه ﷺ إلا في «فاطمة» رضي الله عنها زوجة «علي» رضي الله عنه التي كانت أول أسرته لحوقاً به ﷺ بالوفاة كما تنبأ لها بذلك ومن عقبها لم يجلس على كرسي الخلافة إلى ابنها «الحسن» رضي الله عنه الذي كان يشبه الرسول ﷺ بالشكل إلى حد قريب.

والرسول ﷺ كان عادلاً يحب العدل، فقد كان يعامل الصاحب والغريب، والفقير والغني والقوي والضعيف بالتساوي، وكان محبوباً من الناس بسبب التفاته إلى الكل وسماعه من الجميع، وعدله المطلق بينهم.

وبسبب إرهافه ﷺ بكل مجال كان حاد

كن لطيفا محبوبا تكن محورا استقطابيا
﴿ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك﴾

الذكاء والطبع، قادراً على ضبط كليهما، لذلك كان في كل معاملاته اليومية الخاصة والعامة لطيفاً ومحبوباً، فخادمه الذي خدمه منذ أن كان عبداً عنده في عامة الثمن «أنس»، لم يذكر أنه ﷺ قد أنبه على أي خطأ ارتكبه أو أهانه.

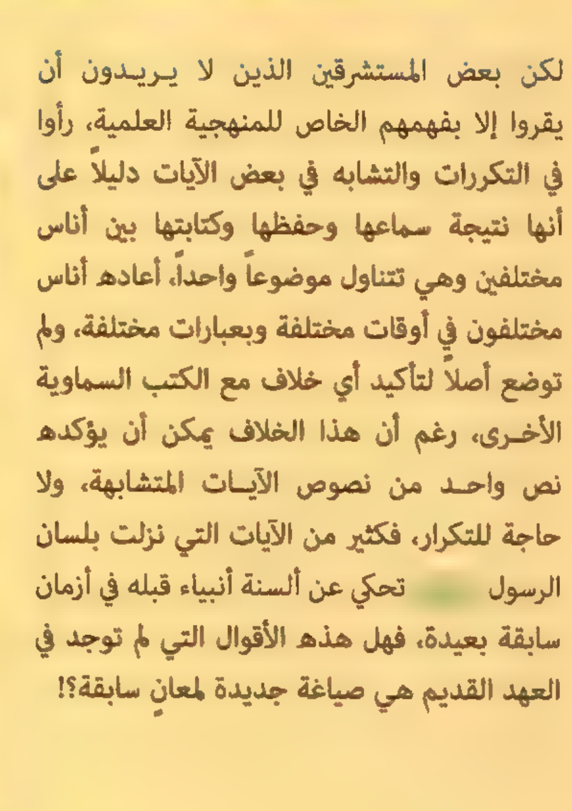
القرآن معجزة الإسلام الخالدة

لم يدع محمد ﷺ أي معجزة سوى القرآن الكريم وكثير من المعجزات التي حصلت لم تكن بمستوى المعجزة القرآنية ، الذي يعتبر من أعجز وأفضل ما قدم إلى البشرية من نص مكتوب، لا يمكن ولا بأي حال من الأحوال مقارنته بسواه من النصوص، والطريقة التي فيها أنزل عليه ﷺ القرآن الكريم - بصيغة ضمير الغائب - جعلت من سبب النزول حادثة تبرر صلاح النص القرآني لكل زمان ومكان، حتى بغض النظر عن تلك الحادثة، وبحالة عدم الإلمام بها أو معرفتها وتلك هي المعجزة الكبرى من معجزات

القرآن الكريم، إضافة إلى أن فقهاء الدين الناطقين بالعربية يجدون في البلاغة القرآنية أكبر دليل على أنها ليست من قول أي بشر. وعدم وجود أي ترتيب منهجي كما نفهم نحن المنهج العلمي في إيراد النصوص، في النص القرآني لا يمنع من لا يفهم إلا بالطرق المنهجية من إعادته ترتيبها سواء بطريقة معجمية، أو بطريقة فقهية حسب حاجات التشريع، وهذا ما قام به فقهاء الإسلام على مر العصور، أما التكرار في بعض النصوص القرآنية وخاصة التي تناقش أهل الكتاب فقد نزلت أصلاً لإظهار هذا الخلاف وتأكيده. وكحقيقة تاريخية نجد أن القرآن الكريم قد نزل بمناسبات مختلفة وحفظه أو كتبه أناس مختلفون في أوقات مختلفة، إما على ألواح العظم أو على جلود الرق - الغزال أو الغنم - ووضعت هذه المواد فوق بعضها البعض في صناديق، ولم يجمع القرآن في حياة الرسول ﷺ، وظل متفرقاً إلى يوم وفاته، حيث عمل «أبو بكر» رضي الله عنه على جمع هذه المواد التي كُتِبَ عليها القرآن الكريم لأول مرة بعد وفاة الرسول ﷺ، وكُلف «زيد بن ثابت» رضي الله عنه الذي كان يكتب للرسول ﷺ بهذه المهمة، خاصة وأن «زيد» رضي الله عنه كان من الحفاظ ومن كتبة الوحي الذين كانوا يكتبون بتوجيه مباشر من الرسول ﷺ فقارن ما حفظ مع ما جمعه من متفرقات الكتاب العزيز من أيدي الصحابة، وما جعل الحفاظ أمثاله يستعيدونه أمامه، لكن ما جمعه «زيد» رضي الله عنه لم يكتب على كاغد، بل ظل على شكله السابق مؤلفاً من مواد متفرقة دون أي فهرسة أو أي جمع منهجي كما نعرف نحن في الجمع والتحقيق، وعن هذا نقل الصحابة مصاحفهم مع بعض الاختلافات في القراءة التي شاعت ونقلت إلى الأمصار. وكاد هذا الاختلاف في القراءات أن يؤدي إلى اختلاف بين المسلمين، تلافاه «عثمان بن عفان» رضي الله عنه في وقت خلافته، باعتماد نسخة واحدة فقط وأمر بالباقي فأحرقت.

القرآن الذي بين أيدينا هو اللفظ الموحى به إلى محمد ﷺ والواصل لنا بأرقى طرق الحفظ والتوثيق

لكن بعض المستشرقين الذين لا يريدون أن يقروا إلا بفهمهم الخاص للمنهجية العلمية، رأوا في التكررات والتشابه في بعض الآيات دليلاً على أنها نتيجة سماعها وحفظها وكتابتها بين أناس مختلفين وهي تتناول موضوعاً واحداً، أعاده أناس مختلفون في أوقات مختلفة وبعبارات مختلفة، ولم توضع أصلاً لتأكيد أي خلاف مع الكتب السماوية الأخرى، رغم أن هذا الخلاف يمكن أن يؤكده نص واحد من نصوص الآيات المتشابهة، ولا حاجة للتكرار، فكثير من الآيات التي نزلت بلسان الرسول ﷺ تحكي عن ألسنة أنبياء قبله في أزمان سابقة بعيدة، فهل هذه الأقوال التي لم توجد في العهد القديم هي صياغة جديدة لمعانٍ سابقة؟!



تكفل الله بحفظ كتابه

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾

وأوكل إلينا تدبر معانيه

﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ القُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾

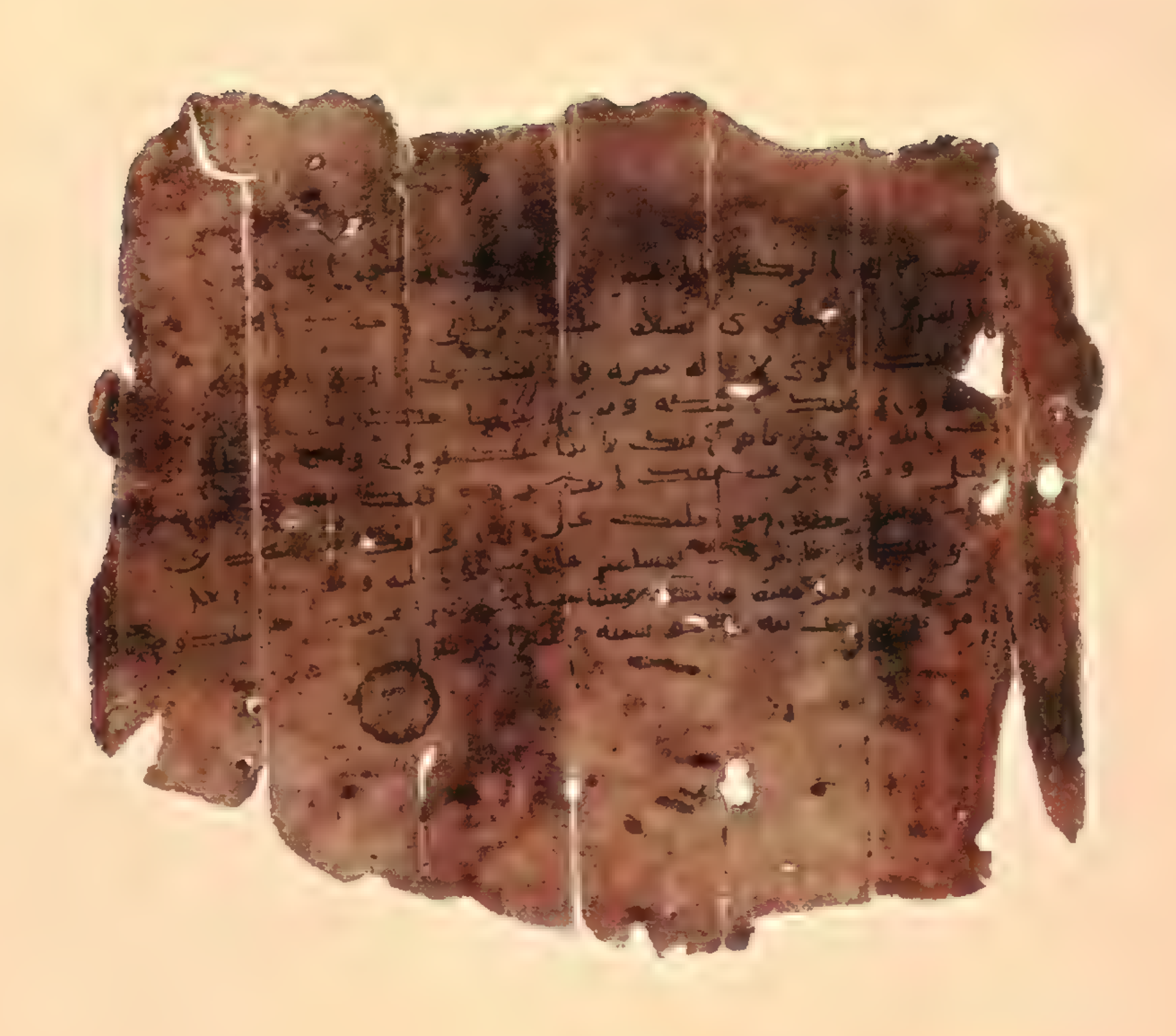
السؤال : لماذا اشتغلنا بما عهد لنا ربنا إلى نفسه بالحفظ وتركنا ما أمرنا الله به من تدبر ؟!!


إِلَّا رَسُولٌ
أَفَإِن مَّاتَ
عَلَىٰ


ومن ينقلب على عقبيه
فلن يضر الله شيئا
وسيجزي الله الشاكرين




وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين
الفصل الثاني:
تساؤلات حول سلوك الرسول
صلى الله عليه وآله وسلم
الله
رسول
محمد
إن محمداً هو أعظم عظماء التاريخ
ول ديورانت



رسالة من رسائل النبي ﷺ

وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِين مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ

وضاعة النسب لا يرفعها إلا قدر عالٍ من الهمة والعمل الشريف

الخط العام الذي تتحرك به السيرة قسمه المؤرخون إلى قسمين: القسم المكي والقسم المدني، والأول لا نرى فيه الظروف الحياتية التي فرضت على الرسول ﷺ قبل زواجه بخديجة إلا بصورة تخلو من الكثير من التفاصيل الضرورية لفهم شخصيته ﷺ، لكننا نستطيع أن نؤكد أنه كان بنظر كل الناس في تلك الفترة رجلاً كريماً بكل معنى الكلمة، ثم أصبح غنياً بزواجه من «خديجة» رضي الله عنها كما كان ينحدر من قبيلة ذات نسب مرموق، ومن أكرم فروعها القريشية، فهو لم يكن لا بحاجة إلى المال ولا إلى السلطة والقوة، كما أنه ﷺ من فرع سدان الكعبة فلا تنقصه السلطة الدينية أيضاً، لأن تلك السلطة كانت هي الحاكم الفعلي لمكة المكرمة، ورغم ذلك كانت محاولته لإدخال دين جديد كناية عن الضرب بالعمق لصلب كل هذه الامتيازات، فجلب على نفسه عداء مجتمعه وحتى أقربائه، والخوف من كل العرب على مركز عقائدهم المتوارث والذي تجسده عباداتهم في الكعبة.

فما الذي كان سيناله لنفسه من كل هذا الأمر الذي قام به ومن كل هذه التضحيات التي قدمها؟! والتي لم يظهر منها أي نجاح لأعوام مليئة طويلة بالاضطهاد له ولأتباعه والهزء والسخرية مما يقول، والتي انتهت بهجرته بعد تهديد حياته من بلده، فلماذا أصر كل هذه السنين على التضحية بكل ما يملك من امتيازات دنيوية؟! في الوقت الذي كان يعرف أن عمره قد تقدم لبناء أي امتيازات جديدة أو حتى التمتع بها.

لا يوجد إذاً أي دافع دنيوي لما قام به الرسول ﷺ ولا أي فائدة مادية. ولنقف قليلاً.

هناك رؤى للرسول ﷺ كان يراها، نتيجة اختلائه في غار حراء، وتحنثه وصيامه وصلاته في خلوته، وتأملاته نحو المطلق، فاتصل بالوحي، وقد كان يؤمن بشكل مطلق بحقيقة هذه الرؤى بعد أن شك بها أول ما جاءته وأكدتها له خديجة المحبة رضي الله عنها، و«ورقة بن نوفل».

كن كحبيبك محمد ﷺ رجل رسالة بامتياز

وحين اقتنع هو قبل سواه بمهمته الإلهية ذهب لتبليغها مهما كانت التضحيات، لأنه شعر بأنه نبي مرسل يتعرض للناموس الأكبر الذي ينزل على الأنبياء والرسل بجهد يصيب الجسد وقول ثقيل يخرج منه، ليشكل رسالة نبوية.

وهكذا كان الرسول ﷺ من يوم نزول الوحي عليه في مكة إلى يوم مغادرته لها، لا يتصرف على هدي المنطق الإنساني، بل بناء على ما تمليه عليه تعليمات هذا الوحي حتى وإن كانت غير واضحة النتائج القريبة، وهذا لا يبرره إلا عمق اقتناعه بصحة ما يراه من الوحي، قبل إقناع الآخرين بذلك، وإذا قال بعض المؤرخين إن ما كان يتعرض له هو أحلام يقظة نتيجة مرض جسدي بحثوا عنه في كل الاتهامات الممكنة، فالجواب لماذا لا ينتج نفس هذا المرض أو ذاك عند كل الناس الذين أصيبوا به قبل وبعد الرسول ﷺ قرآناً؟! ونحن نراه عبر التاريخ يتعرض بكل لحظة إلى أشد المعاناة في كل لحظة من لحظات حياته ﷺ ليعطي هذه الثمرة - الذكية - القرآن الكريم للناس!!

فإذا قيل إنه ﷺ كان يتصرف حتى لحظة مغادرته لمكة تحت تأثير وهم أصابه، فإن القناعة المطلقة بهذا الوهم لديه لم تكن عديمة الثمرات عبثية النتائج، حتى ولو بدت تراجيدية عليه وعلى مسيرة حياته الشخصية، فإصلاحه الديني لانحراف الناس عن ملة «إبراهيم عليه السلام» لا يمكن أن تحركه روح وثابة فقط تضمن يقين النجاح في النهاية، قبل وجود أي قبس يدل على مثل هذا النجاح، إزاء تقاليد وثنية وحشية وعنيفة وكل ما فيها لا يسمح بزعزعتها عن ضلالاتها، فتنقية العبادة للاتجاه بالناس نحو فهم معنى الإله الواحد على بساطة هذا المطلب ظاهرياً، من أصعب ما يمكن أن يواجه به أي إنسان عناد التقاليد الراسخة بالشرك، الأقرب إلى الفهم الإنساني المشخص للألوهية، والمدعوم بكل عتو التقاليد التي

وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ

كن حكيماً في كلمتك وتذكر ان الرسول ﷺ واجه عناد التقاليد الراسخة بالحكمة والإقناع

ترسخه، فمن السهل دوماً على الناس الانحراف نحو الشرك حتى بعد «محمد ﷺ»، ومن الصعب كل الصعب فهم معنى الإله الواحد، تحقيق أي صلة غير ملموسة معه في تعاليه، والذي أراد الرسول ﷺ إيصال الناس له.

وهذا دليل على أن «الرسول ﷺ» قد شرب بعمق من نفس النبع الذي شرب منه إخوته الأنبياء موسى الكليم والمسيح بن مريم عليه السلام وتجاوزهما بالرد على عناد الشرك بنفس المنطق الذي يفهم به هذا العناد، منطق القوة، التي وجدها في نفسه ﷺ وفي أتباعه، ولم يجدها «المسيح عليه السلام» في أتباعه، ولم يساعده قصر باع حياته على تحقيقها بنفسه.

هكذا يمكن فهم الرسول ﷺ في لحظات اضطهاده في مكة، وما أتبعها من تغيرات في مسار دعوته الثاني حين وصل بشكل إعجازي إلى المدينة، حيث كان ملاذاً له في بادئ الأمر ثم وجد فيها قوة دنيوية قادرة على الحوار بمنطق الأمر الواقع والقوة الذي تفهم به العرب، فلم يعد في أعينهم مجرد نبي يدلهم على معنى الألوهية الصحيح هناك، بل زعيماً من أقوى زعماء العرب وذا قوة متنامية، تسمح للدوافع الأرضية أن تخدم أهداف السماء، بمعزل عن الحماس الشخصي لأي إلهام.



الجانب الجهادي في شخصية الرسول ﷺ

على الإلمام التاريخي الدقيق تبنى الأحكام حول شخصية الرسول ﷺ، والذين يدّعون أن الجانب الحربي في شخصيته ﷺ كان مكبوتاً في مكة، لتلده فقط ظروف القوة التي حصل عليها في المدينة، يريدون أن يؤكدوا أن الدين الإسلامي وليد الصدف لا التخطيط الإلهي المسبق المحكم، وأمثال هؤلاء نذكرهم بحادثة إسلام «عمر» رضي الله عنه: «حين دخل الرسول ﷺ إلى الحرم وعلى يمينه «حمزة» رضي الله عنه وعلى يساره «عمر» رضي الله عنه يحميانه وخلفهم أربعون من الصحابة... ولم يجرؤ أحد على الاقتراب منهم أو التعدي على «الرسول ﷺ»... و«حمزة وعمر» رضي الله عنهما محيطان بالرسول كأسدين متوثبين فقدا شبلهما». فقد كان بالإمكان أن تكون هذه الحادثة أول معركة في الإسلام لو لم يظهر من قريش الخوف والتخاذل أمام بروز قوته ﷺ، فأربعون محارباً في ذاك العهد كان كناية عن كتيبة عسكرية يمكنها أن تحدث معركة.

كذلك كل أحاديثه الشريفة في أول دعوته ﷺ كانت تؤكد أن لو أطاعته قريش لخضعت لها كل العرب، وبهم تخضع طواغيت كل الدنيا وتسلم لله لا للجبروت والطغيان والقوة، وهو ﷺ في دعوته لبني «عبد المطلب» في أول دعوته أشار إليهم أنهم لو يؤازرونه لحصلوا على خير الدنيا والآخرة، ويريد لخلفائه الاستمرار في حمل رسالته لكل أمم الأرض، والشواهد لا تحصى على شخصية الرسول ﷺ الجهادية وهي شخصية لا تسعى إلى الحرب للحرب وإراقة الدماء بل لا تجد في الواقع القائم أي ملاذ لتجنب القوة إزاء القوة، وهذا الموقف الواقعي لم يستطع مؤرخو الغرب إلا وزنه بميزان الطوباوية القائمة على إدارة الخد الأيسر للصفعة على الأيمن، والتي لم يحصل التقيد

وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ

لم تكن شخصية الرسول ﷺ تسعى إلى الحرب من أجل الحرب وإراقة الدماء أو إكراه الناس بل كان يدفع ذلك كله كلما أمكن ذلك

بها إلا في سجون محاكم التفتيش، لذلك ادعوا أن شخصية الرسول ﷺ الحربية في المدينة من صنع الظروف لا التخطيط المسبق، وإلا لأقروا بعظمة النبوءة بالفتح عبر فرض الجهاد الإسلامي قبل تحققه، وأن تقرير هذا الأمر قبل حصوله من الرسول ﷺ لم يحصل، ولا يمكنه أن يحصل في تاريخ البشرية إلا مع محمد ﷺ.

ولدعم رأيهم المبتور هذا ذهبوا إلى الافتراء على الرسول ﷺ بأنه أصبح في المدينة أسير توسع عواطفه ورغباته الدنيوية، وعلى هذا النحو صار الوحي أداة يستخدمها للتغلب على الصعوبات التي تواجهه، مما يدفع إلى الشك بصدق هذا الوحي، وبالتالي فما قد نطق به على أنه كلام الله في المدينة هو كلامه الذي يعبر عن رغباته الخاصة في تسيير هذا الحدث أو ذاك لصالحه.

فمن عدم الإلمام بالتاريخ النبوي، أو إغفاله، ومن الخلفية الدوغمائية الطوباوية الثابتة في النظر إلى معنى الدين بمفهومه المسيحي فقط، إلى عدم الرغبة بالإقرار بنبوءته النبوية، وصل بعض المؤرخين الغربيين إلى أن الرسول ﷺ - وحاشاه - هو أول من زيف القرآن؟! وفي هذا أغرب أنواع الدس؟! التي تفتق عنها دعاة الفكر المنهجي في البحث في التاريخ.

فمن مقدمات زائفة انطلقوا منها في فهم السيرة النبوية، إلى نتائج أزيف تغرق حتماً في زيف هذه المقدمات لتزيد بالتدليس والإبلاس!! نعم لم يكن عند الرسول ﷺ بعد ثلاث عشر سنة من الاضطهاد في مكة من ملجأ سوى الذي أراده الله تعالى له في المدينة وكأول مسلم يستعيد جذوة الإسلام الأساسية في الأديان لمنزلة السابقة، والتي ما نزلت تلك الأديان إلا من أجلها، أسلم أمره إلى الله تعالى وهاجر، دون أن يطلعه الله تعالى على غيبه وما رتبه له من قدر، إلا

بالثقة بقدر الله تعالى بشكل مطلق، فبدا بعين المؤرخ المدعي الموضوعية أنه قد خسر كل شيء، من ثروةٍ ومركز اجتماعي وحماية اجتماعية من أهله في موطنه، كما بدا حين وصل إلى المدينة أنه لا يعرف القوى الدنيوية التي ستتجاذبه، والإعجاز كل الإعجاز ثقته المطلقة بالله تعالى التي تحققت بأن كل هذه القوى لم تعمل إلا لصالحه، حتى تلك التي ناوأته تحت اسم ما عرف بالمنافقين أمثال «ابن أبي»، عبر كل المصالح القبلية المتضاربة، والتي كان نتاج تضاربها في كل حصيلته الأخيرة لمصلحة الرسول ﷺ والمسلمين، وأكثر من ذلك وجه هذه القوى التي كانت تفتك ببعضها نحو الأخوة الإسلامية في إيمان واحد، وجعلها أهلاً لأن تحمل رسالة الإسلام إلى كل أمم الأرض، لا لهدف حربي توسعي يهدف إلى التوسع والسيطرة العمياء،

بل لهدف جهادي يهدف إلى توعية شعوب الأرض بمعنى التوحيد ليرتفع بالفكر الإنساني إلى مصاف «الوعي» الجديرة بإنسانية الإنسان، وهذا ما يميز الرسول ﷺ كمجاهد أول يرتفع عن مجرد كونه مجرد عبقرية حربية كغيره من الفاتحين، الذين صاروا بعين التاريخ المنصف في نهاية كل مطاف مجرد سفاكي دماء، فالحماس الجهادي بتلك الروح المتوقدة التي أضاءها الرسول ﷺ في أتباعه طغت على كل ما يمكن أن يتصوره أي تخطيط حربي لأشهر الفاتحين، أساسها الإيمان العميق بالقضاء والقدر لتحريك كل القوى في الإنسان لهدف الجهاد والامتناع عن حساب مدى الربح والخسارة بعد هذا التحريك، لا الاتكالية التي حادت بالتصور الإسلامي للقضاء والقدر عن الإسلام كما بدأ، نحو خنوع عدم المبادرة عند المسلمين في لحظات انحطاطهم التاريخي، فالقضاء والقدر كما فهمه المسلمون الأوائل هو عكس القدرية عند خلفهم من الخانعين، والفارق

وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ

الإيمان يرفع الإنسان عن كل الرغبات عدا الوصول إلى مرضاة الله

الهام بينهما هو حقيق أقصى قدرات الإنسان على المبادرة، على عكس عجز الاستكانة قبل أي فعل ، مما أنتج نتائج لا يمكن لأي حسابات عسكرية توقعها، وما «علي وعمر وخالد» رضي الله عنهم وسواهم من ذوي الروح الوثابة النارية في الاتجاه نحو الجهاد إلا من نتاج روح الإسلام هذه التي بثها الرسول ﷺ بهم بالثقة بالقدر، كما فعل هو لحظة هجرته عبر تحقيق أقصى قدرات وإمكانات جهد الجهاد، مما أطلق تلك القوى الهائلة نحو مشارق الأرض ومغاربها لرفع الفكر الإنساني من حدود مجرد القدرة على الالتفاف - الفكر - إلى حدود التعرف على المطلق - الوعي - وهذا التعرف هو أول خطوة نحو إدراك الإله الواحد المتعالي الذي ليس كمثله شيء، إدراكاً يرتفع بالإنسان نحو أهم صفة تميزه عن باقي المخلوقات ألا وهي صفة الوعي!!

ثمرة الجهاد هو: إيصال الناس إلى وعي الواحدية المطلقة تعالى عن كل شيء، وبهذا الوعي يرتفع الإنسان عن كل الرغبات عدا رغبة الوصول إلى مرضاة الله حيث هذا هو نعيم النعيم في كل خلد، لذلك لم يحرك النصر العسكري المذهل للرسول ﷺ ولا لأتباعه من بعده ممن صدقوا عهد الجهاد، أي فخار فيهم ول أي استعلاء كما لو كانوا يعملون لأي هدف أناني، ففي أوقات انتصاراته الكبرى ﷺ ظل على عهده في بساطة سلوكه ومظهره كما كان في أيام اضطهاده في مكة، وكأن شيئاً لم يتغير، وبعيداً عن كل مظاهر الرئاسة كان الرسول ﷺ يغضب إذا دخل غرفة وقام الناس تعظيماً له، أو يعظمون بعضهم بعضاً كما تفعل الأعاجم، لأنه إذا كان يريد أي سيطرة على الناس فالسيطرة الوحيدة التي يريد أن يراها عليهم هي سيطرة الإيمان، أما السلطة الأرضية التي صارت طوع إرادته، فقد استخدمها لأجل الدين فقط ولم يأخذ منها لنفسه شيئاً، وهو حين

ثق بربك وتوكل عليه سبحانه وتعالى . ذلك هو القانون الأول

مات ﷺ لم يترك ديناراً ولا درهماً ولا عبداً ولا أمة، كذلك ثبت أنه ﷺ رفض أن يورث هذه السلطة حتى لآل بيته وأسرته.

وكل الأموال التي كانت تتدفق عليه من الجزية والزكاة ومغانم الحرب، كان ينفقها في سبيل مزيد من نشر الدعوة، وعلى المساكين وأبناء السبيل، إلى درجة أن خزينته كانت كثيراً ما تنضب من كل مال يدخلها على كثرته، وعن «عمر بن الحارث» أخي «جويرية بنت الحارث» زوجة الرسول ﷺ وعن «عائشة» رضي الله عنها قالت: «ما ترك رسول الله ﷺ ديناراً ولا درهماً ولا شاة ولا بعيراً، ولا أوصى بشيء»[1] نعم لم يوصِ بشيء لأنه أنكر ذاته، ولم ير في أي ذات أخرى ما لا يستحق الإنكار، وتلك هي معالم الشخصية النبوية الصادقة مع نفسها قبل صدقها مع الآخرين، وهذا من أوضح دلائل الصدق في نقل ما هو متحقق من يقينه للناس في ذاته أولاً ﷺ.

يمكن للمؤرخ أن يقدر بدقة وعدل شخصية «محمد ﷺ»، فيفسر لماذا رفض كل مظاهر التبجيل الأرضي والفوائد الشخصية بعد أن صارت كل قوى ومصادر المادة تحت تصرفه وبين يديه، فظلت روح الإلهام الإلهي التي تحلت بها روحه بعد الوحي منذ أول تعرضه له، فعّالة فيه بصورة مستمرة، لتعاوده دوماً وترفعه فوق كل المطالب المادية الأرضية، وفي الفترات التي تفصل نزول الوحي كانت الصلاة التي تعتبر أهم واجب في الإسلام، هي المعين على استمرارية تطهير الذات في شرعه وحث عليها المسلمين من بعده، فالثقة بالله وطلب العون منه وحده تعالى حين التعرض للمحن كانت معينه الوحيد

لم يدعِ النبي ﷺ معرفة الغيب، ولا أُذنَت هذه المعرفة لسواه، فعلى رحمة الله تعالى فقط أوقف كل آماله بالسعادة السماوية والأرضية، وقد أكد هذا «لعائشة» رضي الله عنها إذ سألت الرسول ﷺ في إحدى المناسبات متلهفة مستقصية عما إذا كان لا يدخل أحد

أحسن الظن بربك يكن معك

الجنة إلا برحمة من الله تعالى فقال وكان جوابه لها: أبداً لن يدخل الجنة أحد بدون رحمة من الله؟! فتساءلت بدورها ولا حتى رسول الله؟! فجاءها الجواب القاطع منه ﷺ بأنه لن يدخل الجنة إلا إذا غمره الله تعالى برحمته. فالثقة بالله والتوكل عليه قانون مارسه الرسول ﷺ في كل سلوك حياته، حتى إنه عندما أشرف على فراش موت طفله «إبراهيم» رضي الله عنه أسلم لإرادة الله تعالى كلية واضعاً هذا الإسلام فوق كل عواطفه الأبوية، على أمل الثقة المطلقة باللقاء الحتمي مع ابنه في جنة الخلد، فكان هذا عزاءهُ الوحيد في هذه الفاجعة، وحين نزل معه إلى القبر ليتفحص قبره بيديه الشريفتين، ظل على ثباته على هذا الأساس من أسس إيمانه الصريح الحق مؤكداً وحدانية الله تعالى التوكل عليه في كل المصائب، ومن خلال هذا التأكيد العملي يظهر لنا تأكيد آخر صريح بمهمته كرسول لله، وحتى في لحظات موته ﷺ حيث لا يعود للإنسان أي مكان لأي مطلب مادي أرضي، ظل يعبر عن هذه القناعات نفسها التي تؤكد هذا الإيمان الصارخ المتين بمهمته النبوية، ألم تكن آخر كلماته كما سبق وأشرنا رافعاً بصره إلى السماء:

«فرفع بصره إلى السماء وقال:

في الرفيق الأعلى في الرفيق الأعلى»[٢]، وقبلها بقليل كان يؤكد لمن حوله ضرورة أن «لا يموتن أحدكم إلا وهو حسن الظن بالله تعالى»[٣]، فقد كان ﷺ متأكداً من أنه سيلحق بالأنبياء والرسل وسيحشر معهم. وأخيراً نجد أنه من الصعب حتى على المنكرين لرسالته ﷺ أن ينكروا عليه ﷺ صدق شعوره الذاتي فيها، ولا أن ينكروا سمو وصدق توجه القرآن الكريم وما يتضمنه من حكمة وشمولية كلية لكل زمان ومكان تأسر قارئه، ولا يمكنها أن تكون موجهة لغرض أو أغراض أرضية وأهداف نفعية فقط.

الحواشي

(١) ابن كثير ، ص٥٦٠.
(٢) ابن كثير، ص٤٧٤. وانظر ابن هشام، السيرة النبوية، جـ٤، ص٦٥١.
(٣) المرجع السابق، ص٤٧٢.


وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ
مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ
انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ


وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ
فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا
وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ



وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ

الفصل الثالث

الأيام الأخيرة مجملة مع الحكم المستفادة منها



لم لا يضيئ بك الوجود وليله
فيه صباح من جمالك مسفر
فبشمس حسنك كل يوم مشرق
وببدر وجهك كل ليل مقمر
الشاعر محمد الوفا





ختم النبي ﷺ

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِين مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾

سكن المعرفة يطرد قلق الحيرة والجهل

زالت غبرة الجاهلية عن آفاق الجزيرة كما تزول بقايا الليل أمام طلائع الشروق ، وصحت العقول العليلة فلم تعد تخشى وترجو إلا الله ، بعد ما ظلت دهوراً تعبد أصناماً جامدة، وسُمع الأذان للصلوات يشق أجواز الفضاء خلال الصحراء التي أحياها الإيمان الجديد، وانطلق القرّاء شمالاً وجنوباً يتلون آيات الكتاب، ويقيمون أحكام الله، ويعلّمون العرب ما لم يعلموا هم ولا آباؤهم.

إن هذه الجزيرة - منذ نشأ فوقها عمران - لم تهتز بمثل هذه النهضة المباركة، ولم يتألق تاريخها تألقه في هذه الأيام الفريدة من عمرها.

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً﴾

الرسالة روح وموقف وليست شكلا لا يعرف

وكان النبيُّ ﷺ في المدينة يستقبل الوفود ويشيّعها بعد ما ينفخ فيها من روحه الكبير، ويزودها بحكمته الباهرة، فتعود من حيث أتت لتنشئ في مواطنها القصية معاقل للإسلام وصحائف بيضاً في تاريخ أمة.

ولم يكتف النبي بترقب الوفود المقبلة، بل أرسل رجاله الكبار إلى الجنوب ليزيد رقعة الإسلام هناك اتساعاً.

فإن في اليمن وما حولها قبائل كثيفة العدد ولأهل الكتاب السابقين نشاط قديم، وقد نشأ الإسلام هناك حقاً وتقلّص ظل الفرس لغير عودة.

إلا أن هذه البقاع النائية تحتاج مزيداً من رعاية وتفقّد.

ومن ثَمَّ بعث النبيّ ﷺ خالد بن الوليد، ثم معاذ بن جبل وأبا موسى الأشعري، ثم علياً بن أبي طالب[1].

وكأنّ هاتفاً خفياً انبعث في قلب رسول الله ﷺ يشعره أن مقامه في الدنيا يوشك على النهاية!

كن حساس الضمير مرهف الشعور تقيّاً ولو كنت في أحلك اللحظات واستذكر نبيك محمد ماذا أوصى معاذاً في اخر حياته

فإنه بعد أن علّم معاذ بن جبل كيف يدعو من يلقاهم، وكيف يعرفهم دينهم خرج معه إلى ظاهر المدينة يوصيه، ومعاذ راكب ورسول الله ﷺ يمشي تحت راحلته!.

فلما فرغ قال: **يا معاذ إنك عسى أن لا تلقاني بعد عامي هذا! ولعلك أن تمر بمسجدي هذا وقبري!** فبكى معاذ خشعاً لفراق رسول الله ﷺ. ثم التفت النبي ﷺ بوجهه نحو المدينة فقال **إن أولى الناس بي المتقون، مَنْ كانوا وحيث كانوا**".

وقد وقع ما أومأ إليه الرسول ﷺ، فإن معاذاً أقام باليمن حتى كانت حجة الوداع ثم كانت وفاة النبي ﷺ بعد الحج الأكبر بأحد وثمانين يوماً، ومعاذ باليمن.

وقد كان للعناية باليمن ما يبررها، فقد ظهر فيها وفي بني حنيفة دجّالان يزعمان النبوة.

ولم يكن لكلا الدجّالين من خلال الرجولة وآيات الخير ما يجمع عليه حفنة من الرجال.

ولكن داء العصبية العمياء، جعل قبيلاً كبيراً من الرعاع يقول:

نحن نعلم أن مسيلمة كذاب، ولكن كذاب ربيعة خير من صادق مضر!!

وقد اشتعلت فتن المتنبئين حيناً، ثم داستها أقدام المجاهدين بعد، فأخمدت جذوتها، وذهبت نبوة مسيلمة وغيرها كما تذهب بولة شاة على أديم الثرى

يمثل الحج أحد أركان الإسلام الخمسة، وقد فرض في العام العاشر أو التاسع أو السادس على اختلاف الروايات[٣].

وفي العام العاشر أعلن النبي ﷺ عزمه على الحج وهي المرة الوحيدة التي حج فيها بعد الهجرة إلى المدينة، فتقاطر الناس من أرجاء الجزيرة للحج معه، وخرج من المدينة لخمس بقين من ذي القعدة[٤]. ولما وقف في عرفة نزلت عليه الآية ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾[٥].

وقد تعلم المسلمون مناسك الحج من النبي ﷺ حيث قال لهم (خذوا عني مناسككم). فجاءت حجته حافلة بالأحكام الشرعية وخاصة ما يتعلق بالحج وبالوصايا والأحكام العامة التي وردت في خطبة عرفات، لذلك اهتم العلماء بحجة الوداع اهتماماً كبيراً واستنبطوا منها الكثير من أحكام المناسك وغيرها مما تحفل به كتب الفقه وكتب شروح الحديث وخصص بعضهم مؤلفات مستقلة في حجة الوداع[٦].

شهد الموسم معه جمع غفير من المسلمين[٧]. استمعوا إلى خطبة الوداع التي ألقاها في عرفات في وسط أيام التشريق وجاء فيها:

(إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، ألا إن كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدميّ هاتين موضوع، ودماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث، وربا الجاهلية موضوع وأول ربا أضع ربانا: ربا عباس

بن عبد المطلب فإنه موضوع كله، فاتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله، وإن لكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرِّح، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف. وإني قد تركت فيكم ما لن تضلوا بعد إن اعتصمتم به كتاب الله، وأنتم تُسألون عني، فما أنتم قائلون؟ قالوا نشهد أنك قد بلغت رسالات ربك، وأديت، ونصحت لأمتك، وقضيت الذي عليك، فقال: بأصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس: اللهم اشهد اللهم اشهد).

كان الرسول ﷺ يريد – بعد بلاء طويل في إبلاغ الرسالة – أن يفرغ في آذان الناس وقلوبهم آخر ما لديه من نصح. كان يُحسُّ أن هذا الركب سينطلق في بيداء الحياة وحده، فهو يصرخ به كما يصرخ الوالد بابنه الذي انطلق به القطار، يوصيه بالرشد، ويذكِّره بما ينفعه أبداً.

وكان هذا النبيُّ ﷺ الطيب كلما أوجس خيفة من مكر الشيطان بالناس، عاود صيحات الإنذار، واستثار أقصى ما في

وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ

عزة قعساء ونصر مصحوب بالضراعة والتواضع والعفو والتسامح

الأعماق من انتباه، ثم ساق الهدي والعلم... وقطع المعاذير المنتحلة، وانتزع - بعد ذلك - شهادة من الناس على أنفسهم وعليه أنهم قد سمعوا، وأنه قد بلَّغ..

لقد ظل ثلاثة وعشرين سنة يصل الأرض بالسماء، ويتلو على القاصي والداني آي الكتاب الذي نزل به الروح الأمين على قلبه، ويغسل أدران الجاهلية التي التاث بها كل شيء، ويربِّي من هؤلاء العرب الجيل الذي يفقه الحقائق ويفقِّه العالم فيها..

وها هو ذا يقود الحجيج في أول موسم يخلص فيه من الشرك، ويتمحض فيه لله الواحد القهار.

وها هو ذا على ناقته العضباء يتوسط الجماهير المائجة ليؤكد المعاني التي بعث بها، والتي عرفهم عليها، ويخلِّي ذمته من عهدة البلاغ والتبيان التي نيطت بعنقه.

لقد أجيبت دعوة أبي الأنبياء إبراهيم حين هتف وهو يبني البيت العتيق:

﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[٩].

إن العزيز الحكيم تجلّى باسميه الجليلين على هذه الديار، فوهب العزة والحكمة أوْ قل: القوة والسياسة

لمحمد بن عبد الله، فعالج بها الآثام الجاثمة على صدر الأرض، فما استعصى على الأناة والحلم استكان للتأديب والحكم.

وبهذا المنهج الجامع بين العدل والرحمة أخذت رقعة الباطل تنكمش رويداً رويداً حتى اختفت الجاهلية ولوثاتها، وثبت الإسلام، ثم أصاخ العرب - بعد ما لان قيادهم - إلى صوت الحق الأخير في حجة الوداع.

حب آل البيت من الإيمان فأكرم آل بيت رسول الله
واعلم أن نصاعة النسب يعوزها شرف العمل ومقصده

وقد ألقى خطباً أخرى في منى وذكر في إحداها

(لا ترجعوا من بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض)[١٠٠].

وفي طريق العودة من حجة الوداع خطب الرسول ﷺ الناس في غدير خم قريباً من الجحفة في اليوم الثامن عشر من ذي الحجة، وأمسك بيد علي بن أبي طالب فقال:

(من كنت مولاه فعلي مولاه)

وكان علي قد أقبل من اليمن وشهد حجة الوداع[١٠١] وقد اشتكى بعض الجند علياً وأنه اشتد في معاملتهم وكان قد استرجع منهم حللاً وزعها عليهم نائبه، فأوضح لهم النبي ﷺ في غدير خم مكانة علي ونبه على فضله لينتهوا عن الشكوى[١٠٢].

كن وفياً لفكرتك واعمل على دعمها بهمتك .
وليس بمجرد كلمتك

فلما قضى الرسول ﷺ مناسكه حثَّ الركاب إلى المدينة المطهرة لا ليأخذ حظاً من الراحة، بل ليستأنف حياة الكفاح والكدح لله.

قفل الرسول ﷺ إلى المدينة ليعبئ جيشاً آخر يقاتل به الروم.

فإن كبرياء هذه الدولة على الإسلام جعلتها تأبى عليه حق الحياة، وحملها على أن تقتل من أتباعها من يدخل فيه.

كان «فروة بن عمرو الجذامي» والياً من قبل الروم على «معان» وما حولها من أرض الشام، فاعتنق الإسلام وبعث إلى النبي يخبره بذلك.

وغضب الرومان، فجردوا على «فروة» حملة جاءت به وألقي في السجن حتى صدر الحكم بقتله فضرب عنقه على ماء لهم يقال له «عفراء» بفلسطين، وترك مصلوباً ليرهب غيره أن يسلك مسلكه! وقيل: إنه لما قدم للقتل قال:

بلغ سَراةَ المسلمين بأنني
سَلْمٌ لربي، أعظمي ودمائي

اختر صاحب الكفاءة والمرء ليس بسنين عمره بل بعظيم اهتمامه

فقفل النبي ﷺ من حجة الوداع، ومضت بقية ذي الحجة والمحرم وصفر من العام العاشر فبدأ بتجهيز جيش إلى الشام وأمّر عليه أسامة بن زيد بن حارثة، وأمره أن يتوجه نحو البلقاء وفلسطين، فتجهز الناس وفيهم المهاجرون والأنصار، وكان منهم أبو بكر وعمر، وكان أسامة بن زيد ابن ثماني عشرة سنة، وتكلم البعض في تأميره وهو مولى وصغير السن على كبار المهاجرين والأنصار، فلم يقبل الرسول ﷺ طعنهم في إمارة أسامة وأوصى به خيراً[١٣]. ولأن الرسول ﷺ كان يريد من تقديم «أسامة» رضي الله عنه دروساً أخرى للمسلمين عن معالي الإسلام في الرق وفي البنوة وأحلية زواج زوجة المتبني وفي الوفاء وفي الصحبة، ولمعرفته ﷺ بعدم فهم البعض لهذا التقديم، جمع الجيش وأخذ منه الولاء لأسامة، مذكراً بفضل أبيه «زيد» رضي الله عنه في افتتاح فتوح الشام، والذي سقط بنفس المكان الذي سيصول ويجول فيه ابنه وعلى يديه بإذن الله سيكون الفتح، ثم عقد الراية لهذا الشاب بيديه الشريفتين، داعياً له بالقتال قتال المؤمن لا قتال الجبابرة ضد كل من يقف أمام اسم الله الواحد الأحد، وعلى هذا الأساس من الوفاء والوفادة والرسالة لكل أمم الأرض، تحرك الجيش في نفس اليوم ولا شك أن النبي لا يلتفت في ولايته إلا إلى الجدارة.

فمن استحق منصباً بكفايته قدّمه له، غير مكترث بحداثة سنه.

فإن كبر السن لا يهب للأغبياء عقلاً، ولا الصغر ينقص الأتقياء فضلاً.

فما الحداثة عن حلم بمانعة
قد يوجد الحلم في الشبان والشيب

ولذلك قال رسول الله ﷺ - رداً على اعتراض الناقدين -:

لئن طعنتم في تأميري أسامة لقد طعنتم في تأميري أباه من قبل، وايم الله إن كان لخليقاً بالإمارة، وإن ابنه من بعده لخليقاً بها، وإن كان لمن أحب الناس إلي»[١٤].

كبر السن لا يهب للأغبياء عقلاً . ولا الصغر ينقص الأتقياء فضلاً

وانتدب الناس يلتفون حول «أسامة» وينتظمون في جيشه.

ولكن هذه الحملة تأخرت بسبب مرض الرسول ﷺ بعد البدء بتجهيزها بيومين فقط. وكان أسامة قد أخذ اللواء الذي عقده الرسول ﷺ بيده وعسكر بالجرف[١٥]. وقد انفرد الواقدي بذكر عدد جيش أسامة وأنهم ثلاثة آلاف[١٦].

إلا أن الأخبار المقلقة عن مرض رسول الله ﷺ أكرهتهم على التريث حتى يعرفوا ما يقضي به الله...

إلى الرفيق الأعلى

وقد ألم المرض بالرسول ﷺ فاشتكى بعد عودته من حجة الوداع بحوالي ثلاثة أشهر[١٧]، وكان بدء شكواه في بيت ميمونة أم المؤمنين[١٨]، واستغرق مرضه عشرة أيام[١٩]، ومات في يوم الإثنين في الثاني عشر من ربيع الأول[٢٠]. وهو ابن ثلاث وستين[٢١] وقد صح أن شكواه ابتدأت منذ العام السابع عقب فتح خيبر بعد أن تناول قطعة من شاة مسمومة قدمتها له زوجة سلاّم بن مشكم اليهودية رغم أنه لفظها ولم يبتلعها لكن السم أثر عليه[٢٢]. وقد طلب من زوجاته أن يُمَرَّضَ في بيت عائشة أم المؤمنين[٢٣]، فكانت تمسح بيده عليه لبركتها وتقرأ عليه المعوذتين[٢٤].

وقد دعا إليه فاطمة رضي الله عنها فسَارَّها بشيء فبكت، ثم دعاها فسَارَّها بشيء فضحكت، وقد أخبرت بعد وفاته أنه أخبرها أنه يموت فبكت وأخبرها بأنها أول أهله لحاقاً به فضحكت[٢٥] وقد كان ذلك فهو من علامات النبوة.

وقد أثقله المرض ومنعه من الخروج للصلاة بالناس فقال:

مروا أبا بكر فليصل بالناس.

وقد راجعته عائشة رضي الله عنها لئلا يتشاءم الناس بأبيها فقبالت: إن أبا بكر رجل رقيق ضعيف الصوت كثير البكاء إذا قرأ القرآن[٢٦] فأصر على ذلك، فمضى أبو بكر يصلي بهم[٢٧] وخرج النبي مرة يتوكأ على العباس وعلي فصل بالناس وخطبهم وقد أثنى في خطابه على أبي بكر رضي الله عنه وبين فضله وأشار إلى تخيير الله له بين الدنيا والآخرة واختياره الآخرة[٢٨].

وكانت آخر خطبةٍ له قبل موته بخمس ليال وقال فيها:

إن عبداً عرضت عليه الدنيا وزينتها فاختار الآخرة، ففطن أبو بكر إلى أنه يقصد نفسه فبكى وتعجب الناس منه إذ لم يدركوا ما فطن له[٢٩].وكشف في صلاة الفجر يوم وفاته ستر حجرة عائشة ونظر إلى المسلمين وهم في صفوف الصلاة ثم تبسم وضحك وكأنه يودعهم، وهم المسلمون أن يفتتنوا فرحاً بخروجه. وتأخر أبو بكر رضي الله عنه حيث ظن أن الرسول ﷺ يريد الخروج للصلاة :**فأشار الرسول إليهم بيده** أن أتموا صلاتكم ثم دخل الحجرة وأرخى. ودخلت عليه فاطمة فقالت: واكربَ أباه. فقال لها:

ليس على أبيك كرب بعد اليوم[٣٠].

ودخل عليه أسامة بن زيد فدعا له بالإشارة إذ كان صامتاً لا يتكلم لثقل المرض[٣١].

وكان عندما حضره الموت مستنداً إلى صدر عائشة، وقد أخذت سواكاً من أخيها عبد الرحمن فقضمته وأعدته فاستن به الرسول ﷺ[٣٢].

وكان يدخل يده في إناء الماء فيمسح وجهه ويقول:

لا إله إلا الله إن للموت سكرات[٣٣].

بين يدي ربك ستحاسب على وقوفك على مسرح الحياة . كن متمثلاً طاعة ربك وكف عن الإيذاء بالبشر من حولك

وأخذته بحة وهو يقول:

(مع الذين أنعم الله عليهم)[٣٤].

ويقول:

اللهم في الرفيق الأعلى

فعرفت عائشة أنه يخير وأنه يختار الرفيق الأعلى[٣٥].

وقبض ﷺ ورأسه في حجر عائشة رضي الله عنها حين اشتد الضحى وقيل عند زوال الشمس، ودخل أبو بكر رضي الله عنه وكان غائباً في السنح فكشف عن وجه النبي ﷺ ثوباً كان عليه، ثم أكب عليه وقبله وخرج إلى الناس، وهم بين منكر ومصدق من هول الأمر، فرأى عمر رضي الله عنه يكلم الناس منكراً موت الرسول ﷺ فاجتمع الناس على أبي بكر فقال: أما بعد من كان منكم يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان منكم يعبد الله فإن الله حي لا يموت.

قال الله:

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾

فسكن الناس وجلس عمر رضي الله عنه على الأرض لا تحمله قدماه وكأنهم لم يسمعوا الآية إلا تلك الساعة[٣٦].

وقالت فاطمة رضي الله عنها:

يا أبتاه أجاب رباً دعاه.
يا أبتاه من جنة الفردوس مأواه.
يا أبتاه إلى جبريل ننعاه[٣٧].

الحواشي

(١) بعث هؤلاء الأربعة في صحيح البخاري (٨/٤٩-٥٧).
(٢) صحيح أخرجه أحمد (٢٢٥٨٥) بسند صحيح عن معاذ.
(٣) ابن كثير:البداية والنهاية ١٠٩/٥.
(٤) فتح الباري ١٠٤/٨ وابن إسحق بإسناد حسن (سيرة ابن هشام ٢٧٢/٤) وابن كثير: البداية والنهاية ١١١/٥ وهي رواية ابن إسحق نفسها وقال: إسناده جيد.
(٥) صحيح البخاري (فتح الباري ١٠٨/٨).
(٦) أفردها ابن حزم في مجلده (البداية والنهاية ١٠٩/٥) ومن المعاصرين الشيخ ناصر الدين الألباني في مؤلفه حجة النبي والشيخ محمد زكريا الكاند هلوي في مؤلفه حجة الوداع.
(٧) قدرهم أبو زرعة بأربعين ألفا. (ابن كثير: اختصار علوم الحديث ١٨٥).
(٨) الرواية في صحيح مسلم ٣٨/٤-٤٣ من حديث جابر بن عبد الله وقد أضاف إليها الشيخ محمد ناصر الدين الألباني زيادات يسيرة من كتب الحديث الأخرى التي أوردت حديث جابر بزيادة صحيحة (حجة النبي ص٧١-٧٣) وانظر تخريج حديث جابر في (حجة النبي ٣٨-٤١) وانظر بعض الخطبة في صحيح البخاري (فتح الباري ١٠٨/٨) وقد ساق ابن إسحق نصا طويلا لخطبة الوداع بدون إسناد. وساق الإمام أحمد نصا طويلا لخطبة حجة الوداع التي ألقيت في أوسط أيام التشريق وفي سنده علي بن زيد بن جدعان قال عنه الحافظ ابن حجر في التقريب «ضعيف» قال البنا: «وروى البزار نحوه بمعناه عن ابن عمر من وجه آخر، ورواه أئمة الحديث في كتبهم مقطعا في أبواب متفرقة من طرق صحيحة والله أعلم» (الفتح الرباني ٢٧٩-٢٨١).
(٩) سورة البقرة: ١٢٩.
(١٠) صحيح البخاري (فتح الباري ١٠٧/٨) وصحيح مسلم ٨٢/١.
(١١) ابن كثير: البداية والنهاية ٢٠٩/٥وقال عن الحديث إسناده جيد قوي وذكره بأسانيد أخرى صحح الذهبي إحداها. وذكر ٢١٢/٥ وزيادة له وهي قوله صلى الله عليه وسلم: (اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه) وقال عن سندها: «إسناد جيد رجاله ثقات على شرط السنن وقد صحح الترمذي بهذا السند حديثه».
(١٢) المصدر السابق ١٠٦/٥.
(١٣) انظر الفتح الرباني ٢٢١/٢١- ٢٢٣.
(١٤) صحيح البخاري (١٣٤٩٨) عن عبد الله بن عمر وصححه الترمذي (٣٥٠/٤).
(١٥) سيرة ابن هشام ٣٢٨/٤ وفتح الباري ١٥٢/٨.
(١٦) فتح الباري ١٥٢/٨.
(١٧) قال ابن كثير إن وفاته عليه السلام كانت بعد أحد وثمانين يوماً من يوم الحج الأكبر (البداية والنهاية ١٠١/٥).
(١٨) قال ابن حجر إنه المعتمد، ووردت روايات متعارضة أخرى أنه اشتكى في بيت زينب بنت جحش أو ريحانة (فتح الباري ١٢٩/٨).
(١٩) جزم به سليمان التيمي، وأخرجه البيهقي بإسناد صحيح. والأكثر على أنها ثلاثة عشر يوما (فتح الباري ١٢٩/٨).
(٢٠) اعتمد الحافظ ابن حجر قول أبي مخنف أنه مات في ثاني شهر ربيع الأول وأن الآخرين زادوا «عشر» بعد «ثاني» غلطا منهم (فتح الباري ١٣٠/٨).
(٢١) صحيح البخاري (فتح الباري ١٥٠/٨).
(٢٢) صحيح البخاري (فتح الباري ١٣١/٨).
(٢٣) صحيح البخاري (فتح الباري ١٤١/٨) ومسند أحمد (الفتح الرباني ٢٢٦/٢١) بإسناد صحيح.
(٢٤) صحيح البخاري (فتح الباري ١٣١/٨).
(٢٥) صحيح البخاري (فتح الباري ٢٠٨/١) وانظر معاني أخرى في أعلام الحديث للخطابي.
(٢٦) سيرة ابن هشام ٣٣٠/٤ بإسناد صحيح وابن كثير: البداية والنهاية ٢٣٢/٥.
(٢٧) انظر ابن كثير: البداية والنهاية ٢٣٢/٥-٢٣٣.
(٢٨) صحيح البخاري (فتح الباري ١٤١/٨) وانظر مسند أحمد (الفتح الرباني ٢٣١/٢١). وابن كثير: البداية والنهاية ٢٢٩/٥-٢٣٠.
(٢٩) مسند أحمد (الفتح الرباني ٢٢٢/٢١ والحاشية رقم ٣ منه) وتركة النبي (ق. أ. ب) بإسناد رجاله ثقات لكنه مرسل.
(٣٠) صحيح البخاري (فتح ١٤٩/٨).
(٣١) سيرة ابن هشام ٣٢٩/٤ بإسناد صحيح.
(٣٢) صحيح البخاري (فتح الباري ١٣٨/٨).
(٣٣) صحيح البخاري (فتح الباري ١٤٤/٨).
(٣٤) صحيح البخاري (فتح الباري ١٣٦/٨).
(٣٥) صحيح البخاري (فتح الباري ١٣٦/٨) وسيرة ابن هشام ٣٢٩/٤ بإسناد صحيح.
(٣٦) صحيح البخاري (فتح الباري ١٤٥/٨).
(٣٧) صحيح البخاري (فتح الباري ١٤٩/٨).


يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ
إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا
وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا



الله
عليه
وسلم
وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا
منيرا وبشر المؤمنين بأن لهم
من الله فضلا كبيرا



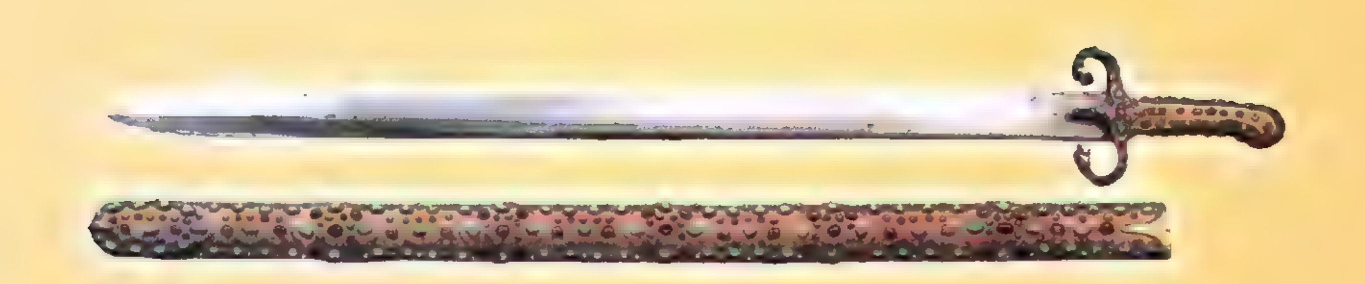


الفصل الرابع

تفاصيل الساعات واللحظات الأخيرة في حياة الرسول محمد صلى الله عليه وآله وسلم

إن المكارم أخلاق مطهرة
فالدين أولها والعقل ثانيها
والعلم ثالثها والحلم رابعها
والجود خامسها والفضل سادسها
والبر سابعها والصبر ثامنها
والشكر تاسعها واللين باقيها
والنفس تعلم أني لا أصدقها
ولست أرشد إلا حين أعصيها







سيف النبي ﷺ

شعر الرسول ﷺ بوعكة المرض الذي نزل به أواخر صفر من السنة الحادية عشرة، وبدأت آلامه صُداعاً حاداً عاناه في سكون، حتى ثقل عليه الوجع وهو في بيت زوجه ميمونة .. فلم يستطع الخروج.

وأذنَ له نساؤه أن يُمرَّض في بيت عائشة لِما رأين من ارتياحه إلى خدمتها له.

فخرج من عند ميمونة بين الفضل بن العباس، وعلي بن أبي طالب.

وكان الألم قد أوهى قواه، فلم يستطع مسيراً.

فانتقل بينهما معصوب الرأس، تخط قدماه على الأرض... حتى انتهى إلى بيتها[1].

واشتدت وطأة المرض على رسول الله ﷺ، واتّقدت حرارة العلة في بدنه.

فطلب أن يأتوه بماء يتبرد به... ماء كثير!!

« **أهريقوا عليَّ سبع قِرَب من آبار شتى...** ».



قالت عائشة: فأقعدناه في مخضب لحفصة، ثم صببنا عليه الماء. حتى طفق يقول: «**حسبكم حسبكم**[2]...».

وعندما أحس الرسول ﷺ بأن سَوْرَة الحر خفَّت عن بدنه، استدعى الفضل ابن عمه العباس، فقال: **خذ بيدي يا فضل** - وهو موعوك معصوب الرأس -، قال الفضل: فأخذت بيده حتى دخل المسجد، وجلس على المنبر، ثم قال: **نادِ في الناس، فاجتمعوا إليه**.

وكانت ظهيرة تظللها الكآبة وتغمرها الرقّة، اشرأبّت فيها الأعناق إلى الرجل الذي أحيى موات القلوب، وأخرجهم وذرياتهم ونساءهم من الظلمات إلى النور، تطلّعت إليه الأعين الحائرة فرأته متعباً.

كي يستريح ضميرك كن شفافاً واضحاً مع من حولك وتعاون مع الكل على الخير وخدمة الدين والبعد عن إيذاء الناس

انهزمت العافية في بدنه الجلد أمام سطوة المرض العاتي.

إلا أنه أخذ يحدثهم ويربّيهم على عهدهم به دائماً. وأنصتوا، فإذا هم يسمعون منه عجباً.. إنه لما أحس بدنوّ أجله أحب أن يلقى الله وليس هناك بشر يطلبه بتبعة.

إنه تحرّى العدالة في شؤونه كلّها ، لكن من يدري؟ ربما عرض له سَهوٌ مما يعرض لبني آدم، أو خطأ فجار، وهو الذي يبرأ من الجَوْر وذويه!!.

إذن ليخطبِ الناس في هذا حتى يستريح ضميره.. قال:

«أما بعد أيها الناس: فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو.

فمن كنت جلَدتَ له ظهراً فهذا ظهري فليستَقدْ منه! ومن كنت شتمت له عرضاً فهذا عرضي فليستقد منه!.

ألا وإن الشحناء ليست من طبعي ولا من شأني. ألا وإن أحبكم إليَّ من أخذ مني حقاً إن كان لَهَ أو أحلّني منه فلقيتَ الله وأنا طيبُ النفس.

وقد أرى أن هذا غيؤر مغن عني حتى أقوم فيكم مراراً.

قال الفضل: ثم نزل فصلّى الظهر، ثم رجع فجلس على المنبر، فعاد لمقالته الأولى في الشحناء وغيرها. فقام رجل فقال: يا رسول الله، إن لي عندك ثلاثة دراهم؟ فقال: **أعطه يا فضل.**

ثم قال النبي: **أيها الناس من كان عنده شيء فليؤده ولا يقل: فضوح الدنيا. ألا وإن فضوح الدنيا**

وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ
أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ

أيسر من فضوح الآخرة!.

فقام رجل فقال: يا رسول الله عندي ثلاثة دراهم غللتها في سبيل الله.

قال: **ولم غللتها؟** قال: كنت إليها محتاجاً..

قال: خذها منه يا فضل.

ثم قال: **أيها الناس، من خشي من نفسه شيئاً فليقم أدْعُ له.**

فقام رجل فقال: يا رسول الله، إني لكذّاب، غني لفاحش، إني لنؤوم! فقال النبي: **اللهم ارزقه صدقاً، وإيماناً وأذهب عنه النوم.**

ثم قام رجل آخر فقال: والله يا رسول الله إني لكذاب، وإني لمنافق، وما من شيء إلا قد جنيته.

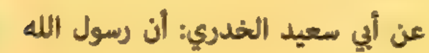
فقام عمر بن الخطاب فقال له: فضحت نفسك! فقال النبي: **يا ابن الخطاب فضوح الدنيا أهون من فضوح الآخرة، اللهم ارزقه صدقاً، وإيمانا وصير أمره إلى خير**[٣].

* * *

وعاد النبي إلى بيته اللاصق بالمسجد لينام في فراش السقام وهو الذي لم يتعود أن يركن إليه أو يهدأ فيه.

كانت هناك مهام كثيرة ترتقب صحوه ليبُتّ فيها، ولكن أعباء العلة حبسته في قيودها فلم يستطع منها فكاكاً.

وإذا استطاع أن يخرج في فترات قليلة تخف فيها حدة المرض، فإلى المسجد ليلقي نظرات أخيرة على الأمة التي صنعها، والرجال الذين أحبهم.


عن أبي سعيد الخدري: أن رسول الله 

عمران آخرتك يكون بصحبتك لربك في دنياك . فكلما استحضرت مرضاة الله في حياتك كانت آخرتك نوراً

جلس يوماً على المنبر فقال:

إن عبداً خيَّره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا ما شاء، وبين ما عند الله، فاختار ما عند الله..

فبكى أبو بكر، ثم قال: فديناك بآبائنا وأمهاتنا يا رسول الله..

فقال أبو سعيد: فتعجبنا له، وقال الناس: انظروا إلى هذا الشيخ يخبر رسول الله ﷺ عن عبد يخيَّر ويقول: فديناك بآبائنا وأمهاتنا!.

قال: فكان رسول الله ﷺ هو المخيَّر، وكان أبو بكر أعلمنا به.

فقال رسول الله ﷺ : **إنَّ أمنَّ الناس علي في صحبته وماله أبو بكر، ولو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن أخوة الإسلام.**

وفي رواية: **ولكن صحبة، وإخاء إيمان، حتى يجمع الله بيننا عنده..**[٤].

وحدث في أثناء المرض أن مرت أوقات هادئة خيَّلت لمحبي الرسول ﷺ أن أمانيهم في عافيته نجحت، وأنه يوشك أن يقوم ليستأنف كفاحه في سبيل الله، وليظل يحبوهم بعطفه وحرصه وإيناسه ورحمته.

فعن عبد الله بن كعب بن مالك، أن ابن عباس أخبره أن علي بن أبي طالب خرج من عند رسول الله ﷺ في وجعه الذي توفي فيه، فقال الناس: يا أبا حسن، كيف أصبح رسول الله ﷺ ؟ قال: أصبح بحمد الله بارئاً.

فأخذ بيده العباس بن عبد المطلب فقال: ألا ترى؟ إنك بعد ثلاث عبد العصا، وإني أرى رسول الله ﷺ سيتوفى في وجعه هذا، وإني لأعرف وجوه بني عبد المطلب عند الموت..!!

فاذهب إِلى رسول الله ﷺ فسَلْه فيمن يكون هذا الأمر، فإن كان فينا علمنا ذلك، وإن كان في غيرنا استوصى بنا خيراً، قال علي: والله لئن سألناها رسول الله فمَنَعناها لا يعطيناها الناس أبداً، والله لا أسألها رسول الله أبداً[5].

وظاهر أن العباس يعني الخلافة، فقد شعر الرجل بأن النبي في مرض الموت، وخبرته بأقاربه حين يحتضرون جعلته صادق الحدس في تبيّن مصائرهم.

ولما كان عميد بني هاشم، فقد أهمه أن يعرف لمن ستكون سيادة الناس بعد وفاة الرسول ﷺ ، وقد اتجه إِلى علي يبثّه مكنون نفسه؛ لأن علياً - بسابقته وكفايته ومنزلته في الناس، وموضعه من الرسول - يعد أول بني هاشم ترشيحاً لهذا الأمر.

بَيْد أن علياً كره أن يكلم النبي في ذلك، وآثر ترك الأمر لجمهور المسلمين.

وكان النبي نفسه قد همَّ بكتابة عهد يمنع شغب الطامعين في الحكم، ثم بدا له فاختار أن يدع المسلمين وشأنهم، ينتخبون لقيادتهم من يحبون[6].

* * *

وزادت وطأة المرض على رسول الله ﷺ وعانى من بُرَحائه ألماً مضاعفاً، حتى تأذت فاطمة ابنته من شدة ما يلقَى، فقالت: واكرب أبتاه!.

فقال: **لا كرب على أبيك بعد اليوم**[7].

وترامت الأخبار إِلى جيش أسامة، فشاع الحزن والاضطراب في صفوفه، عن محمد [أسامة عن أبيه قال: لما ثقل رسول الله هبطت وهبط الناس معي إِلى المدينة، فدخلنا على رسول الله وقد أُصمت لا يتكلم، فجعل يرفع يده إِلى السماء

في اخر لحظات الحياة كان النبي الكريم ﷺ مهموماً بتعاليم الرسالة حريصاً على تذكير الناس بها

ثم يضعها عليّ، فعرفت أنه يدعو لي[٨].

وأغمي عليه مرة فلدّه أهله، فلما أفاق كره ذلك منهم[٩].

وكان إلى جواره قدح فيه ماء يغمس فيه يده ثم يمسح وجهه بالماء ويقول: **اللهمَّ أعني على سكرة الموت**[١٠].

وحين عجز النبي ﷺ عن الصلاة بالناس استقدم أبا بكر ليؤمهم.

فخشيت عائشة أن يكره الناس أباها ويتشاءمون من طلعته.

فقالت إن أبا بكر رجل رقيق وإنه متى يقم مقامك لا يطيق.

فقال: **مروا أبا بكر فليصل بالناس.**

فكررت عائشة اعتراضها. فغضب رسول الله ﷺ وقال:



إنكم صواحب يوسف.
مروا أبا بكر فليصلّ بالناس[١١].

وصلّى أبو بكر بالناس سبع عشرة صلاة.

وهذه الأيام التي تخلّف فيها النبي ﷺ عن أن يؤم المسلمين، كانت من أشد الأيام ثقلاً عليه، وصح عنه أنه قال: **إني أوعك كما يوعك الرجلان منكم**[١٢].

ومع فَيْح الحمّى وحدة مسّها لبدنه فقد ظل يقظ الذهن، مهموماً بتعاليم الرسالة، حريصاً على تذكير الناس بها.

وكان يخشى أن ترتكس أمته فتتعلق بالأشخاص «الأضرحة» كما ارتكس أهل الكتاب الأولون.

وشدته في إخلاص التوحيد لله هي التي جعلته وهو يعالج سكرات الموت، يرهّب المسلمين من هذا المزلق.

وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَٰبِكُمْ

احرص على صلاتك وحاذر الكبر والغيّ . والأمة التي تستبد بها الشهوات لا تصلح للحياة ولا تصلح بها حياة

عن عائشة وابن عباس قالا: لما نزل برسول الله طفق يطرح خميصة له على وجهه، فإذا اغتم كشفها عن وجهه. وقد حذر هنا الرسول من تحريف الدين واتخاذ مساجد الله قبوراً ، فالمسجد جامعة الفكرة المجرّدة وليس مكاناً يقدس فيه أحد إلا الله .

وكان يخشى أن تغلب شهوات الغيِّ والكبر على أمته.

فإن الذين يتبعون شهوات الغي، ينسون الصلاة، والذين يتبعون شهوات الكِبْر، يطغَون على ما تحت أيديهم من خدم ومرؤوسين ورقيق.

والأمة التي تستبد بها هذه الشهوات لا تصلح للحياة، ولا تصلح بها حياة.

ومن اليسير أن يتركها الله تلقى جزاء ما تصنع، وهو خزي الدنيا، وعذاب الآخرة.



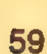
هذه الخشية حملت النبي وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة أن ينبه المسلمين إلى معاقد الخير ليتمسكوا بها.

عن أنس بن مالك قال: كانت عامة وصية رسول الله - حين حضره الموت - الصلاة وما ملكت أيمانكم، حتى جعل رسول الله يغرغر بها صدره، وما كاد يفيض بها لسانه[١٣].

* * *

وربما غلبه الشوق لحضور الجماعة ورؤية الأصحاب في أيامه الأخيرة فتحامل على جسمه المنهوك، وانسل إلى المسجد من حجرة عائشة، فصلّى بالناس وهو قاعد.

قال ابن عباس: لما مرض النبي أمر أبا بكر أن يصلّيَ بالناس ثم وجد خفّة فخرج. فلما أحس به أبو بكر أراد أن ينكص، فأوما



القائد الحكيم معلق القلب بشؤون امته حتى وهو في الاوقات الحرجة

إليه الرسول ﷺ فجلس إلى جنب أبي بكر عن يساره، واستفتح من الآية التي انتهى إليها أبو بكر، فكان أبو بكر يأتم بالنبي والناس يأتمون بأبي بكر[١٤].

على أن أبا بكر ظل يصلي بالناس هذه الأوقات التي مرض فيها رسول الله ﷺ حتى صبيحة اليوم الذي قبض فيه، وكان الرسول ﷺ معلّق القلب بشؤون أمته.

وكأن الله أراد أن يطمئنه على كمال انقيادها وحسن اتباعها، فأشهدهم آخر وقت حضره وهو في الدنيا، إذ أقبل المؤمنون من بيوتهم إلى المسجد فجر الإثنين الذي قبض فيه، واصطفوا لصلاتهم خُشّعاً مخبتين وراء إمام رقيق التلاوة فيّاض الإخلاص، ورفع النبي ﷺ الستر المضروب على منزل عائشة، وفتح الباب وبرز للناس..

فكاد المسلمون يفتنون في صلاتهم ابتهاجاً برؤيته، وتفرجوا يفسحون له مكاناً، فأشار بيده: أن اثبتوا على صلاتكم، وتبسم فرحاً من هيئتهم في صلاتهم. قال أنس بن مالك: ما رأيت رسول الله أحسن هيئة منه في تلك الساعة[١٥].

ثم رجع وانصرف الناس، وهم يظنون أن رسول الله صلى الله عليه وآله قد أفاق من وجعه.

واطمأن أبو بكر لهذا الظن، فرجع إلى أهله بالسُّنح في ضواحي المدينة[١٦].

قالت عائشة: وعاد رسول الله ﷺ من المسجد فاضطجع في حجري.

ودخل علينا رجل من آل أبي بكر في يده سواك أخضر، فنظر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى يده نظراً عرفت منه أنه يريده.

فأخذته فألنته له ثم أعطيته إياه.

فاستن به كأشد ما رأيته يستن بسواك قبله، ثم وضعه.

ووجدت رسول الله يثقل في حِجْري.

فذهبت أنظر في وجهه.

فإذا نظره قد شخص وهو يقول: **بل الرفيق الأعلى من الجنة!**

قلت: خُيِّرْتَ فاخترت، والذي بعثك بالحق..

وقبض رسول الله ﷺ[17].

* * *

وتسرب النبأ الفادح من البيت المحزون وله طنين في الآذان، وثقل ترزح تحته النفوس، وتدور به البصائر والأبصار.

وشعر المؤمنون أن آفاق المدينة أظلمت، فتركتهم لوعةُ الثكل حيارى لا يدرون ما يفعلون.

ووقف عمر بن الخطاب - وقد أخرجه الخبر عن وعيه - يقول: إن رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله ﷺ توفي، وإن رسول الله ما مات ولكن ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران، فغاب عن قومه أربعين ليلة، ثم رجع بعد أن قيل قد مات..

والله ليرجعن رسول الله ﷺ ، فليقطعنَّ أيدي رجال وأرجلهم يزعمون أنه مات!.



وأقبل أبو بكر حتى نزل على باب المسجد حين بلغه الخبر وعمر يكلم الناس، فلم يلتفت إلى شيء حتى دخل على رسول الله ﷺ في بيت عائشة وهو مسجّىً في ناحية البيت عليه بردٌ حبرةٌ.

فأقبل حتى كشف عن وجهه، ثم أقبل عليه فقبّله، ثم قال: بأبي أنت وأمي، أما الموتة التي كتب الله عليك فقد ذقتها، ثم لن يصيبك بعدها موت أبداً.

ورد الثوب على وجهه، ثم خرج وعمر يكلم الناس، فقال: على رِسْلك يا عمر فأنصتْ.

لكن عمر ظل مهتاجاً مندفعاً في كلامه. فلما رآه أبو بكر كذلك، أقبل على الناس وشرع يتكلم، فلما سمعه الناس انصرفوا عن عمر وأقبلوا عليه.

وحمد أبو بكر الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس، **من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت.** ثم تلا هذه الآية:

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾[١٨].

انظر محمد الغزالي ، كتاب .....

يقول واشنطن إيرفينغ :

في نفس تلك الليلة اشتد ألم الرأس على الرسول صلى الله عليه وآله وسلم الذي كان يعاوده منذ أكله شاة خيبر، والذي اعتبره البعض عرضاً جانبياً من أعراض تناول السم آن ذاك، وأعقبه دوار وحمى ارتفعت بها درجة حرارة صلى الله عليه وآله وسلم بنوبة اختلطت بها كل أوجاعه السابقة صلى الله عليه وآله وسلم وقد بدأت في منتصف الليل حيث أفاق صلى الله عليه وآله وسلم من حلم مزعج، وقال الخادم الذي كان يتعهد خدمته في تلك الليلة: «ابتدئ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بشكواه من المرض الذي قبضه الله فيه... فكان أول ما ابتدئ به... من ذلك فيما ذكر لي، أنه خرج إلى بقيع الغرْقَد من جوف الليل فاستغفر لهم...

زيارة القبور

قال: بعثني رسول الله من جوف الليل فقال: يا «أبا مويهبة» إني قد أمرت أن أستغفر لأهل هذا البقيع فانطلق معي فانطلقت معه فلما وقف بين أظهرهم قال: السلام عليكم يا أهل المقابر، ليهن لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع آخرها أولها، الآخرة شر من الأولى، ثم أقبل عليَّ فقال: يا أبا مويهبة إني قد أتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة، فخيرت بين ذلك وبين لقاء ربي والجنة.



قال: قلت: بأبي أنت وأمي!! فخذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة.

قال: لا والله يا أبا مويهبة لقد اخترت لقاء ربي والجنة.

ثم استغفر لأهل البقيع، ثم انصرف فبدئ برسول الله وجعه الذي قبضه الله فيه»[١٩].

وحين زادت آلامه ﷺ وهو ينتقل بين بيوت زوجاته رضي الله عنهن من يوم إلى آخر كما كان يفعل دائماً ﷺ ، وحين كان في بيت «ميمونة» رضي الله عنها زادت حدة مرضه بشكل كبير، وأدرك ﷺ بقرب الأجل فحن قلبه إلى «عائشة» رضي الله عنها زوجته المفضلة لتقوم على رعايته في لحظاته الأخيرة، فانتقل إلى منزلها مدعوماً «بعلي» رضي الله عنه و«العباس» رضي الله عنه وابنه «الفضل» بن العباس رضي الله عنه، معصوب

الرأس من شدة الصداع، وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «لما ثقل رسول الله ﷺ واشتد به وجعه استأذن أزواجه أن يمرض في بيتي فأذن له، فخرج وهو بين الرجلين تخط رجلاه الأرض[٢٠]. ولما دخل بيتها واشتد به وجعه قال: **اهريقوا علي من سبع قرب لم تحلل أوكيتهن، لعلي أعهد إلى الناس**[٢١] فقد كان ﷺ يريد أن يترك عهداً بين الناس لكنه لم يقدر أن يفعل وقتها؟!

وهو ﷺ قبل هذا حين رجع من البقيع عن «عائشة» رضي الله عنها قالت: «فوجدني وأنا أجد صداعاً في رأسي وأنا أقول وا رأساه. فقال: **بل أنا والله يا عائشة وا رأساه.** قالت: ثم قال: **وما ضرك لو مت قبلي فقمت عليك وكفنتك وصليت عليك ودفنتك؟**



قالت: والله لكأني بك لو فعلت ذلك لقد رجعت إلى بيتي فأعرست فيه ببعض نسائك! قالت: فتبسم رسول الله ﷺ ونام به وجعه - أي سكن وجعه - وهو يدور على نسائه حتى استقر في بيت ميمونة، فدعا نساءه فاستأذن أن يمرض في بيتي فأذنَّ له[٢٢].

ثم أسرعت «فاطمة» رضي الله عنها لعيادته في بيت «عائشة» رضي الله عنها ومشاركتها في تمريضه مع باقي نسائه ﷺ، وعن «عائشة» رضي الله عنها قالت: «اجتمع نساء رسول الله ﷺ عنده لم يغادر منهن امرأة، فجاءت فاطمة تمشي لا تخطئ مشيتها مشية أبيها، فقال: **مرحباً يا بنيتي**، فأقعدها على يمينه أو شماله، ثم سارها بشيء فبكت، ثم سارها فضحكت، فقلت لها: خصك رسول الله ﷺ بالسرار وأنت تبكين!

فلما أن قامت قلت: أخبريني ما سارك، فقالت: ما كنت لأفشي سر رسول الله ﷺ. فلما توفي ﷺ قلت لها: أسألك لما لي عليك من الحق لما أخبرتني. قالت: أما الآن فنعم. قالت: سارني في الأولى قال لي: **إن جبريل كان يعارضني القرآن كل سنة مرة، وقد عارضني هذا العام مرتين، ولا أرى ذلك إلا لاقتراب أجلي، فاتقي الله واصبري فنعم السلف أنا لك.** فبكيت. ثم سارني فقال: **أما ترضين أن تكوني سيدة نساء المؤمنين أو سيدة نساء هذه الأمة؟** فضحكت[٢٣].

كذلك أخبرها الرسول صلى الله عليه وسلم أنها أول أهل بيته لحوقاً به فسرها ذلك وخفف من حزنها.

رعاية المسجد والقيام به

وفي اليوم التالي ارتفعت درجة حرارة الرسول ﷺ بشكل عالٍ لم تخفضه قرب الماء المسكوبة عليه ﷺ فقال كما ذكرت «عائشة» رضي الله عنها: «كان النبي ﷺ يقول في مرضه الذي مات فيه: **يا عائشة ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلت بخيبر، فهذا أوان وجدت انقطاع أبهري من ذلك السم**»[٢٤].

لكنه في الفترات التي كانت تنخفض حرارته ﷺ وتخف آلامه كان ينتقل إلى المسجد الملاصق لبيت «عائشة» رضي الله عنها متكئاً على أصحابه الذين يجلسونه على المنبر «أن رسول الله ﷺ قال في مرضه:

أفيضوا علي من سبع قرب من سبع آبار شتى حتى أخرج فأعهد للناس ففعلوا، فخرج فجلس على المنبر، فكان أول ما ذكر بعد حمد الله والثناء عليه، ذكر أصحاب أحد فاستغفر لهم ودعا لهم، ثم قال: يا معشر المهاجرين إنكم أصبحتم تزيدون والأنصار على هيئتها لا تزيد، وإنها عيبتي التي آويت إليها، فأكرموا كريمهم وتجاوزوا عن مسيئهم.

ثم قال عليه السلام: أيها الناس إن عبداً من عباد الله قد خيره الله بين الدنيا وبين ما عند الله فاختار ما عند الله[٢٥].

ثم أعطى ثلاثة أوامر أو وصايا رئيسية:

- أولها: أن «أخرجوا المشركين من جزيرة العرب».

-والثانية: أن «أجيزوا الوفد بنحو ما كنت أجيزهم»[٢٦].

- والثالثة: التمسك بالصلاة، والرفق بملك اليمين والوصية»[٢٧].

وبعد أن كان ﷺ ينهي وصاياه كان يعود إلى بيت «عائشة» رضي الله عنها متكئاً على أصحابه ولا يصل إلى البيت إلا منهكاً، وعلى هذا النحو كان مرضه يزداد من يوم إلى آخر، وقد أبدله الله تعالى عن هلوسات ارتفاع الحرارة برؤية جبريل الذي كان يعوده أيضاً ليخيره بين الدنيا وبين آلام تركها للآخرة: «فلما كان مرض الرسول ﷺ الذي مات فيه عرضت له بُحَة، فسمعته يقول: مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين

نقاء الجوهر يظهر في قبولك لابتلاء ربك . وكلما كنت صابراً رفع الله مقامك وغفر لك

والشهداء والصالحين وحَسُن أولئك رفيقا»[٢٨]. وعبر إجاباته المختلفة لجبريل في كل مرة كان يعوده بها ليخيره كان ﷺ يختار لقاء وجه ربه، مما يعني أن عليه في نزاعه الأخير ﷺ أن يحمل آلاماً شبيهة بآلام الأنبياء والصديقين السابقين والشهداء والصالحين كلهم، وهذا ما لاحظه «ابن مسعود» الذي قال للرسول ﷺ «فقلت: يا رسول الله إنك لتوعك وعكاً شديداً، قال: **أجل، إني أوعك كما يوعك الرجلان منكم.** قلت: إن لك أجرين. قال: **نعم والذي نفسي بيده ما على الأرض مسلم يصيبه أذى من مرض فما سواه إلا حط الله عنه خطاياه كما تحط الشجرة ورقها»**[٢٩].

إلى حد أن «عائشة» رضي الله عنها كانت تقول: «فلا أكره شدة الموت لأحد بعد النبي ﷺ وفي الحديث الآخر...» قال رسول الله ﷺ: **«أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة شدد عليه في البلاء»**[٣٠].



لهذا كان جبريل يمنع ملك الموت من الدخول على الرسول ﷺ قبل تخييره في سكرات الموت، وهذا ما خص به الرسول ﷺ برؤية جبريل بدل خطرفات ارتفاع الحرارة ووجع المرض عند الناس - الصالحين - حين الموت على قدر منزلتهم.

الظهور العلني الأخير

وكما خير الرسول ﷺ كذلك أوصى وترك عهوداً وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: «أمرني رسول الله ﷺ أن آتيه بطبق يكتب فيه ما لا تضل أمته من بعده. قال: فخشيت أن تفوتني نفسه. قال. قلت: إني أحفظ وأعي. قال: **أوصي بالصلاة والزكاة وما ملكت أيمانكم**»[٣١].

إلا أن حادثة مشابهة تركت اختلافاً وكثيراً من التأويلات، منها ما يتعلق بالخوف من تهوين الشرع، ومنها الخوف من ترك اسم وصي محدد بعد الرسول ﷺ من الذين لا يجوز أن يبلغ عنه سواهم من آل بيته ﷺ كعلي بن أبي طالب رضي الله عنه. فوصف «ابن كثير»: «هذا الحدث مما قد توهم به بعض الأغبياء من أهل البدع... وكل مدعٍ إنه كان يريد أن يكتب في ذلك الكتاب ما يرمون إليه من مقالاتهم، وهذا هو التمسك بالمتشابه وترك المحكم»[٣٢]. والقصة كما رواها «ابن عباس» رضي الله عنه قال: «يوم الخميس وما يوم الخميس! اشتد برسول الله ﷺ وجعه. فقال: **ائتوني أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده أبداً.** فتنازعوا - ولا ينبغي عند نبي تنازع - فقالوا: ما شأنه أَهَجَرَ - أي اختلف كلامه بسبب المرض واختلط؟! - استفهموه، فذهبوا يردون عنه، فقال: **دعوني فالذي أنا فيه خير مما تدعوني إليه**»[٣٣].

وإن ابن عباس أخبر أن «علي» بن أبي طالب رضي الله عنه خرج من عند رسول الله في وجعه الذي توفي فيه فقال الناس: يا أبا الحسن كيف أصبح رسول الله ﷺ ؟

فقال: أصبح بحمد الله بارئاً.

فأخذ بيده «عباس بن عبد المطلب» رضي الله عنه فقال له: أنت والله بعد ثلاث عبد العصا!! وإني والله لأرى رسول الله ﷺ سوف يتوفى من وجعه هذا!! إني لأعرف وجوه بني عبد المطلب عند الموت، اذهب بنا إلى رسول الله فلنسأله فيمن هذا الأمر؟! إن كان فينا علمنا ذلك، وإن كان في غيرنا علمناه فأوصى بنا!!؟

فقال علي: إنا والله لئن سألناها رسول الله ﷺ فمنعناها لا يعطيناها الناس بعده، وإني والله لا أسألها رسول الله ﷺ [٣٤].

وفي اليوم التالي يوم الجمعة حيث صلاة الجمعة التي تهيأ لحضورها رسول الله ﷺ رغم مرضه بعد أن صب عليه الماء ثانية من القرب لتخفيف حرارته وإنعاشه ﷺ، ورغم ذلك لم يقدر على الخروج وأغمي عليه ﷺ، ولما أفاق طلب من «أبي بكر» رضي الله عنه أن يؤم المصلي من منطلق أن الله تعالى قد خول الرسول ﷺ حق من ينوب عنه في المناسبات، ففسرها البعض بعد ذلك بأنها إشارة إلى استخلافه من بعده، خاصة وأن إحدى النساء جاءت رسول الله ﷺ «فأمرها أن ترجع إليه - بعد ذلك في وقت آخر - فقالت: أرأيت إن جئت ولم أجدك؟ كأنها تقول الموت، قال: **إن لم تجديني فأت أبا بكر**»[٣٥]. ورغم ذلك لم يسأل «أبو بكر» رضي الله عنه الرسول ﷺ عن الخلافة لنفسه أو غيره أيضاً.

ثم علم الرسول ﷺ أن ظهور «أبو بكر» رضي الله عنه في إمامة الناس بالصلاة قد سبب لغطاً، إذ سرت شائعات بموته ﷺ، لذلك استجمع صلى الله عليه وسلم قواه واتكأ على كتفي علي رضي الله عنه والعباس رضي



الله عنه ودخل المسجد «ورجلاه تخطان من الوجع، فأراد أبو بكر أن يتأخر فأومأ إليه النبي ﷺ أن مكانك ثم أتى حتى جلس إلى جنبه... فكان النبي ﷺ يصلي وأبو بكر يصلي بصلاته والناس يصلون بصلاة أبي بكر»[٣٦]. وأن الرسول ﷺ كان «عاصباً رأسه بعصابة دسماء - يضرب لونها إلى الأسود - ملتحفاً بملحفة على منكبيه، فجلس على المنبر فذكر الخطبة وذكر فيها الوصاية بالأنصار إلى أن قال: فكان آخر مجلس جلس فيه رسول الله ﷺ حتى قبض، يعني آخر خطبة خطبها عليه السلام»[٣٨].

ثم عاد بين «علي والعباس» رضي الله عنهما إلى منزل «عائشة» رضي الله عنها.

وفاته ﷺ

وفي اليوم التالي بدت عليه ﷺ علائم تحسن مؤقت كما في فواصل النزع الأخير، فبدا للصحابة متعافياً، فتركه من يلازمه منهم «كعلي وأبي بكر وعمر» رضي الله عنهم ليقوموا بأمورهم، وبقيت معه ﷺ «عائشة» رضي الله عنها وحدها، ولأن هذه الفاصلة كانت وقتية، عاوده الألم مضاعفاً فعلم ﷺ بقدوم أجله، فأعتق كل عبيده، ووزع كل أمواله الموجودة عنده - على قلتها - على الفقراء، ثم راح يتضرع إلى الله تعالى أن يعينه على سكرات الموت، فأسرعت «عائشة» رضي الله عنها بإرسال من يستدعي والدها، وطلبت «حفصة» رضي الله عنها على عجل، وبقيت وحيدة مع الرسول ﷺ في

نزعه الأخير، قالت: «رأيت رسول الله ﷺ وهو يموت وعنده قدح فيه ماء، فيدخل يده في القدح ثم يمسح وجهه بالماء ثم يقول: **اللهم أعني على سكرات الموت**»[٣٨]. فوضعت رأسه ﷺ على حجرها بحنان لتخفف آلام الموت عنه ﷺ وهي تقرأ عليه المعوذتين قالت: «وتوفي بين سحري ونحري، وكان جبريل يعوذه بدعاء إذا مرض، فذهبت أعوذه فرفع بصره إلى السماء وقال: في الرفيق الأعلى، في الرفيق الأعلى»[٣٩]. وهكذا عرفت أنه ﷺ يؤكد اختياره إلى آخر لحظة، وبعد لحظات بردت أطرافه ﷺ وخرجت منه الحياة، وبرفق وضعت «عائشة» رضي الله عنها رأسها على وسادة وراحت تنحب، فجلب صوتها زوجاته ﷺ ثم شاع الخبر في كل المدينة فذهل الناس وكأن على رأسهم الطير، فتوقفت جميع الأعمال



وأجلت، كما أن الجيش الذي كان بصدد التقدم إلى الشام توقف، و«أسامة» رضي الله عنه الذي وصله الخبر ورجله في الركاب أدار وجه حصانه إلى أبواب المدينة، وعاد ليَشُكَّ علمه على باب منزل الرسول ﷺ.

واحتشد الناس هناك للتشييع باضطراب وفوضى، ظهرا حتى في منزله ﷺ، إلى حد أن البعض كاد يفقد صوابه، وكانت «عائشة» رضي الله عنها «تلتدم – تلطم – مع النساء»[٤٠] وتضرب وجهها، قالت: «فلما خرجت نَفْسه لم أجد ريحاً قط أطيب منها»[٤١]. وأنكر البعض إمكان أن يصيبه ﷺ الموت وقالوا إنه رفع إلى السماء كما رفع «المسيح عليه السلام» على أشد تقدير، وما أن علم «عمر» رضي الله عنه بكل هذا حتى أتى مسرعاً وسيفه مشرعٌ بيده يجتاز حشود الناس مهدداً بضرب كل من يقول إن

رسول الله ﷺ قد مات، ثم «قام يخطب الناس ويتوعد من قال مات بالقتل والقطع ويقول: إن رسـول الله ﷺ في غشية لو قد قام قتل وقطع... والناس في المسجد يبكون ويموجون لا يسمعون»[٤٢].

وأقبل «أبو بكر» رضي الله عنه من منطقة «السُنْح» البعيدة عن بيت الرسول ﷺ في المدينة، على دابته حتى نزل بباب المسجد، مكروباً حزيناً، فاستأذن في بيته ابنته «عائشة» رضي الله عنها فأذنت له، فدخل ورسول الله ﷺ قد توفي على الفراش والنسوة حوله، فخمرن وجوههن واستترن من أبي بكر إلا ابنته «عائشة» رضي الله عنها، فكشف عن رسول الله ﷺ فجثا عليه يقبله ويبكي ويقول: ليس ما يقول ابن الخطاب شيئاً، توفي رسول الله ﷺ والذي نفسي بيده!! رحمة الله عليك يا رسول الله، ما أطيبك حياً وميتاً!! ثم غشاه بالثوب.

ثم خرج سريعاً إلى المسجد يتخطى رقاب الناس حتى أتى المنبر، وجلس «عمر» رضي الله عنه حين رأى «أبا بكر» رضي الله عنه مقبلاً إليه، وقام أبو بكر إلى جانب المنبر ونـادى الناس، فجلسوا وأنصتوا، فتشهد أبو بكر بما علمه من التشهد وقال: إن الله عز وجل نعى نبيه إلى نفسه وهو حيٌّ بين أظهركم ونعاكم إلى أنفسكم، وهو المـوت حتى لا يبقى منكم أحد إلا الله عز وجل، قال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾... الآية. فقال عمر: هذه آية في القرآن؟ والله ما علمت أن هذه الآية أنزلت قبل اليوم... وقال - يعني أبو بكر -: إن الله عمّر محمداً ﷺ وأبقاه حتى أقام دين الله وأظهر أمر الله، وبلغ رسالة الله، وجاهد في سبيل الله، ثم توفاه الله على ذلك،... فمن كان الله ربه فإن الله حي لا يموت،

وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ

ومن كان يعبد محمداً وينزله إلهاً فقد هلك إلهه، فاتقوا الله أيها الناس واعتصموا بدينكم وتوكلوا على ربكم، فإن دين الله قائم، وإن كلمة الله تامة، وإن الله ناصر من نصره ومعز دينه، وإن كتاب الله بين أظهرنا وهو النور والشفاء، وبه هدى الله محمداً ﷺ، وفيه حلال الله وحرامه والله لا نبالي من أجلب علينا من خلق الله، إن سيوف الله لمسلولة ما وضعناها بعد، ولنجاهدن من خالفنا كما جاهدنا مع رسول الله ﷺ فلا يبغين أحد إلا على نفسه[٤٣].

وهكذا سمع الناس إلى «أبي بكر» رضي الله عنه والدمع في عيونهم، وهم يواجهون الأمر الواقع، وحتى «عمر» رضي الله عنه الذي اقتنع لم تعد تحمله قدماه، فبقي جالساً في حزن عميق على فراق حبيبه وصاحبه وسيده بمرارة وحزن لا يوصف.

التهيئة للدفن

ثمة رأي للمؤرخين وهو أن وفاة الرسول ﷺ كانت في يوم مولده بعد أن أكمل عامه الثالث والستين، في السنة الحادية عشرة للهجرة الموافقة لعام ٦٣٢م.

أما جسده الطاهر فقد أعد له الحنوط والغسل عدد من أقاربه وصحابته، وفي شهادة بعض الصحابة: «وضعت يدي على صدر رسول الله ﷺ يوم مات، فمرت جُمَع آكل وأتوضأ وما يذهب ريح المسك من يدي»[٤٤]، وحسب عبارات «علي» رضي الله عنه الذي قام على غسله ﷺ وكفنه، أن الرسول ﷺ كان طيباً حياً وميتاً. ثم كفن الجسد الطاهر بعد غسله بثلاثة

أكفان، اثنان بيضاوان وحبرة يمانية وعطر بالمسك وبالأعشاب الذكية ثم أخرج للصلاة عليه ﷺ ليصلى عليه.

وأُخِّرَ دفنه ﷺ لكي لا يكون من شك بوفاته ﷺ وللتوصل إلى رأي حول مكان الدفن، فظل من يوم الإثنين إلى يوم الأربعاء، وعن «عائشة» رضي الله عنها قالت: «ما علمنا بدفن النبي ﷺ حتى سمعنا صوت المساحي في جوف ليلة الأربعاء»[45].

وكان هذا بسبب الخلاف حول مكان دفنه ﷺ فالمهاجرون قبلوا من الرسول ﷺ أن تكون المدينة مكان إقامته النهائي، وفخر الأنصار أن يكون مكان دفنه ﷺ في مدينتهم التي كانت ملاذه خلال السنوات العشر الماضية، لكن فريقاً ثالثاً اقترح بنقل رفاته ﷺ إلى «القدس» كمكان لكل الأنبياء والرسل، لكن الكلمة النهائية والمسموعة جاءت من «أبي بكر» رضي الله عنه إذ قال: «سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: **لم يقبر نبي إلا حيث يموت**، فأخروا فراشه وحفروا تحت فراشه ﷺ»[46]. وهكذا تم حفر قبر الرسول ﷺ في بيت «عائشة» رضي الله عنها ثم أدخل الناس على رسول الله ﷺ يصلون عليه أرسالاً، الرجال أولاً حتى إذا فرغ منهم، أدخل النساء، حتى إذا فرغ النساء، أدخل الصبيان، ولم يؤم الناس على رسول الله ﷺ أحد.

هكذا صار بيت «عائشة» رضي الله عنها قبراً للرسول ﷺ بجانب المسجد وليس فيه. وقد جعل في قبر النبي ﷺ قطيفة حمراء كان أصابها يوم حنين، قال الحسن: جعلها لأن المسجد أرض سبخة... قال، قال رسول الله ﷺ: «**افرشوا**

لي قطيفة في لحدي فإن الأرض لم تسلط على أجساد الأنبياء»[٤٧].

ولم يلحق قبر الرسول ﷺ بالمسجد النبوي وظل متواضعاً كما كان منزلاً «لعائشة» رضي الله عنها مبنياً من اللبن والطين وسقفه من سعف النخيل الذي تحمله وتدعمه جذوع الشجر، وسدت كل المداخل عن مسجد الرسول ﷺ الذي بقي منفصلاً عن البيوت الملحقة فيه، بما فيه مدفنه ﷺ، الذي دفن فيه بعد ذلك صاحباه رضي الله عنهما أبو بكر وعمر على التتابع، ولم تدخل الحجرة النبوية بالمسجد إلا في زمن الوليد بن عبد الملك الذي حين ولي «سنة ست وثمانين هجرية قد شرع في بناء جامع دمشق وكتب إلى نائبه بالمدينة ابن عمه «عمر بن عبد العزيز» أن يوسع في مسجد المدينة فوسعه حتى من ناحية الشرق، فدخلت الحجرة النبوية فيه»[٤٨].



ومـر مسجد الرسول ﷺ بتغيرات كثيرة وصلت في بعض الأحيان إلى حد قريب من خرابه، فصلاح الدين الأيوبي عمل على إعماره في عصره بعد توسعة الوليد الأول بزمن طويل ثم صانه العثمانيون.

وقد توسع اليوم الحرم المـدني إلى حد غير مسبوق .

إعلام الله نبيه بتوفيه

التفاصيل

○ عن ابن عباس قال: (نعي الرسول ﷺ) :

لما نزلت ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾[49] قال رسول الله ﷺ: نُعِيَت إليّ نفسي. فمات في تلك السنة

.

○ وعن سعيد بن جُبير عن ابن عباس قال :

كان عمر يُدخلني مع أشياخ بدرٍ فقال بعضهم: لِمَ يدخلُ هذا الفتى معنا ولنا أبناء مثله؟! فقال: إنه ممن قد علمتم. قال: فدعاهم ذات يوم ودعاني معهم. قال: وما رُئيته دعاني يومئذ إلا ليُريهم مني. فقال: ما تقولون في ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ﴾[50] حتى ختم السورة؟ فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا. وقال بعضهم: لا ندري، ولم يقل بعضهم شيئاً. فقال لي: يا بن عباس، أكذلك تقول؟ قلت: لا. قال: فما تقول؟ قلت: هو أجَلُ رسول الله ﷺ أعلمه الله له ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾[51] فتح مكة. فذلك علامة أجَلِك ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً﴾[52] قال عمر: ما أعلم منها إلا ما تعلم.

والذي عاتب عمر في ذلك عبد الرحمن بن عوف. بيّن ذلك شعبة بن الحجاج في حديثه.

○ وعن عائشة قالت:

كان رسول الله ﷺ يقول في مرضه الذي مات فيه: **يا عائشة، ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلت بخيبر، فهذا أوان وجدت انقطاع أبهري من ذلك السمّ.**

○ وعن أبي هريرة قال:



لما نزلت ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ قال: عِلْم وَحَدٌّ حدَّه الله لنبيه ﷺ، ونعى إليه نفسه بأنه لا يبقى بعد فتح مكة إلا قليلاً.

○ وعن علي قال:

نعى الله لنبيّه ﷺ نفسَه حين أنـزل عليه ﴿إِذَا جَـاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ فكان الفتح من مهاجر رسول الله ﷺ في سنة ثمان. فلما طعن في سنة تسع من مهاجره تتابع عليه القبائل تسعى، فلم يـدْرِ متى الأجل ليلاً أو نهاراً فعمل على قـدر ذلـك. فوسَّع السُّنَن وشـدّد الفرائض وأظهر الرخص ونسخ كثيراً من الأحاديث فنسخت الرخصة الشدة والشدة في بعض الرخصة، وغزا رسول الله ﷺ تبوك، وفعل فعل مودِّع.

○ وعن عكرمة قال:

لما نزلت هذه الآية ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾[٥٣] قال العباس: لا يدع الله نبيه صلى الله عليه وسلم فيكم إلا قليلاً لِما هو خير له.

○ وعن أبي سعيد الخدري

أن رسول الله ﷺ جلس على المنبر فقال: **إن عبداً خيّره الله بين أن يؤتيَه من زهرة الدنيا ما شاء وبين ما عنده فاختار ما عنده،** فبكى أبو بكر الصديق وقال: فديناك بآبائنا وأمهاتنا يا رسول الله، فعجبنا له، وقال الناس: انظروا إلى هذا الشيخ يخبر رسول الله ﷺ عن عبدٍ خيّره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا وبين ما عنده وهو يقول: فديناك بآبائنا وأمهاتنا. فكان رسول الله ﷺ هو المخيّر وكان أبو بكر أعلمنا به، فقال رسول الله ﷺ: **إن أَمَنَّ الناسِ عليّ في صحبته وماله**

أبو بكر، ولو كنت متّخذاً خليلاً لاتّخذتُ أبا بكر خليلاً؛ ولكن خلّة الإسلام. لا تبقين في المسجد خَوْخة إلا خَوْخة أبي بكر.

○ وعن أبي المُعَلّى بمعناه. وفي آخره:

فقال رسول الله ﷺ: ما أحد أمَنّ علي في صحبته ولا في ذات يده من ابن أبي قحافة. لو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت ابن أبي قحافة، ولكن ودّ وإخاءُ إيمان، وإن صاحبكم خليل الرحمن، يعني نفسه ﷺ.

○ وعن أبي مويهبة مولى رسول الله ﷺ قال:

أهبّني رسول الله ﷺ في المحرّم مَرجِعَه من حجّته، وما أدري أما مضى من الليل أكثر أو ما بقي عليه؟ فقلت: أين تريد بأبي وأمي؟ فقال: يا أبا مويهبة، انطلق، فإني قد أمرت أن أستغفر لأهل هذا البقيع. قال: فخرج وخرجت معه حتى إذا جاءهم استغفر لهم طويلاً، قائماً وقاعداً ثم قال: ليهنِكم ما أصبحتم فيه مما أصبح فيه الناس. أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع آخرها أوّلها. الآخرة شرّ من الأولى. يا أبا مويهبة، إني قد أعطيت خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنَّة، فخيّرت بين الملك والجنة وبين لقاء ربي عزّ وجل والجنة. فقلت: بأبي أنت وأمي، خذ

خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة. فقال: لا والله يا أبا مويهبة، لقد اخترت لقاء ربي والجنة على ذلك. قال: ورجع رسول الله ﷺ واشتكى بعد ذلك بأيام.

○ وفي رواية:

فما لبث بعد ذلك إلا سبعاً أو ثماني حتى قبض.

○ وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال:

جاء جبريل عليه السلام بمفاتيح خزائن الدنيا فقال: يا محمد، هذه مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنّة أحبّ لك أم لقاء ربك ثم الجنة؟ فقال رسول الله ﷺ: **لقاء ربي ثم الجنة** وكان مع جبريل مَلَك الموت فقبض نفسه، وأشخص رسول الله ﷺ بصره إلى سقف البيت وهو يقول: **مع الرفيق الأعلى**، وقبض.

○ وعن الحارث بن مرّة الجُهَني قال:

رأيت عنده رقّاً مكتوباً فيه: بسم الله الرحمن الرحيم. نعى لنا رسول الله ﷺ نفسه قبل موته بشهر، ثم جمعنا بعد ذلك بخمس عشرة ليلة في بيت أمّنا عائشة ونحن أربعون، فنظر إلينا، فدمعت عيناه، وقد أَرَمّ[54] القوم ونظروا إلى الأرض، ثم تشدّد فقال: مرحباً بكم، وحياكم الله، أبشروا ببشرى الله عزّ وجلّ، فحمِد الله وأثنى عليه ثم قال:

اتقوا الله، فإن تقوى الله خيرٌ ما تواصى به عباد الله ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ﴾[55] **ومن حيث لا يأمُل ولا يرجو** ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً﴾[56] ﴿ومن يتق الله يجعل له من امره يسرا﴾[57] **فارضَوا بقضاء**

الله، فإن الأمر أمره وسلِّموا لأمر الله، فإن القليل تبعٌ للكثير. ألا فليسلِّم القليل الكثير ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً﴾ إلى قوله ﴿كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾[58] من الله لا منّي. مرحباً بكم وحيّاكم الله رحمكم الله، آواكم الله، حفظكم الله نصركم الله، رفعكم الله، رفعكم الله هداكم الله، رزقكم الله، وفّقكم الله سلّمكم الله، قبلكم الله، أوصيكم بتقوى الله، وألجئكم إلى الله وأؤديكم إليه، وأؤدي إليكم عنه، إني لكم منه نذير مبين، وأستخلفه عليكم، فاتقوا الله، ولا تعلوا على الله في عباده وبلاده ﴿والْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[59] وقال: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾[60] وإنّ هذا آخرُ ما أخلص بكم، وتُخلصون بي.

اسمع - يا أبا بكر - ما أقول لكم، ثم اعمل على ذلك، وأنت تعلم أنه كذلك. إن دعائي آتٍ بكم على كل ما أشتهي إلاّ ما رددت عنه من بأس بينكم واختلاف كلمتكم والمؤمنون شهود الله في الأرض، فالحَسَن ما حسَّنوا، والقبيح ما قبَّحوا. نظر امرؤ لنفسه عند اختلاف الأمة، وكفّ لسانه، واستبرأ قلبه ولزم

الجماعة، وآثرها على الفرقة، وركب السَّبيل فسلكه، ونكّب السُّبل، وإن يد الله على الجماعة الأمر أمرهم، والقليل تبع للكثير، سل يا أبا بكر، فقال: يا رسول الله، دنا الأجل. فقال: قد دنا الأجل، وتدلى، فقال: ليهنِك يا نبي الله ما عند الله. فليت شعري عن مُنقلَبنا، فقال: إلى الله وإلى سدرة المنتهى ثم إلى جنة المأوى والعرش الأعلى والكأس الأوفى والرفيق، والحظ والعيش الهنيء.

فقال: يا نبي الله، من يلي غسلك؟ فقال: رجالُ أهلِ بيتي الأدنى فالأدنى. قال: ففيم نكفّنك؟ فقال: في ثيابي هذه وفي حلة يمنية، وفي بياض مصر. فقال: كيف الصلاة عليك منا؟ وبكى فقال: مهلاً. غفر الله لكم، وجزاكم عن نبيكم خيراً. إذا غسلتموني وكفّنتموني فضعوني على سريري في بيتي هذا على شفير قبري، ثم اخرُجوا عني ساعة. فإن أوّل مَن يصلّي عليّ اللهُ عزّ وجلّ ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ﴾[61] ثم يأذن الله للملائكة فأوّلُ مَن يدخل عليّ مِن خلق الله ويصلّي عليّ جبريلُ ثم ميكائيل ثم إسرافيل ثم مَلَك الموت مع جنود كثيرة، ثم الملائكة بأجمعها. ثم

أنتم، فادخلوا عليّ أفواجاً فصلوا علي أفواجاً زمرةً زمرة، وسلّموا تسليماً، ولا تؤذوني بتزكية ولا صيحة ولا رنّةٍ وليبدأ زمركم الإمام وأهل بيتي الأدنى فالأدنى ثم زمر النساء ثم زمر الصبيان.

قال: فمن يُدخلك القبر؟ قال: زمر أهل بيتي الأدنى فالأدنى مع ملائكة كثيرة لا ترونهم، يرونكم قوموا فأدّوا عني إلى مَن بعدي.

فقلت: مَن حدثك بهذا؟ قال: عبد الله بن مسعود.

○ وفي حديث آخر عن عائشة بمعناه[٦٢] قال:

ولا تؤذوني بباكية ولا برنّة ولا بصيحة، ومَن كان غائباً مِن أصحابي فأَبلِغوه عنّي السلام، وأُشهدكم أني قد سلّمت على من دخل في الإسلام، ومن بايعني على ديني هذا منذ اليوم إلى يوم القيامة. وساق بقية الحديث.

ذكر مرضه وتوفيه
وتسمية اليوم الذي قبض فيه

○ عن عائشة قالت:

رجع رسول الله ﷺ من البقيع - وفي رواية: من جنازة من البقيع - فدخل فوجدني وأنا أجد صداعاً في رأسي وأنا أقول: وا رأساه. قال: **بل أنا والله يا عائشة وا رأساه.** ثم قال: **وما يضرّك لو متّ قبلي فقمتُ عليكِ فكفنتُكِ ثم صلّيت عليكِ ودفنتُكِ؟** قالت: والله لَكأني بك لو فعلت ذلك قد رجعت إلى بيتي، فأعرست فيه ببعض نسائك. قالت: فتبسم رسول الله ﷺ . قال: وتتامّ به وجعه حتى استُعِزّ[٦٣] به، وهو في بيت ميمونة، فدعا نساءه فسألهن أن يأذَنَّ له أن يمرض



في بيتي، فأذنّ له، فخرج رسول الله ﷺ يمشي بين رجلين من أهله أحدهما الفضل بن عباس ورجل آخر، تخطّ قدماه، عاصباً رأسه حتى جاء بيتي.

قال عبيد الله: فحدثت هذا الحديث عبد الله بن عباس قال: تدري مَن الرجل الآخر؟ قال: قلت: لا. قال: عليّ. ثم غُمّي على رسول الله ﷺ واشتدّ به وجعه ثم أفاق. قال: **أهريقوا عليّ سبع قرب من آبار شتى حتى أخرج إلى الناس فأعهد إليهم.** قالت: فأقعدناه في مِخضب لحفصة بنت عمر، فصببنا عليه الماء حتى طفق يقول بيده: **حسبكم حسبكم** قال: ثم خرج عاصباً رأسه، فجلس على المنبر، فكان أوّلَ ما تكلم به أن صلّى على أصحاب أُحُد، فأكثر الصلاة عليهم ثم قال:

إنّ عبداً من عباد الله خيّره الله بين الدنيا وبين ما عند الله فاختار ما عند الله. قال: ففهمها أبو بكر فبكى، وعرف أن رسول الله ﷺ نفسَه يريد. قال: على رسلك يا أبا بكر. انظروا هذه الأبواب الشارعة في المسجد فسدوها إلا ما كان من بيت أبي بكر، فإني لا أعلم أحداً كان أفضل عندي في الصحبة منه.

وروى ابن إسحاق عن الزهري ويزيد بن رومان وأبي بكر بن عبد الله أن الذي كان ابتدأ به رسول الله ﷺ من وجعه الذي لزِمه أن دخل على عائشة وهو يجد صداعاً، فوجدها تُصَدَّع وتقول: وا رأساه. فقال: **بل أنا والله يا عائشة وا رأساه.** فوالله لطار عني ما أجد، وكدت أن أُستطار، فسكّنني بالمزاح على تجشّم منه. فقال: **وما ضرّك يا عائشة لو متّ قبلي، فأقوم عليك وأَليَك وأصلّي عليك** فقالت له: فما نجاني مما خشيت الحذر، فقلت: أجل والله، لكأني بك لو قد فعلت قد أعرست ببعض نسائك في بيتي من آخر ذلك اليوم، فتبسّم رسول الله ﷺ. ثم تمادى به وجعه وهو في ذلك يدور على نسائه حتى استُعِزّ برسول الله ﷺ وهو في بيت ميمونة. قالت: فلما زاد ما به أجمع رأي مَن في البيت على أن يلدّوه، وتخوّفوا أن يكون به ذات الجنب ففعلوا، ثم فرّج عن رسول الله ﷺ وقد لدّوه فقال: **من صنع هذا؟** فهِبنه واعتلَلْنَ بالعباس، فاتخذ جميع من في البيت العباسَ سبباً، ولم يكن له في ذلك رأي فقالوا: يا رسول الله، عمُّك العباس أمر بذلك وتخوّفنا أن يكون بك ذات الجنب، فقال: **إنها من الشيطان، ولم يكن الله ليسلّطه عليّ**

ولا يرميني بها، ولكن هذا عمل النساء. لا يبقى في البيت أحد إلا لُدّ إلا عمي العباس، فإن يمبني لا ينااله فلُدُوا كلُّهم ولُدّت ميمونة وكانت صائمة لقول رسول الله ﷺ ثم خرج رسول الله ﷺ إلى بيت عائشة - وكان يومها - بين العباس وعلي، والفضل مُمسكٌ بظهره، ورجلاه تحطان الأرض، حتى دخل على عائشة. فلم يزل عندها مغلوباً لا يقدر على الخروج وغيرَ مغلوب وهو يقدر على الخروج من بيتها إلى غيره.

○ وعن عبد الله بن مسعود قال:

كان أحب العُراق إلى رسول الله ﷺذراع الشاة. وكنا نرى أنه سُمّ في ذراع شاة. وكنا نرى أن اليهود سمّوه.



○ عن عُبيد الله بن عبد الله قال:

دخلت على عائشة فقلنا: أخبرينا عن مرض رسول الله ﷺ قالت: اشتكى، فكان ينفُث نَفث آكل الزبيب، وكان يدور على نسائه. فلما اشتدّ شكوُه استأذنهُنّ أن يكون في بيت عائشة، ويدُرْن عليه، فأذِنّ له. فدخل رسول الله ﷺ عليّ بين نفسين أحدهما العباس ورجلاه تحطاه في الأرض. قال ابن عباس: فما أخبرتك مَن الآخر؟ قال: لا. قال: هو عليّ عليه السلام.

○ وعن عبيد الله بن عبد الله قال:

دخلت على عائشة فقلت: ألا تحدثيني عن مرض رسول الله ﷺ قالت: بلى، ثقُل رسول الله ﷺ فقال: صلى الناس؟ فقلنا: لا، هم ينتظرونك يا رسول الله. قال: ضعوا لي ما في المِخْضَب ففعلنا فاغتسل فذهب لينوء[٦٤] فأُغمي عليه ثم

أفاق، قال: **أصلى الناس؟** فقلت: لا، هم ينتظرونك يا رسول الله، قال: **ضعوا لي ما في المخضب**، ففعلنا فاغتسل ثم ذهب لينوء فأغمي عليه ثم أفاق فقال: **أصلّى الناس؟** فقلنا: لا، هم ينتظرونك يا رسول الله، فقال: **ضعوا لي ما في المخضب**، ففعلنا فاغتسل ثم ذهب لينوء فأُغمي عليه ثم أفاق فقال: **أصلّى الناس؟** فقلنا: لا. هم ينتظرونك يا رسول الله، قالت: والناس عُكوف في المسجد ينتظرون رسول الله ﷺ لصلاة العشاء، فأرسل رسول الله ﷺ إلى أبي بكر أن يصلّي بالناس. وكان أبو بكر رجلاً رقيقاً فقال: يا عمر، صلّ بالناس فقال: أنتَ أحقُّ بذلك فصلّى بهم أبو بَكر بدل الإمام، ثم إن رسول الله ﷺ وجد خفّة فخرج بين رجلين - أحدهما العباس - لصلاة الظهر. فلما رآه أبو بكر ذهب ليتأخر، فأومأ إليه أن لا تتأخر، وأمرهما فأجلساه إلى جنبه، فجعل أبو بكر يصلّي قائماً ورسول الله ﷺ يصلي قاعداً. فدخلت على ابن عباس فقلت: ألا أعرض عليك ما حدثتني عائشة عن مرض رسول الله ﷺ؟ قال: هات، فحدثته، فما أنكر منه شيئاً. غير أنه قال: سَمَّتْ لك الرجل الذي كان مع العباس؟ قلت: لا. قال: هو عليّ.

○ وعن عائشة:

أن النبي ﷺ بدأه مرضه الذي مات فيه في بيت ميمونة، فخرج عاصباً رأسه، فدخل بين رجلين تخُطّ رجلاه الأرض، عن يمينه العباس بن عبد المطلب، وعن يساره رجل لا أبا لي لا أذكره - قال عبيد الله: أخبرني ابن عباس أن الذي عن يساره علي بن أبي طالب - قالت عائشة: فلما رأيته قلت: وا رأساه، أنا والله أموت. فقال رسول الله ﷺ **أما والله**

لـوَدِدتُ أنـك تموتين فأكفّنك وأصلّي عليك. قالت: فغضبتُ من قوله وقلت: أما والله إذاً لتعرّس ببعض نسائك قبل أن تُمسي. ثم قال النبي ﷺ: **وا رأساه، ألا أرسلي إلى ابن أبي قحافة وابنه، فلا يطمع في الأمر طامع ثم قـال: كلا يدفع الله ويدفع بالمؤمنين.**

قال موسى بن يعقوب: إنه يعني بقوله: وابنه: عبد الرحمن.

○ وعن عائشة قالت:

كان رسول الله ﷺ يقرأ على نفسه بالمعوّذات. فلما مرض وثقل كنت أقرأ بهما في يديه، وأمسح بهما جسده، ألتمسُ بذلك بركة يديه، فدخلَت عليه في مرضه أم بشر بن البراء بن معرور فقالت: يا رسول الله، ما وجدتُ مثلَ هذه الحمى التي عليك على أحد، فقال: **إنا يُضاعَف لنا البلاء كما يضاعَف لنا الأجـر. ما يقول الناس؟** قالت: يقولون يا رسول الله: ذات الجنب. فقال رسول الله ﷺ: **ما كـان الله ليسلطها على رسـولـه، إنـهـا هـمـزةٌ من الشيطان. ولكنها من الأكْلة التي أكلت أنا وأبيك بخيبر من الـشـاة. كـان نصيبي منها عدادَ مرةٍ بعد مرة. فكان هذا أوان انقطع أبهري.** فمات رسول الله ﷺ شهيداً.



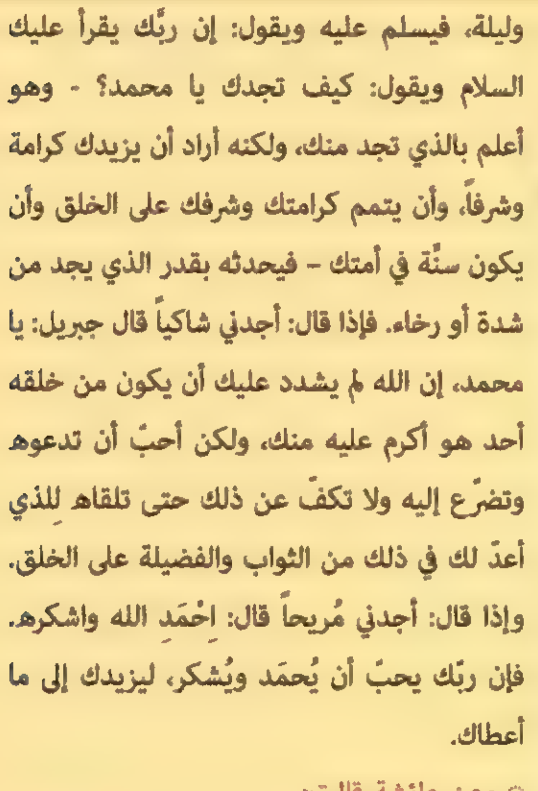
○ وعن أبي هريرة

أن جبريل أتى النبي ﷺ في مرضه الذي قبض فيه فقال: إن الله عزّ وجلّ يُقرئك السلام

ويقول: كيف تجدك؟ قال: أجدني وجعاً يا أمين الله. ثم جاءه من الغد فقال: يا محمد، إن الله يُقرئك السلام ويقول: كيف تجدك قال: يا أمين الله. أجدني وجعاً، ثم جاءه يوم الثالث ومعه ملَك الموت فقال: يا محمد، إنّ ربّك يُقرئك السلام ويقول: كيف تجدك؟ فقال: أجدني يا أمين الله وجِعاً. مَن هذا معك؟ قال: هذا ملك الموت، وهذا آخر عهدي بالدنيا وآخر عهدك بها، ولن آسى على هالك من ولد آدم بعدك. ولن أهبط إلى الأرض إلى أحد بعدك أبداً. فوجد النبي ﷺ سكرة الموت وعنده قدح فيه ماء. فكلما وجد سكرة أخذ من ذلك الماء فمسّ به وجهه ويقول: اللهم، أعني على سكرة الموت.

○ وعن عائشة قالت:

كان جبريل يأتي النبي ﷺ في وجعه كل يوم



وليلة، فيسلم عليه ويقول: إن ربّك يقرأ عليك السلام ويقول: كيف تجدك يا محمد؟ - وهو أعلم بالذي تجد منك، ولكنه أراد أن يزيدك كرامة وشرفاً، وأن يتمم كرامتك وشرفك على الخلق وأن يكون سنّة في أمتك - فيحدثه بقدر الذي يجد من شدة أو رخاء. فإذا قال: أجدني شاكياً قال جبريل: يا محمد، إن الله لم يشدد عليك أن يكون من خلقه أحد هو أكرم عليه منك، ولكن أحبّ أن تدعوه وتضرّع إليه ولا تكفّ عن ذلك حتى تلقاه لِلذي أعدّ لك في ذلك من الثواب والفضيلة على الخلق. وإذا قال: أجدني مُريحاً قال: احْمَدِ الله واشكره. فإن ربّك يحبّ أن يُحمَد ويُشكر، ليزيدك إلى ما أعطاك.

○ وعن عائشة قالت:

إن مما أنعم الله عليّ به أن رسول الله ﷺ قُبض في بيتي ويومي وبين سَحْري ونحري، وجمع

الله بين ريقي وريقه عند الموت: دخل عليّ أخي عبد الرحمن وأنا مسندة رسول الله ﷺ إلى صدري وبيده سواك، فجعل ينظر إليه، وكنت أعرف أنه يعجبه السواك ويألَفه فقلت: آخذه لك؟ فأومأ برأسه أن نعم. فناولته إياه، فأدخله في فيه. فاشتد عليه فتناولته وقلت: أُليّنُه لك؟ فأومأ برأسه أن نعم فليّنتُه له فأمرّه، وبين يديه ركوة - أو قالت عُلْبة[٦٥] - فيها ماء، فجعل يدخل يده فيها ويمسح بها وجهه ويقول: **لا إله إلا الله. إن للموت سكرات** ثم نصب يده - وأشار أين ابني حُسَين[٦٦] - بأصبعه يقول: **الرفيق الأعلى، الرفيق الأعلى** حتى قبض ومالت يده.

وعن عائشة قالت:

قبض رسول الله ﷺ ورأسه بين ثديي ونحري فسمعته يقول: **أفّ من كرب الموت. أفّ من غمّ الموت**، ورأيته يدخل يده في الركوة وينضح على وجهه الماء. قال: قلت: يا نبي الله، تقول كذا وأنت نبي الله؟! فلم يزل يردّدُها حتى قبض.

وعن عائشة قالت:

حتى إذا كان اليوم الذي مات فيه رسول الله ﷺ رأَوْا منه في أول النهار خفّة، فتفرّق عنه الرجال إلى منازلهم وحوائجهم مستبشرين. وأخلوا رسول الله ﷺ بالنساء. فبينا نحن على ذلك، لم نكن على مثل حالنا في الرجاء والهزج قبل ذلك قال رسول الله ﷺ **اخرجن عني، هذا المَلَك يستأذن عليّ**. فخرج مَنْ في البيت غيري ورأسه في حِجري، فجلس وتنحيت في ناحية البيت فناجى الملك طويلاً، ثم إنه دعاني فأعاد رأسه في حجري وقال للنسوة: **ادخلن** فقلت: ما هذا بحسّ جبريل. فقال رسول الله ﷺ **أجل يا**



عائشة. هذا ملك الموت جاءني فقال: إن الله عزّ وجلّ أرسلني إليك وأمرني ألا أدخل عليك إلا بإذن، فإن لم تأذن لي أرجع، وإن أذنت لي دخلت، وأمر ألاّ أقبضك حتى تأمرني، فمرني أمرك. فقلت: اكفف عني حتى يأتيني جبريل هذه ساعة جبريل فخرج. فاستقبلنا بأمر لم يكن عندنا جواب ولا رأي، فوجمنا وكأنما ضربنا بصاخّة ما نحير إليه شيئاً، ولا يتكلم أحد من أهل البيت إعظاماً لذلك الأمر وهيبة ملأت أجوافنا. قالت عائشة: وجاء جبريل في ساعة فسلم، فعرفنا حسّه، وخرج أهل البيت فدخل فقال: إن الله جلّ وعزّ يقرأ عليك السلام يا محمد ويقول: كيف تجدك؟ - وهو أعلم بالذي تجد منك. ولكن أراد أن يزيدك كرامة وشرفاً. وأن يتم كرامتكَ وشرفك على الخلق، وأن تكون سنّة في أمتك - فقال: أجدني وجِعاً فقال: أَبشر فإن الله أراد أن يبلغك ما أعدّ لك. قال: يا جبريل، إن ملك الموت ليستأذن عليّ وأخبره الخبر.

فقال جبريل: يا محمد، إن ربك إليك مشتاق[٦٧]. أعلمك الذي يريد بك. لا والله ما استأذن ملك الموت على أحد قط ولا استأذن عليه أبداً إلا أن ربك متمّ شرفك، وهو إليك مشتاق. قال: فلا تبرح إذاً حتى يجيء، وأَذِن للنساء فقال: ادني يا فاطمة، فأكبّت عليه فناجاها، فرفعت رأسها وعيناها[٦٨] بأربع، وما تُطيق الكلام، ثم قال: أدني مني رأسَك، فأكبّت عليه فناجاها، فرفعت رأسها وهي تضحك وما تطيق الكلام. فكان الذي رأينا منها عجباً، فسألناها بعدُ فقالت: أخبرني أنه قال: إني ميت اليوم فبكيت، ثم قال: إني

دعوتُ الله أن يُلحقك بي في أوّل أهلي وأن يجعلك معي. فأضحكني، وأدنت ابنَيْها منه فشمّهما.

○ وفي حديث آخر عن عائشة قالت:

وخرج جبريل عليه السلام وقال: عليك السلام يا رسول الله. هذا آخر ما أُنزِلُ فيه إلى الأرض أبداً، طوي الوحي وطويت الدنيا، وما كانت لي في الأرض حاجة غيرك، وما لي فيها حاجة إلا حضورك ثم لزوم موقفي، ولا والذي بعث محمداً بالحقّ ما في البيت أحد يستطيع أن يحير إليه في ذلك كلمة ولا يبعث إلى أحد من رجاله أعظم ما يسمع من حديثه ووجْدِنا وإشفاقنا.

○ وعن محمد بن عمر الواقدي قال:

قالوا ولما كان قبل وفاة رسول الله ﷺ بثلاثة أيام هبط إليه جبريل فقال: يا محمد، إن الله أرسلني إليك إكراماً وتفضيلاً لك وخاصة لك، أسألك عما هو أَعْلَم به منك: كيف تجدك؟ قال: **أجدني يا جبريل مغموماً، وأجدني يا جبريل مكروباً.**

فلما كان الغد أتاه جبريل فقال: يا محمد، إن الله أرسلني إليك إكراماً وتفضيلاً لك وخاصة لك، أسألك عما هو أَعْلَم به منك: كيف تجدك؟ فقال رسول الله ﷺ: **أجدني يا جبريل مغموماً، وأجدني يا جبريل مكروباً.** فلما كان اليوم الثالث هبط جبريل ومعه ملك الموت، فهبط معهما ملك يكون في الهواء يقال له إسماعيل على سبعين ألف ملك، ليس منهم مَلَك إلا على سبعين ألف مَلَك فسبقهم جبريل فقال: يا محمد، إن الله أرسلني إليك إكراماً لك وتفضيلاً لك وخاصة لك. أسألك عما هو أعلم به منك: كيف تجدك؟ فقال رسول الله ﷺ: **أجدني يا جبريل مغموماً، وأجدني يا جبريل مكروباً**

واستأذن مَلَك الموت على الباب. فقال له جبريل: يا محمد، هذا ملك الموت يستأذن عليك، ما

استأذن على آدمي قبلك، ولا يَستأذن على آدمي بعدك، فقال رسول الله ﷺ: **ائذَن له** فأذن له جبريل فأقبل من [حيث][69] وقف بين يدي رسول الله ﷺ فقال: يا محمد، إن الله أرسلني إليك. وأمرني أن أطيعك فيما أمرتني، إن أمرتني بقبض نفسك قبضتها، وإن كرهت تركتها فقال رسول الله ﷺ: **وتفعل ذلك يا ملك الموت؟** قال: نعم. بذلك أمرت أن أطيعك فيما أمرتني. فقال جبريل: يا محمد، إن الله قد اشتاق إلى لقائك فقال رسول الله ﷺ: **يا ملك الموت امض لما أمرت به.** فقال جبريل: هذا آخر موطئي الأرضَ، إنما كانت حاجتي في الدنيا. فلما توفي رسول الله ﷺ وجاءت التعزية - جاءت تسمع حسّه، ولا ترى شخصه – فقالت: السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله.

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ المَوْتِ وإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ ﴾[70] إن في الله عزاء من كل مصيبة وخلفاً



من كل هالك. ودَرْكاً من كل ما فات. فبالله فثِقوا، وإياه فارجوا، إنما المصاب من حُرم الثواب. والسلام عليكم ورحمة الله. فقال علي: أتدرون من هذا؟ قالوا: لا. قال: هذا الخضر عليه السلام..

وفي حديث آخر: إنهم سمعوا التعزية مرتين فقال أبو بكر: هذا الخضر واليسع حضرا النبي ﷺ.

وعن عائشة قالت:

قمت إلى النبي ﷺ حتى أضع رأسه بين يدي، وأمسكت بصدره، وجعل يغمى عليه حتى يغلب، وجبهته ترشح عرقاً ما رأيته من إنسان قط. فجعلتُ أَسلِت[71] ذلك العرق، وما وجدت رائحة شيء قط أطيب منه، فكنت أقول له إذا أفاق: بأبي وأمي ونفسي وأهلي ما تلقى جبهتُك من الرشح فقال: **يا عائشة، إن نفس**

وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ

المؤمن تخرج بالرشح، والكافر تخرج مِن شِدْقه كنفس الحمار، فعند ذلك ارتَبْنا وبعثنا إلى أهلينا، فكان أوّل رجل جاءنا ولم يشهده، أخي بعثتُه إلى أبي فمات رسول الله ﷺ قبل أن يجيئنا أحد، وإنما صدّهم الله عنه لأنه ولاه جبريل وميكائيل صلى الله عليهما.

◌ قال أنس بن مالك:

دخلت فاطمة بنت رسول الله ﷺ على رسول الله ﷺ وقد أغمي عليه فقالت: واكرباه لكربك يا أبتاه. قال: فرفع رأسه ونظر إليها فقال: يا بنية، **لا كَرْب على أبيك بعد اليوم، لقد حضر من أبيك ما ليس اللهُ بمؤخِّر عنه أحداً لموافاة يوم القيامة.** قال: ثم أغمي عليه. فأتاه آتٍ فقال: السلام عليك، أأدْخل؟ فقال مَنْ حول رسول الله ﷺ: إن كنت من المهاجرين أو من الأنصار فارجع فإن رسول الله ﷺ عنك مشغول، فرفع رأسه فقال: **من تطردون؟ تطردون داعي ربي عزّ وجلّ، ادخل يا ملك الموت.** قال: وكان أُمرَ ألاّ يدخل عليه إلا بإذن فقال: **ما جاء بك؟** قال: جئت أقبض روحك. قال: **جئت تقبض روحي؟ ولم ألق حبيبي يا ملك الموت؟ أنظِرني حتى ألقى حبيبي جبريل.** قال: ذلك لك يا محمد. قال: وكان أمَرَه بذلك. فخرج ملك الموت، فلقيه جبريل فقال: أين يا ملكَ الموت، قال: إنه سألني ألا أقبض روحه حتى يلقاك. قال: يا ملك الموت، أما ترى أبواب السماء قد

فُتحت لجيئة محمد ﷺ؟. أما ترى أبواب الجنان قد فتحت لجيئة محمد ﷺ؟ أما ترى الملائكة قد نزلوا لجيئة محمد ﷺ؟ قال: فأقبلا جميعاً حتى دخلا عليه، فسلما فقال رسول الله ﷺ:

يا جبريل، ما بدّ من الموت؟ قال: يا محمد ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ (٣٤) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾[٧٢]

قال: يا جبريل، **فمن لأمتي؟** قال: يا محمد ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾[٧٣]

قال: فقبضهُ ملك الموت، وإنّ رأسه لَفي حجر جبريل عليه السلام. فلما قبض قالت فاطمة: **وأبتاه، إلى جبريل ننعاه، من ربّه أدناه، أهل السماوات بالبشرى تلقاه، والرسل به تحظى في غرف الجنان مأواه.** ثم إنها قعدت فقالت: إنا لله وإنا إليه راجعون ثم إنا لله وإنا إليه راجعون. انقطع الخبر من السماء، وما جبريل بنازل علينا أبداً أبداً.

وروى سعيد بن عبد الله عن أبيه قال:

لما رأت الأنصار أن رسول الله ﷺ يزداد ثقلاً أطافوا بالمسجد، فدخل العباس إلى النبي ﷺ فأعلمه بمكانهم وإشفاقهم، ثم دَخل عليه الفضل فأعلمه بمثل ذلك ثم دخل عليه عليّ فأخبره بمثل ذلك فمدّ يده وقال: ها فتناولوه فقال: ما يقولون؟ قالوا: يقولون: نخشى أن يَموت. وتصايح نساؤهم لاجتماع رجالهم إلى النبي ﷺ: فثار النبي ﷺ فخرج متوكئاً على عليّ والفضل، والعباس أمامه، والنبي ﷺ معصوب الرأس يخُط برجليه، حتى جلس على أسفل مرقاة

من المنبر وثاب الناس إليه. فحمد الله وأثنى عليه.

وقال:

أيها الناس، بلغني أنكم تخافون عليّ الموت، كأنه استنكار منكم للموت، وما تنكرون من موت نبيكم ألم أنع إليكم؟ وينعى لكم أنفسكم؟ هل خُلّد نبيّ قبلي فيمن بُعث إليه؟ فأخلدَ فيكم؟ ألا إني لاحقٌ بربي وإنكم لاحقون به. وإني أوصيكم بالمهاجرين الأولين خيراً وأوصي المهاجرين فيما بينهم فإن الله تعالى يقول: ﴿وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾[٧٤] - إلى آخرها - وإن الأمور تجري بأمر الله. فلا يحملنكم استبطاء أمر على استعجاله، فإن الله لاً يعجَل لعجلة أحدِ. ومن غالَب الله غلبه، ومن خادَع الله خدعه ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾[٧٥] أوصيكم بالأنصار خيراً، فإنهم الذين تبوّؤا الدار والإيمان مِن قبلهم أن يحسنوا إليكم، ألم يشاطروكم الثمار؟ ألم يوسعوا عليكم في الديار؟ ألم يؤثروكم على أنفسهم وبهم الخصاصة؟ ألا فمن وَلي أن يحكم بين رجلين

فليَقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم. ألا ولا تستأثروا عليهم. ألا وإني فُرُط لكم وأنتم لاحقون بي. ألاِ وإن موعدكم الحوض. حوضٌ أعرض مما بين بصرى الشام وصنعاء اليمن يصُبّ فيه ميزاب الكعبة ماء أشدّ بياضاً من اللبن وألين من الزبد، وأحلى من الشهد. مَن شرب منه لم يظمأ أبداً، حصباؤه اللؤلؤ، وبطحاؤه في مسك، من حُرمه في الموقف غداً حُرِم الخير كله. ألا فمن اَحبَّ أن يَرِده عليّ غداً فليكفُف يده ولسانه إلا مما ينبغي. فقال العباس: يا نبي الله أوصِ بقريش، فقال: إني إنما أوصي بهذا الأمر قريشاً، الناس تبع لقريش برّهم لبرّهم، وفاجرهم لفاجرهم، فاستوصوا آل قريش بالناس خيراً. يا أيها الناس، إن الذنوب تغيِّر النعم، وتبدِّل القسم، فإذا برّ الناسُ برَّهم أئمتهم، وإذا فَجَر الناس عقوهم. قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[٧٦].

○ وعن عائشة قالت:

فتح رسول الله ﷺ باباً بينه وبين الناس

- أو كشف ستراً - فرأى أبا بكر والناس يصلّون خلفه، فحمِد الله على ما رأى من حسن حالهم، ورجا أن يخلفه فيهم بالذي رأى فيهم فقال:

أيها الناس، أيّما أحدٌ من أمتي أصيب من المؤمنين بمصيبة من بعدي فليتعزَّ بمصيبتي عن المصيبة التي تصيبه بعدي، فإن أحداً من أمتي لم يُصَب كمصيبته بي.

○ وعن أنس بن مالك في حديث قال:

فلما توفي رسول الله ﷺ دفناه، قال: قال أنس: مررت بفاطمة. قال: فقالت:

يا أنس، أطابت أنفسكم أن تحثوا على رسول الله ﷺ التراب؟



○ وعن أنس قال:

لما مرض رسول الله ﷺ مرضه الذي مات فيه أتاه بلال، فأذن بالصلاة فقال: **يا بلال، قد بلّغت، فمن شاء فليصلّ ومن شاء فليدع.** قال: يا رسول الله، فمن يصلي بالناس؟ قال: **مُرُوا أبا بكر فليصلّ بالناس.** فلما تقدم أبو بكر رفعت الستور عن رسول الله ﷺ، فنظرنا إليه كأنه ورقة بيضاء عليه خميصة سوداء، فظن أبو بكر أنه يريد الخروج فتأخر، فأشار إليه رسول الله ﷺ أنْ صلّ مكانك، فصلّى أبو بكر، وما رأينا رسول الله ﷺ حتى مات من يومه.

○ وفي حديث آخر عن أنس بن مالك قال:

لما كان يوم الإثنين كشف رسول الله ﷺ سترة الحجرة، فرأى أبا بكر وهو يصلي بالناس. قال:

فنظرتُ إلى وجهه كأنه ورقة مصحف، وهو يبتسم، فكدنا أن نفتتن في صلاتنا فرحاً برؤية رسول الله ﷺ. قال: فأراد أبو بكر أن ينكُص. قال: فأشار إليه أنْ كما أنت، ثم أرخى الستر فقُبض من يومه، فقام عمر فقال: إن رسول الله ﷺ لم يمت، ولكن ربه أرسل إليه كما أرسل إلى موسى، فمكث عن قومه أربعين ليلة. والله إني لأرجو أن يعيش رسول الله ﷺ حتى يقطع أيديَ رجال من المنافقين وألسنتهم يزعمون - أو قال: يقولون - إن رسول الله ﷺ قد مات.

○ وعن عبد الله بن محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب عن أبيه عن جده قال:

قال رسول الله ﷺ في مرضه: **ادعوا إلي أخي** قال: فدعي له علي. فقال: **ادن مني** فدنوت منه، فاستند إليّ فلم يزل مستنداً إليّ، وإنه ليكلمني حتى إن بعض ريق النبي ﷺ ليصيبني، ثم نزل رسول الله ﷺ وثقل في حجري فصحت يا عباس، أدركني فإني هالك. فجاء العباس، فكان جهدهما جميعاً أن أضجعاه.

○ وعن عائشة

أنها سمعت النبي ﷺ وأصغت إليه قبل أن يموت وهو مستند إلى صدرها يقول: **اللهم اغفر لي، وارحمني، وألحقني بالرفيق.**

○ وفي رواية:

وألحقني بالرفيق الأعلى.

○ وعن عائشة قالت:

كان رسول الله ﷺ إذا مرض إنسان من أهله مسَحه بيده اليمنى ثم يقول: أذهِب الباس ربَّ الناس، واشف، أنت الشافي لا شفاء إلا شفاؤك، شفاء لا يغادر سقماً. قالت: فلما ثقل

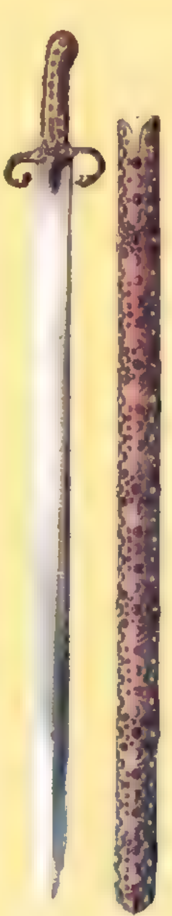
رسول الله ﷺ في مرضه الذي مات فيه أخذتُ يده، فجعلتُ أمسح بها وأقولها قال: فنزع يده مني وقال: **رب اغفر لي، وألحقني بالرفيق الأعلى**. قالت: فكان هذا آخر ما سمعته من كلامه.

○ وعن عائشة

أن أبا بكر أقبل على فرس ومسكنه بالسُّنْح[٧٧] حتى نزل، فدخل وأكب عليه، فقبله وبكى. قال: بأبي أنت. والله لا يجمع الله عليك موتتين أبداً، أما الموتة التي كتبت عليك فقَدْ متّها.

○ وعن ابن عباس

أن أبا بكر خرج وعمر يكلّم الناس فقال: اجلس، وأبى عمر أن يجلس فقال: اجلس، فأبى أن يجلس، فتشهد أبو بكر، فمال الناس إليه وتركوا عمر فقال: أيها الناس، مَن كان منكم يعبد محمداً فإن محمداً قد مات. ومن كان منكم يعبد الله فإن



الله حيّ لا يموت. قال الله تعالى ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِه الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللّهُ الشَّاكِرِينَ﴾[٧٨] قال: والله لكأنّ الناس لم يكونوا يعلَمون أن الله أنزل الآية حتى تلاها أبو بكر، فتلقاها الناس كلهم، فما سُمع بشرٌ إلا يتلوها. قال عمر: والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تَلاها عَقِرتُ[٧٩]، حتى ما تلتقي رجلاي، فأهويت إلى الأرض، وعرفت حين سمعته تلاها أن رسول الله ﷺ قد مات.

قال: وإن أبا بكر لما توفي دفن مع رسول الله ﷺ. فلما حضر عمرَ بن الخطاب الموتُ أوصى قال: إذا أنا متّ فاحملوني إلى باب بيت عائشة فقولوا لها: هذا عمر بن الخطاب يقرئك السلام ويقول: أدخل أم أخرج. قال: فسكتت

ساعة ثم قالت: أدخلوه فدفنوه معه، أبو بكر عن يمينه وعمر عن يساره. قالت: فلما دفن عمر أخذت الجلباب فتجلببت. قال: فقيل لها: ما لَك والجلباب؟ قالت: كان هذا زوجي وهذا أبي. فلما دفن عمر تجلببت.

○وفي حديث عائشة [80]

فاقتحم الناس حيث ارتفعت الرنة وسجّى رسولَ الله صلى الله عليه وآله الملائكةُ بثوبه، وكذّب بعضٌ بموته، وأحرج بعض فما تكلم، وأقعد البعض وخلط آخرون فلاثوا[81] الكلام بغير بيان، وبقي آخرون ومعهم عقولهم وأقعد آخرون. فكان عمر بن الخطاب ممن كذب بموته، وعليّ ممن أقعد، وعثمان فيمن أُخرس. فخرج مَن في البيت على الناس ورسول الله صلى الله عليه وآله مسجىً فقالوا: إن رسول الله صلى الله عليه وآله لم يمت. ويرجعه الله عزّ وجلّ وليقطعن أيدي وأرجل رجال من المنافقين يتمنون لرسول الله



صلى الله عليه وآله الموت ، إنما واعده ربه عزّ وجلّ كما واعد موسى وهو آتيكم. وتوفي يوم الإثنين لثنتي عشرة من ربيع الأول. وأما علي فأقعد ولم يبرح الباب، وأما عثمان فجعل لا يكلم أحداً، يؤخذ بيده فيجاء به، ويذهب به.

○ وفي موضع آخر:

لم يكن أحد من المسلمين في مثل جَلَد أبي بكر والعباس .

وعن سالم بن عُبيد، وكان من أصحاب الصفة أن النبي صلى الله عليه وآله لما اشتد مرضه أغمي عليه. فلما أفاق قال: **مُرُوا بلالاً فليؤذِّن، ومُرُوا أبا بكر فليصلّ بالناس**، ثم أغمي عليه فقالت عائشة: إن أبي رجل أسيف، فلو أمرت غيره. قال: **إنكنّ صويحبات يوسف، مُرُوا بلالاً فليؤذِّن، ومُرُوا أبا**

بكر فليصلّ بالناس، فأرسل إلى بلال يؤذن، وأرسل إلى أبي بكر يصلي بالناس. قال: ثم أفاق فقال: أُقيمت الصلاة؟ قالوا: نعم. قال: ادعوا لي إنساناً أعتمد عليه، فجاءت بريرة وإنسان آخر فانطلقوا يمشون به وإن رجليه تحطان في الأرض قال: فأجلسوه إلى جنب أبي بكر، فذهب أبو بكر يتأخر فحبسه حتى فرغ الناس من الصلاة. فلما توفي قال: كانوا قوماً آمنين، لم يكن فيهم نبيّ قبله، فقال عمر: لا يتكلم أحد بموته إلا ضربته بسيفي هذا. قال: فقالوا لي: اذهب إلى صاحب نبيّ الله فادعُه، يعني أبا بكر. قال: فذهبت أمشي فوجدته في المسجد. قال: فأجهشتُ أبكي فقال: لعل نبيّ الله ﷺ توفي. قلت: إن عمر قال: لا يتكلم أحد بموته إلا ضربته بسيفي هذا. قال: فأخذ بساعدي، ثم أقبل يمشي حتى دخل، فأوسعوا له، فأكب على رسول الله ﷺ حتى كاد وجهه يمسّ وجه رسول الله ﷺ، فنظر



بنفسه يَخْبُره حتى استبان له أنه توفي، فقال: ﴿إنَّكَ مَيِّتٌ وإنَّهُم مَيِّتُونَ﴾[٨٢] قالوا: يا صاحب رسول الله، توفي رسول الله ﷺ؟ قال: نعم. قال: فاعلموا أنه كما قال. قالوا: يا صاحب رسول الله ﷺ، هل يُصلّى على النبي ﷺ؟ قال: نعم. قال: يجيء نفر منكم فيُكبرون، ويَدْعون ويَذهبون، حتى يفرغ الناس. قال: فعلموا أنه كما قال. قالوا: يا صاحب رسول الله ﷺ، هل يُدفن النبي ﷺ قال: نعم. قالوا: أين يُدفن؟ قال: حيث قبضَ الله روحـه، فإنه لم يقبض إلا في موضع طيب. قـال: فعرفوا أنه كما قـال. ثم قـال: عندكم صاحبكم ، ثم خرج فاجتمع إليه المهاجرون، أو مَنِ اجتمع إليه منهم فقال: انطلقوا إلى إخواننا من الأنصار، فإن لهم في هذا الحق نصيباً. قال: فذهبوا حتى أتَوْا الأنصار. قال: فإنهم لَيتآمرون

إذ قال رجل من الأنصار: منا أمير ومنكم أمير، فقال عمر: وأخذ بيد أبي بكر فقال: سيفان في غمد إذ لا يصطلحان ثم قال: مَن الذي له هذه الثلاثة ﴿إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ﴾[٨٣] فَمن صاحبه ﴿لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾[٨٤] مع مَنْ؟ قال: وبسط يد أبي بكر فضرب عليها، ثم قال للناس: بايعوا فبَايع الناسُ أحسن بيعة.

○ وفي حديث عكرمة

توفي رسول الله ﷺ يوم الإثنين فحبس بقية يومه وليلته والغد، حتى دفن ليلة الثلاثاء. وقالوا: إن رسول الله ﷺ لم يمت، ولكنه عرج بروحه كما عرج بروح موسى. والله لا يموت رسول الله حتى يقطع أيـدي أقـوام وألسنتهم، فلم يزل عمر يتكلم حتى أزبد شدقاه مما توعّد وقال فقام العباس فقال: إن رسـول الله ﷺ قد مات ، وإنه لَبشر وإنه يأسَن كما يأسَن البشر.

أيْ قوم، فادفِنوا صاحِبكم، فإنه أكرم على الله من أن يميته إماتَتَيْن، أيميت أحدكم إماتة ويميته اثنتين؟ هو أكرم على الله من ذلك. أي قوم، فادفنوا صاحبكم، فإن يك كما تقولون فليس يعزب على الله أن يَنجُث[٨٥] عنه التراب، إن رسول الله ﷺ والله ما مات حتى ترك السبيل نهجاً واضحاً، فأحلّ الحلال وحرّم الحرام، ونكح وطلق، وحارب وسالم. ما كان راعي غنم يتبع بها صاحبها رؤوس الجبال، يخبط عليها بعصاه بمخبطه ويمدر[٨٦] حوضها بيده بأدأبَ ولا أنصَب من رسول الله ﷺ كان فيكم

أيْ قوم، فادفِنوا صاحبكم. قال: وجعلت أم أيمن تبكي فَقيل لها: يا أم أيمـن، تبكين على رسول الله ﷺ فقالت: أي والله، ما أبكي على رسول الله ﷺ ألاّ أكون أعلَمُ أنه قد ذهب إلى ما هو خيرٌ له من الدنيا، ولكن أبكي على خبر السماء

انقطع.

○ قال أنس:

لما كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة أضاء منها كلّ شيء. فلما كان اليوم الذي مات فيه رسول الله ﷺ أظلم منها كل شيء. قال: وما نفضنا عن رسول الله ﷺ الأيدي وإنا لفي دفنه حتى أنكرنا قلوبنا.

تاريخ وفاته والخلاف في قدر حياته

○ عن محمد بن قيس قال:

توفي رسول الله ﷺ يوم الإثنين لليلتين مضتا من ربيع الأول، سنة إحدى عشرة.

○ وقال الواقدي: وقالوا:

بدئ برسول الله ﷺ يوم الأربعاء لليلتين بقيتا من صفر. وتوفي يوم الإثنين لاثنتي عشرة مضت من ربيع الأول. قال: وهو الثبت عندنا. ودفن ليلة الثلاثاء وقيل دفن ليلة الأربعاء.

○ وعن الليث بن سعد قال:

توفي رسول الله ﷺ في شهر ربيع الأول ، في يوم الإثنين لليلة خلت منه. وقيل: يوم الإثنين لليلتين خلتا من شهر ربيع الأول لتمام عشر سنين من مَقْدَمه المدينة.



○ وعن الفضل بن دُكين قال:

توفي رسول الله ﷺ يوم الإثنين مستهلّ ربيع الأول، سنة إحدى عشرة من مقدمه المدينة.

○ وعن عائشة أنها قالت:

ما علمنا يُدفن رسول الله ﷺ حتى سمعنا صوت المساحي[87] في جوف ليلة الأربعاء.

○ وعن أنس بن مالك قال:

نبئ رسول الله ﷺ وهو ابن أربعين سنة، فمَكث بمكة عشر سنين، وبالمدينة عشراً. وتوفي وهو ابن ستين سنة. ليس في رأسه ولحيته عشرون شعرة بيضاء.

○ وفي رواية عنه أيضاً بمثله إلا أنه قال:

وتوفي وهو ابن ثلاث وستين سنة. ليس في رأسه ولحيته عشرون شعرة بيضاء.

قال: والمحفوظ عن ربيعة أنه مات وهو ابن ستين سنة.



○ وعن أنس عن النبي ﷺ قال:

أعمار أمتي كعمري إلا الأقل. فقيل لأنس بن مالك: فكم كان عمره؟ قال: اثنتين وستين.

○ وعن مكحول قال:

ولد رسول الله ﷺ يوم الإثنين ، وأوحي إليه يوم الإثنين، وهاجر يوم الإثنين، وتوفي يوم الإثنين لثنتين وستين سنة ونصفاً. وقيل: وأشهر. وكان له قبل أن يوحى إليه ثنتان وأربعون سنة، واستخفى عشر سنين وهو يوحى إليه، ثم هاجر إلى المدينة، فمكث يقاتل عشر سنين ونصف . وكان يوحى إليه عشرين سنة ونصفاً ثم توفي.

قال الهيثم: وتوفي فمكث ثلاثة أيام لا يدفن، فدخل الناس عليه رَسَلاً رَسَلاً يصلون عليه، والنساء مثل ذلك، وطهره ابنا عمه الفضل بن عباس وعلي بن أبي طالب. وكان يناولهم عباس الماء. وكُفن في ثلاث رياط بيض يمانية. فلمّا كفن

وطهر دخل الناس عليه في تلك الأيام الثلاثة يصلون عليه عُصَباً عُصَباً. تدخُل العصبة فتُصلي وتسلم. وقال الهيثم: يصلون عليه عُصَباً عُصَباً لا يصفّون، فلا يصلي بين أيديهم مُصَل، حتى فرغ من يريد ذلك ثم دفن، فأنزله في القبر عباس وعلي والفضل. وقال عند ذلك رجل من الأنصار: أشرِكونا في موت رسول الله ﷺ، فإنه قد أشرَكنا في حياته. فنزل معهم في القبر وولي ذلك معهم.

○ وعن ابن عباس قال:

بُعث النبي ﷺ وهو ابن أربعين سنة ، فدعا الناس إلى الإسلام، ولم يؤذن له في القتال ثلاث عشرة سنة. وكانت الهجر عشر سنين، وقبض رسول الله ﷺ وهو ابن ثلاث وستين.

○ وفي رواية أخرى عنه قال:

أنزل على النبي ﷺ بمكة وهو ابن ثلاث وأربعين سنة. فمكث بمكة عشراً. وبالمدينة عشراً. وقبض وهو ابن ثلاث وستين.



○ وعن معاوية قال:

بلغ رسول الله ﷺ ثلاثاً وستين، وأبو بكر ثلاثاً وستين، وعمر ثلاثاً وستين، وأنا ابن ثلاث وستين.

○ وعن عائشة قالت:

تذاكر رسول الله ﷺ وأبو بكر ميلادهما عندي، فكان رسول الله ﷺ أكبر من أبي بكر. وتوفي رسول الله ﷺ وهو ابن ثلاث وستين سنة، وتوفي أبو بكر بعده وهو ابن ثلاث وستين. لسنتين ونصف التي عاش بعد رسول الله ﷺ.

○ وعن الشعبي قال:

قرن إسرافيل برسول الله ﷺ ثلاث سنين، يسمع الصوت ولا يرى أحداً، ثم قرن به جبريل عشرين سنة، وذلك حين أوحي إليه، فأقام بمكة عشر سنين، وبالمدينة عشراً. فقُبض

رسول الله ﷺ وهو ابن ثلاث وستين.

○ قال أبو عبد الله أحمد بن حنبل:

الثبت عندنا: ثلاث وستون سنة.

○ وعن الحسن قال:

بُعث وهو ابن خمس وأربعين، فأقام بمكة عشراً وبالمدينة ثماني. وتوفي وهو ابن ثلاث وستين. وقيل: إنه بلغ خمساً وستين سنة.

○ عن عمار مولى بني هاشم قال:

سألت ابن عباس: كم أتى لرسول الله ﷺ يوم مات؟ قال: ما كنت أرى مثلك في قوم يخفى عليك ذلك! قال: قلت: إني قد سألت فاختلف عليّ فأحببت أن أعلم قولك فيه. قال: أتحسُب؟، قلت: نعم. قال: أمسك أربعين بُعث لها، وخمس عشرة أقام بمكة يأمن ويخاف، وعشراً مهاجره بالمدينة.



○ وعن ابن عباس

أن رسول الله ﷺ أقام بمكة خمس عشرة سنة: ثماني سنين أو سبع يرى الضوء ويسمع الصوت وثماني سنين أو سبع يوحى إليه. وأقام بالمدينة عشراً.

○ وعن سعيد بن جبير[88]

أن رجلاً أتى ابن عباس فقال: أُنزل على النبي ﷺ عشراً بمكة، وعشراً بالمدينة. فقال: مَن يقول ذلك؟ لقد أُنزل عليه بمكة عشراً وخمساً. وستين وأكثر.

ذكر من حضر غسله ومن غسّله وما كفّن فيه وصفة قبره

○ وعن ابن عباس قال:

لما اجتمع القوم لغسل رسول الله ﷺ وليس في البيت إلا أهله: عمّه العباس بن عبد المطلب وعلي بن أبي طالب، والفضل بن عباس، وقُثَم بن عباس وأسامة بن زيد بن حارثة، وصالح مولاه. فلما اجتمعوا لغسله نادى من وراء الباب أوسُ بن خَوْليّ - الأنصاري، ثم أحد بني عوف بن الخزرج، وكان بدرياً - عليّ بن أبي طالب فقال: يا علي، ننشدك الله وحظّنا من رسول الله ﷺ. قال: فقال له علي: ادخل، فدخل فحضر غسل رسول الله ﷺ، ولم يل من غسله شيئاً. قال: فأسنده عليّ إلى صدره وعليه قميصه. وكان العباس والفضل وقثم يقلّبونه مع عليّ، وكان أسامة بن زيد وصالح مولاه هما يصبان الماء.

وجعل عليّ يغسله ولم يُر من رسول الله ﷺ شيء مما يُراه من الميت. وهو يقول: بأبي وأمي، ما أطيبك حياً وميتاً. حتى إذا فرغوا من غسل رسول الله ﷺ، وكان يغسل بالماء والسدر جففوه، ثم صُنع به ما يصنع بالميت، ثم أدرج في ثلاثة أثواب: ثوبين أبيضين وثوب حَبِرَة. قال: ثم دعا العباس رجلين فقال: ليذهب أحدكما إلى أبي عبيدة بن الجراح، وكان أبو عبيدة يضرَح[89] لأهل مكة، وليذهب الآخر إلى أبي طلحة بن سهل الأنصاري، وكان أبو طلحة يلحَد لأهل المدينة. قال: ثم قال العباس لهما: حين سرّحهما: اللهم خِرْ لرسولك. قال: فذهبا فلم يجد صاحبُ أبي عبيدة أبا عبيدة، ووجد صاحبُ أبي طلحة أبا طلحة فلحِد لرسول الله ﷺ.

وعن ابن عباس قال:

لما أخذنا في جهازه أمر أبي بالباب فغُلِّق دون الناس، فنادت الأنصار: نحن أخوالك، ومكاننا من الإسلام مكاننا، وهو ابن أختنا، فنادت قريش: نحن عصبته، فصاح أبو بكر: يا معشر المسلمين، كل قوم أحق بجنازتهم من غيرهم، فانطلقوا على العباس، فكلّموه فكلمته الأنصار فأدخلوا أوس بن خَوْلي فكان في ناحية البيت. قال ابن عباس: فبينا هم يختلفون في غسله، وقد أحضروا الماء من بئر غَرْس[٩٠]، وأحضروا سِدراً وكافوراً أرسل الله عليهم النوم، فما منهم رجل إلا واضعاً لحيته على صدره، وقائل يقول ما يُدرى مَن هو: اغسلوا نبيكم وعليه قميصه. فغسل في القميص، وغسل الأولى بالماء القراح، والثانية بالماء والسدر، والثالثة بالماء والكافور، وغسله عليّ والفضل ابن عباس، وكان الفضل رجلاً أيّداً، فكان يقلبه شقران مولى رسول الله ﷺ. وكان العباس بن عبد المطلب بالباب. فقال: لم يمنعني أن أحضر غسله إلا أني كنت أراه يستحيي أن أراه حاسراً.

وفي رواية:

وكان أوس بن خَولي رجلاً شديداً يحمل جرّة الماء بيده.

وعن جابر بن عبد الله

أن كعب الأحبار قدم زمن عمر فقال ونحن جلوس عند عمر: يا أمير المؤمنين، ما كان آخِر ما تكلم به رسول الله ﷺ؟ فقال عمر: سَل علياً. قال: أين هو؟ قال: هو ههنا، فسأله، فقال علي: أسندته إلى صدري، فوضع رأسه على منكبي فقال: الصلاة الصلاة، فقال كعب: كذلك آخر عهد الأنبياء وبه أُمروا وعليه يقضون. قال: فمن غسله يا أمير المؤمنين؟ قال: سَل علياً. قال: فسأله فقال: كنت أنا أغسله، وكان عباس جالساً، وكان أسامة وشقران يختلفان إليّ بالماء.

وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ

○ وعن أبي غطفان قال:

سألت ابن عباس: أرأيت رسول الله ﷺ توفي ورأسه في حجر أحد؟ قال: توفي وهو إلى صدر عليّ. قلت: فإن عروة حدثني عن عائشة أنها قالت: توفي رسول الله ﷺ بين سحري ونحري. فقال ابن عباس: أيعقل! والله لَتوفي رسول الله ﷺ وإنه لمسندٌ إلى صدر عليّ، وهو الذي غسله، وأخي الفضل بن عباس، وأبي أبي أن يحضر، وقال: إن رسول الله ﷺ كان يأمرنا أن نستتر، فكان عند الستر.

○ قال عليّ عليه السلام:

أوصى النبي ﷺ ألا يغسّله أحد غيري، فإنه لا يرى عورتي إلا طُمست عيناه. قال عليّ: فكان الفضل وأسامة يناولاني الماءَ من وراء الستر، وهما معصوبا العين. قال علي: فما تناولت عضواً إلا كأنما يقلّبه معي ثلاثون رجلاً، حتى فرغت من غسله.



○ وعن عائشة قالت:

لما أرادوا غسل النبي ﷺ قالوا: والله ما ندري كيف نغسله: أنجرده من ثيابه كما نجرّد موتانا أم نغسّله وعليه ثيابه؟ فبينا هم كذلك كذلك ألقى الله عليهم النوم، حتى ما منهم رجل إلا ذقنه في صدره، ثم كلمهم مكلِّم من ناحية البيت لا يدرون من هو: اغسلوا رسول الله ﷺ وعليه ثيابه، فقاموا إلى النبي ﷺ فغسلوه وعليه قميصه، يصبون الماء من فوق القميص، ويدلكونه بالقميص دون أيديهم، وكانت عائشة تقول: لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما غسّله إلا نساؤه.

وعن عبد الله بن الحارث في حديثه قال:

فغسله عليّ، يدخل يده تحت القميص، والفضل يمدّ الثوب عليه، والأنصاري ينقل الماء، وعلى يد عليّ خرقة يدخل يده وعليه القميص.

○ قال عبد الله بن قيس:

فما كنا نريد أن نرفع منه عضواً نغسلُه إلا رُفع لنا ، حتى انتهينا إلى عورته، فسمعنا من جانب البيت صوتاً: لا تكشفوا عن عورة نبيّكم ﷺ.

○ وفي حديث العَلْباء بن أحمر قال:

كان عليٌ والفضل بن العباس يغسلان رسول الله ﷺ فنودي: علي، ارفع طرفك إلى السماء.

وفي حديث ابن عباس

فتنبهوا لقائل يقول، لا يدرون من هو: اغسلوا نبيكم وعليه قميصه فغسل رسول الله ﷺ في قميصه.

○ وعن محمد بن علي أبي جعفر قال:

إن رسول الله ﷺ غسل ثلاثاً بماء وسِدْر، وغسل من بئر يقال لها: بئر غَرْس، كانت لسَعْد بن خيثمة وكان النبي ﷺ يشرب منها. وولي غسل سَفِلته عليّ، والفضل محتضنه والعباس يصب الماء إن



شاء الله، والفضل يقول: أرحني قطعت وتيني إني لأجد شيئاً يتنزّل. وكفّن في ثلاثة أثواب، ثوبين صحاريّين[91] وبُرد حَبَرة.

وعن عمر بن الحكم قال: قال رسول الله ﷺ:

نِعم البئر بئر غَرْس، هي من عيون الجنة، وماؤها أطيب المياه. وكان رسول الله ﷺ يُستعذب له منها، وغسل من بئر غَرْس.

○ وعن ماهان الحنفي عن ابن عباس قال:

قلت: كيف كان غسل النبي ﷺ؟ قال: ضرب عليه العباس كلَّةً له من يمانية صِفاق، فصارت سُنَّة هنا، وفي كثير من صالحي الناس، ثم أذن لرجال من بني هاشم فقعدوا بين الحيطان والكلة، وسأله الأنصار أن يُدخِل لهم رجلاً، فأدخل أوس بن خَوْليّ، ثم دخل العباس الكِلّة ودعا علياً والفضل وأبا سفيان وأسامة. فكان الفضل يصب

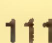
الماء والمعونية في أسفله الصَّب، أعقبه أبو سفيان وأسامة[٩٢]. فلما اجتمعوا في الكلّة أُلقي عليهم النعاس، وعلى مَن وراء الكلّة في البيت حتى ما منهم أحد إلا وذقنه في صدره يغطّ، فناداهم منادٍ أن انتبهوا وهو يقول: ألا لا تغسلوا النبي ﷺ فإنه كان طاهراً. فقال العباس: ألا بلى. وقال أهل البيت : صدق فلا تغسلوه، فقال العباس: لا نَدَع سنّة لصوت لا ندري ما هو، وغشيهم النعاس ثانية فناداهم منادٍ فانتبهوا وهو يقول: اغسلوا رسول الله ﷺ وعليه ثيابه. فقال أهل البيت: ألا، لا، فقال العباس: ألا نعم. وقد كان العباس حين دخل قعد متربعاً، وأقعد عليّاً متربعاً فتواجها وأقعد النبي ﷺ على حجرهما فنودوا أن أضجعوا رسول الله ﷺ على ظهره. ثم اغسلوه، واستروا، فبازوا[٩٣] عن الصفيح وأضجعاه، فغرّبا رجل الصفيح وشرّقا رأسه، ثم أخذوا في غسله وما يريان أنه ينبغي لهما أن يأتيا على شيء إلا قلب لهما ورفع لهما، وعليه قميص ومِجْوَل[٩٤] إلا بالماء القَراح، وطيبوا بالكافور ثم اعتُصر قميصه ومِجْوَله، وحنّطوا مساجده ومفاصله، ووضّؤوا به ذراعيه ووجهه وكفيه ثم أدرجوا أكفانه على قميصه ومجوله وجمّروه عوداً ونَدّاً، ثم احتملوه حتى وضعوه على سريره وسجّوه.

○ وعن علي في حديث آخر قال:

وإن معنا لحفيفاً في البيت كالريح الرخاء ويُصوت بنا: ارفقوا برسول الله ﷺ فإنكم ستُكْفَوْن.

○ وعن علي رضي الله عنه قال:

غسلت رسول الله ﷺ فذهبت أنظر ما يكون من الميت فلم أر شيئاً، وكان طيّباً حياً وميتاً. وولي دفنه وإجنانه[٩٥] دون الناس أربعة:



علي بن أبي طالب، والعباس، والفضل بن العباس، وصالح مولى رسول الله ﷺ. وأُلحد لرسول الله ﷺ لَحدٌ ونُصب عليه اللبن نصباً.

وعن جابر قال:

كُفّن رسول الله ﷺ في برد. قال جابر: ذلك الثوب نَمِرة.

○ وعن ابن عباس قال:

كفن رسول الله ﷺ في ثوبين سَحوليين. أبيضين وزاد في رواية: وبرد أحمر.

○ وفي رواية عنه قال:

كُفّن رسول الله ﷺ في ثلاثة أثواب: قميصه الذي مات فيه، وحلّة حمراء نجرانية، وإزار.

○ وعنه قال:

كفن في حلة حمراء كان يلبسها وقميص.

○ وعن علي قال:

كفن في ثلاثة أثواب: ثوبين سَحوليين وبُرد حِبَرة.

وعن أبي هريرة:

كُفّن[96] في رَيْطتين وبُرد نجراني.

○ وعن علي قال:

كفن بسبعة أثواب.

○ وعن ابن عمر قال:

كفن في ثلاثة أثواب بيض سجي بها.

وعن سالم عن أبيه

أنه كفن في ثلاثة أثواب: ثوبين صُحاريين وبُرد حبَرة.

○ وعن ابن عمر

أنه كفّن في ثلاثة أثواب.

○ وعن جابر بن سمرة

أنه كفّن في ثلاثة أثواب: قميص وإزار ولفافة.

○ وعن عائشة قالت:

كفّن رسول الله ﷺ في ثلاثة أثواب أحدها بُرد أحمر.

○ قال الحافظ:

ذِكْر البُرد في رواية عائشة وَهْم، وكلّ من ذكر البرد في روايته إنما شُبّه عليه، فإنه كفن فيه ثم نزع عنه، وذلك بيّنٌ فيما روي عن عائشة قالت: أدرج رسول الله ﷺ في يُمْنة[٩٧] كانت لعبد الله بن أبي بكر ثم نزعت عنه، وكفن في ثلاثة أثواب سَحُولية ليس فيها قميص ولا عمامة، فرفع عبد الله الحلة فقال أُكَفَّن فيها، ثم قال: لم يكفن فيها رسول الله ﷺ وأكفَّن فيها؟ فتصدق بها. وقيل: كان لعبد الرحمن بن أبي بكر.

وفي رواية عن عائشة

أنه كفن بثلاثة أثـواب بيض سَحولية من ثياب اليمن.

○ وعن عائشة قالت:

كفن رسول الله ﷺ في ثلاثة أثواب سَحُولية بيض ليس فيها قميص ولا عمامة، أدرج فيها إدراجاً.

وعنها

أنه كفن في ثلاثة أثواب يمانية بيض كُرْسُف - يعني: قطن - ليس في كفنه قميص ولا عمامة.

وفي رواية عنها[٩٨]:

فقيل: إنهم يزعمون أنه ﷺ كُفِّن في ثوب حَبَرَة قالت: قد جاؤوا بثوب حبرة فلم يكفن فيه.

○ وفي رواية عنها

أنه كفن في ثلاثة رياط يمانية.

○ وعن ابن إسحاق قال:

رفعت على مجلس بني عبد المطلب وهم متوافرون فقلت لهم: في كم كُفِّن النبي ﷺ؟ قالوا: في ثلاثة أثـواب، ليس فيها قميص ولا قَباء[٩٩] ولا عِمَامة فقلت: كم أسر منكم يوم بدر؟ قالوا: العباس ونوفل وعقيل.

قال معاذ بن جبل:

أوصى رسول الله ﷺ بالصلاة حتى مضى.

وذلك آخر ما حضّ عليه وتكلّم به الصلاة وصية الله ووصية الرسول احفظوا وصية الله ووصية الرسول يحببكم الله ويُحَبِّبكم إلى خلقه. قال: ثم قال رسول الله ﷺ: إذا جهزتموني فأمسكوا عني، فإن أول الخلق يصلي علي جبريل والملائكة بأسرها، ثم مُسْلِمو الجن والإنس، وصَلوا عليّ أفواجاً، وليبدأ أفواجَكم العباس والإمام، ثم الأفواج على الولاء الأول فالأول فدخل العباس وبنوه وسائر بني هاشم وفيهم أبو بكر. فلما فرغ الرجال جاء النساء. فلما فرغن جاء الصبيان. فلم ير الناس بعدُ بصلاة النساء على الجنائز بأساً.

○ وفي حديث عائشة:

ثم سجّوا عليه، وأدنوا الناس أرسالاً وهو في البيت، فجعلوا يصلون عليه حوله على غير إمام، ثم يستغفرون ويصلّون، ويُسلّمون، ولا يعجلهم أحد، ويدخل قوم، ويخرج آخرون عامّةَ يومه وليلته.

○ وعن ابن عباس قال:

كان رسول الله ﷺ موضوعاً على سريره من حين زاغت الشمس يوم الثلاثاء، فصلى الناس عليه، وسريره على شَفير قبره. فلما أرادوا أن يقبروه نحّوا السرير قِبَل رجليه فأُدخل من هناك. ودخل في حفرته العباس بن عبد المطلب، والفضل بن عباس، وقثم بن العباس، وعلي، وشقران.

○ وعن ابن أبي عُسَيْم قال:

لما قبض النبي ﷺ قالوا: كيف نصلي - يعني - عليه؟ قال: ادخلوا من هذا الباب أرسالاً أرسالاً، ثم صلوا عليه، واخرجوا من الباب الآخر. فلما وضع في لَحْده قال المغيرة بن شعبة: إنه قد بقي من قدميه شيء لم يصلح. قال: فادخل فأصلحه. قال: فدخل فمسّ قدم النبي ﷺ فقال: أهيلوا عليّ التراب فأهالوا عليه التراب، حتى بلغ أنصاف ساقيه ثم خرج فقال: أنا أحدثكم عهداً برسول الله ﷺ.

○ وعن سعيد بن المسيب

أن المسلمين لما أرادوا الصلاة على نبيهم ﷺ اجتمع رأيهم على أنه الإمام ولا إمام عليه. فدخل أبو بكر فكبر عليه[100] أربعاً، ثم دخل عمر فكبر عليه أربعاً، ثم دخل عثمان فكبر عليه أربعاً، ثم دخل طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام، ثم تتابع الناس أرسالاً، يكبرون عليه ولا إمام لهم عليه.

○ وقال ابن أبي حبيب:

إن علي بن أبي طالب أشار عليهم بذلك فقبلوه من قوله.

○ وفي حديث:

فلما صلي عليه نادى عمر: خلّوا الجنازة وأهلها.

○ وفي حديث أبي حازم المدني

أن النبي ﷺ حيث قبضه الله دخل المهاجرون فوجاً فوجاً يصلون عليه ويخرجون، ثم دخلت الأنصار على مثل ذلك، ثم دخل أهل المدينة، حتى إذا فرغت الرجال دخلت النساء، فكان منهن صوت وجزع كبعض ما يكون منهن، فسمعن هدّة في البيت، فَفَرِقْنَ فسكتْنَ فإذا قائل يقول: في الله عزاء عن كل هالك، وعوض من كل مصيبة، وخلف من كل ما فات، والمحبور من حَبَره الثواب، والمصاب من لم يحبُره الثواب.



○ قال موسى بن محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمي، قال:

وجدت هذا في صحيفة خط أبي فيها: لما كفّن رسول الله ﷺ ووضع على سريره دخل أبو بكر وعمر فقالا: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، ومعهما نفر من المهاجرين والأنصار قدر ما يسع البيت، فسلّموا كما سلّم أبو بكر وعمر، وصفّوا صفوفاً لا يؤمهم عليه أحد، فقال أبو بكر وعمر وهما في الصف الأول حيال رسول الله ﷺ: اللهم إنا نشهد أنْ قد بلّغ ما أنزل عليه، ونصح لأمته، وجاهد في سبيل الله حتى

أعزّ الله دينه، وتمّت كلماته، فأومن به وحده لا شريك له، فاجعلنا يا إلهنا ممن يتّبع القول الذي أنزل معه، واجمع بيننا وبينه حتى يعرفنا ونعرفه بنا فإنه كان بالمؤمنين رؤوفاً رحيماً. لا نبغي بالإيمان بدلاً، ولا نشتري به ثمناً أبداً، فيقول الناس: آمين، آمين ثم يخرجون، ويدخل آخرون حتى صلوا عليه: الرجال ثم النساء ثم الصبيان. فلما فرغوا من الصلاة تكلموا في موضع قبره.

○ وعن علي قال:

لما وضع رسول الله ﷺ على السرير قلت: لا يقوم عليه أحد هو إمامكم حياً وميتاً، فكان يدخل الناس رَسَلاً رَسَلاً فيصلون عليه صفاً صفاً ليس لهم إمام، ويكبرون وعليّ قائم حيال رسول الله ﷺ يقول: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، اللهم إنا نشهد أن قد بلّغ ما أنزل إليه، ونصح لأمته، وجاهد في سبيل الله حتى أعزّ الله دينه وتمت كلمته، اللهم فاجعلنا ممن يتّبع ما أنزل إليه وثبتنا بعده واجمع بيننا وبينه فيقول الناس: آمين، حتى صلى عليه الرجال ثم النساء ثم الصبيان.

○ وعن ابن عباس قال:

كان الذين نزلوا في قبر رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب، والفضل بن عباس، وقُثَم بن العباس وشقران مولى رسول الله ﷺ وقد قال[101] أوس بن خَوْليّ لعلي بن أبي طالب: يا عليّ أنشدك الله وحظنا من رسول الله ﷺ فقال له: انزل فنزل مع القوم فكانوا خمسة. وقد كان شقران حين وُضع رسول الله ﷺ في حفرته أخذ قطيفة قد كان رسول الله ﷺ يلبسها ويفترشها فدفنها معه في القبر. وقال: والله لا يلبسها أحد بعدك، فدفنت مع رسول الله ﷺ.

○ وعن ابن عباس:

دخل قبر النبي ﷺ عليّ والفضل وأسامة، وقيل إنهم أدخلوا عبد الرحمن بن عوف. قال: فكأني أنظر إليهم في القبر أربعة. قيل: هم العباس وعلي والفضل وعبد الرحمن. قال: وكان بعض الأخوال يدخل مع العمومة القبر. وقيل: هم العباس وعليّ والفضل وقُثَم.

○ وعن سعد

أنه قال في مرضه: إذا أنا متّ فالحَدوا لي لحداً. وفي رواية: وانصبوا عليّ اللَّبِن نصباً، قال: واصنعُوا بي مثلما صُنع برسول الله صلى الله عليه وآله.

○ وعن ابن عمر

أنه لُحد لرسول الله صلى الله عليه وآله ولأبي بكر ولعمر.

○ وعن أبي طلحة قال:

اختلفوا في الشقّ واللحد للنبي صلى الله عليه وآله فقال المهاجرون: شُقّوا كما يحفر لأهل مكة. وقالت الأنصار: الحَدوا كما نحفر بأرضنا، فلما اختلفوا في ذلك قالوا: اللهم خِر لنبيّك، وبعثوا إلى أبي عبيدة وإلى أبي طلحة فأيّهما جاء قبل الآخر فليعمل عليه. قال: فجاء أبو طلحة فقال: والله إني لأرجو أن يكون الله قد اختار لنبيه صلى الله عليه وآله. إنه كان يرى اللحد فيعجبه. قال: واختلفوا فقال قائل: بالبقيع فإنه كان يكثر الاستغفار لأهل البقيع وأصحابه، فادفنوه به. وقال قائل: ادفنوه عند قبره، وقال قائل: ادفنوه في مُصلاّه.

قال أبو بكر: إن عندي فيما تختلفون فيه علماً: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: ما مات نبيّ قطّ إلا دُفن حيث يُقبض، فخطّ حول الفراش ثم حوّل رسول الله صلى الله عليه وآله بالفراش في ناحية البيت. وحفر أبو طلحة القبر، فانتهى به إلى أصل الجدار إلى القبلة وجعل رأس رسول الله صلى الله عليه وآله مما يلي بابه الذي كان يخرج منه للصلاة.

○ وعن الحسن قال:

جُعل في قبر النبي صلى الله عليه وآله قطيفة حمراء كان أصابها في حنين. قال: جعلوها لأن المدينة أرض سبخة.

○ وعن سليمان بن موسى قال:

جعلوا في لحد رسول الله صلى الله عليه وآله تحته قطيفة بيضاء، كان يجعلها على رحله إذا سافر لتَقِيه سبخة المدينة، وبنوا عليه اللَّبِن بنياناً كبناء القباب، حتى لحق البناء بجدار القبر.



○ وعن حسن قال:

قال رسول الله ﷺ: **افرشوا لي قطيفتي في لحدي، فإن الأرض لم تسلط على أجساد الأنبياء.**

○ قالت عائشة:

ما علمنا بدفن رسول الله ﷺ حتى سمعنا صوت المساحي من جوف ليلة الأربعاء.

○ وعن أم سلمة قالت:

نحن نبكي على رسول الله ﷺ في بيوتنا، لم ننم ولم نسكن لرؤيته على السرير، فسمعنا صوت الكَرازين[102] في ليلة الثلاثاء. قالت أم سلمة: فصحنا فصاح أهل المسجد، فارتجت المدينة صيحة واحـــدة، وأذّن بـلال بالفجر، فلما بلغ ذكر النبي ﷺ بكى فانتحب، فزادنا حزناً، وعالج الناس الدخول إلى قبره. فغُلّق دونهم، فيا لها مصيبة. فما أُصبت بعده بمصيبة إلا هانت عليّ إذا ذكرتُ مصيبتنا به عليه السلام.



○ وعن القاسم بن محمد قال:

دخلت على عائشة فقلت: يا أماه، اكشفي لي عن قبر النبي ﷺ وصاحبيه، فكشفت لي عن ثلاثة قبور، لا مُشْرفة ولا لاطئة مبطوحة ببطحاء العَرْصة الحمراء. فرأيت رسول الله ﷺ مقدماً. وأبا بكر رأسه بين كتفي النبي ﷺ وعمر رأسه عند رجل النبي ﷺ.

وعن وَردان وكان بنى مسجد رسول الله ﷺ في إمرة عمر بن عبد العزيز على المدينة.

قال وَردان:

كان بيت عائشة سقط شقّه الشرقي. قال: فدُعيت فجئت إلى عمر بن عبد العزيز. قال وردان: فقلت له: إنا نخاف أن يغلبنا الناس على قبر النبي ﷺ، فأمرت بالعمد فأتيت بها، ثم أمرت بالصياصي فجعلت سُرادقاً عليه. فكان ذلك السُّرادق أول سُرادق رؤي بالمدينة، فسترت عليه. فلما أصبحنا قال لي عمر: ادخل يا وردان فدخلت وحـدي وأبناء المهاجرين والأنـصـار والعرب،

يتناولون ما أُخرج من التراب، حتى وصلت الجدار الذي كان فيه قدم عمر بن الخطاب. فلما رأيتها قلت: أيّها الأمير هذه قدم قد بدت لي فارتاع لها وارتاع مَن معه من قريش والأنصار والعرب فقال له سالم: أيها الأمير لم تُرَع، هذه قدم أبي وأبيك عمرِ بن الخطاب. سمعت ابن عمر يقول: كان رجلاً طُوالاً فضاق عنه اللحد فحفروا لقدميه في الجدار، فقال: غيّبهما رحمك الله يا وردان. قال وردان: فبنيت طامّاً على قدميه.

○ وعن محمد بن قيس قال:

انهدم الحائط الذي على قبر رسول الله ﷺ فرأيت قبره مرتفعاً من الأرض، وقبر أبي بكر وعمر. فقبر رسول الله ﷺ مقدم في القبلة. وقبر أبي بكر وراءه من قبل رأس النبي ﷺ، وقبر عمر وراء قبر النبي ﷺ من قبل رجليه بحذاء قبر أبي بكر. كأن رسول الله ﷺ إمام وهما خلفه.

○ وعن سفيان التمار قال:

رأيت قبر رسول الله ﷺ وقبر أبي بكر وقبر عمر مُسَنّمة.

وعن مالك بن إسماعيل قال: - أظنه - مولى لآل الزبير قال:

دخلت مع مصعب بن الزبير البيت الذي فيه قبر رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر فرأيت قبورهم مستطيلة.

○ وعن أبي بكر بن حفص بن عمر بن سعد قال:

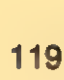
كانت قبر النبي ﷺ وأبي بكر وعمر مسنّمة، عليها نَقَل[١٠٣].

○ وقال القاسم بن محمد:

اطلعت وأنا صغير على القبور فرأيت عليها حصباء حمراء.

○ وعن موسى بن طلحة قال:

كان قبر النبي ﷺ، وقبور أهل أُحُد مُسنّمة. وقد كانوا يجمهرون[١٠٤]، وكان الجمهور من الناس يسنّمون، ثم الذين يلونهم الذين يجمهرون. وكان يربّع آخرون. وهم قليل.



ذكر موضع قبره واختلافهم في أمره

○ عن عائشة قالت:

[لمّا][105] قبض النبي ﷺ اختلفوا في دفنه فقال أبو بكر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **إن الله يقبض نبيه في أحب الأمكنة إليه.** فدفنوه حيث قبض.

○ وروت عَمرة بنت عبد الرحمن عن أمهات المؤمنين

أن أبا بكر يوم توفي رسول الله ﷺ قال: كيف نصنع بكفنه؟ فاجتمع رأيهم على أن كفنوه في ثلاثة أثواب سُحول ليس فيها قميص ولا عمامة، أدرج فيهن إدراجاً، بعضهن على بعض ثم قالوا: أين ندفنه؟ قال أبو بكر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **ما قبض الله نبياً إلا في خير الأرض له.** فدفنه تحت فراشه ثم قالوا: كيف نبني قبره نجعله مسجداً؟ قال أبو بكر: سمعت رسول الله ﷺ مرة يلعن قوماً اتخذوا من قبورهم مساجداً قالوا: كيف نحفر له؟ قال أبو بكر: إن من أهل المدينة رجلاً يَلحَد ومن أهل مكة رجلاً يشقّ، اللهم فأطلع علينا أحبّهما إليك أن يُعمل لنبيّك فأطلع أبو طلحة، وكان يلحد، فأمروه أن يلحد لرسول الله ﷺ ثم دفن. وكان صلاتهم عليه أن يُدخل عليه، فيصلون عليه عشرة لا يؤمهم عليه أحد، ثم نصبوا عليه اللّبِن، وكان فيمن نصب عليه اللبن المغيرة بن شعبة، فلما قيل: اصعدوا صعدوا. قال المغيرة: إن خاتمي في قبره سقط مني فاقتحم في القبر فنظر إلى نبي الله ﷺ من خللٍ تَركَه بين البنيان. وكان يقول: أنا أحدثكم عهداً

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾



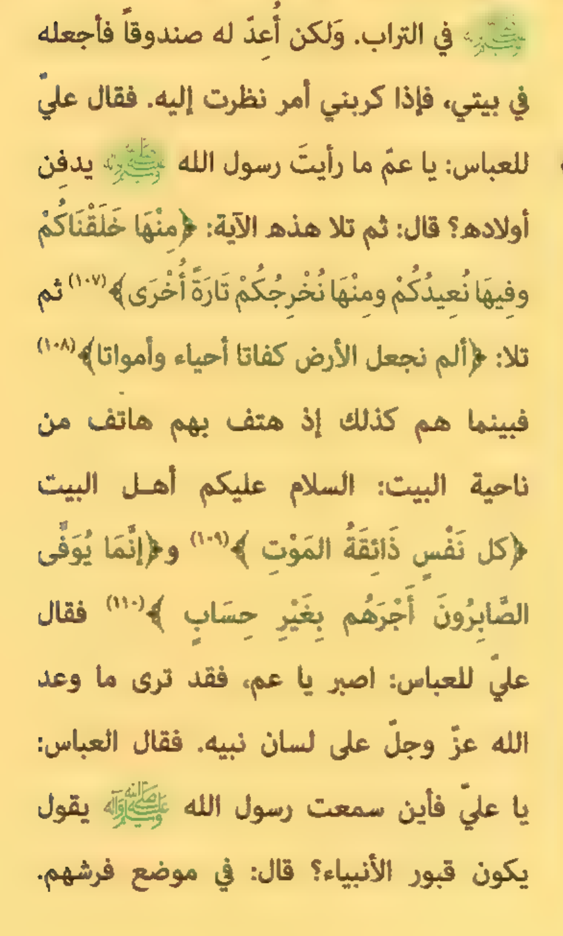
بنبيّ الله ﷺ.

○ وقال عبد العزيز بن أبي وَرّاد:

إنهم قالوا: ندفنه في بقيع الغَرْقَد. قال: يوشك عُوّاذ يعوذون بقبره من عبيدكم وإمائكم فلا تُعاذون. قال: فقال قائل: ادفِنوه في مسجده. فقالوا: وكيف وقد لَعن قوماً اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد؟! قالوا: نحمله إلى حرم الله وأمنه ومولده ودار قومه. قال: كيف تفعلون ذلك ولم يعهد إليكم عهداً؟ فأشار عليهم أبو بكر بدفنه في موضع فراشه، فقبلوا ذلك من رأيه.

○ وروى جعفر بن محمد عن أبيه عن جده:

أن علياً عليه السلام غسّل النبي ﷺ والعباس يصب الماء، والفضل بن العباس ينقل الماء، وأسامة وشقران يُجيفان[١٠٦] الباب. فلما فَرَغوا قال العباس - لحزنه على رسوله ﷺ -: لا أدفِن رسول الله ﷺ في التراب. وَلكن أُعِدّ له صندوقاً فأجعله في بيتي، فإذا كربني أمر نظرت إليه. فقال عليّ للعباس: يا عمّ ما رأيتَ رسول الله ﷺ يدفِن أولادهُ؟ قال: ثم تلا هذه الآية: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وفِيهَا نُعِيدُكُمْ ومِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾[١٠٧] ثم تلا: ﴿ألم نجعل الأرض كفاتا أحياء وأمواتا﴾[١٠٨] فبينما هم كذلك إذ هتف بهم هاتف من ناحية البيت: السلام عليكم أهل البيت ﴿كل نَفْسٍ ذَائِقَةُ المَوْتِ﴾[١٠٩] و﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[١١٠] فقال عليّ للعباس: اصبر يا عم، فقد ترى ما وعد الله عزّ وجلّ على لسان نبيه. فقال العباس: يا عليّ فأين سمعت رسول الله ﷺ يقول يكون قبور الأنبياء؟ قال: في موضع فرشهم.



قـال: فكفّنوه في قميصين أحدهما أرقّ من الآخر، وصلّى عليه العباس وعليّ صفاً واحداً. وكبّر عليه العباس خمساً، ودفنوه ﷺ.

○ وعن عائشة قالت:

رأيـت في حجرتي ثلاثة أقـمار، فأتيت أبـا بكر فقال: ما أوّلتِها؟ قلت: أوّلتها ولداً من رسول الله ﷺ فسكت أبو بكر حتى قبض النبي ﷺ فأتاها فقال: هذا خير أقمارك ذهب به، ثم كان أبو بكر وعمر. دفنوا جميعاً في بيتها.

باب من زار قبره بعد وفاته كمن زار حضرته قبل وفاته

○ عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ:

من حجّ بعد وفاتي وزار قبري كان كمن زارني في حياتي.

○ وعن حاطب قال: قال النبي ﷺ:

مَن زارنـي بعد موتي فكأنما زارني في حياتي. ومن مات في أحد الحرمين بُعث يوم القيامة من الآمنين.

○ وعن أنس بن مالك

أن رسـول الله ﷺ قـال: **مـن زارني بالمدينة محتسباً كنت له شفيعاً وشهيداً يوم القيامة.**

وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ

○ وعن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

مَن جاءني زائراً لم تَزَعه حاجة إلا زيارتي كان حقاً علي أن أكون له شفيعاً يوم القيامة.

○ وعن علي بن أبي طالب قال:

مَن سأل لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الدرجة و الوسيلة حلّت له شفاعتي يوم القيامة. ومن زار قبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان في جوار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

○ وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

مَن صلى عليّ عند قبري وكل الله بها ملَكاً يبلّغني، وكُفي أمر دنياه وآخرته. وكنت له شهيداً وشفيعاً. وفي رواية: **يوم القيامة.**

○ وعن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال:

مَن صلى عليّ عند قبري سمعتُه. ومَن صلى عليّ نائياً عنه أُبلغته. وفي رواية: من بعيد، أبلغته.

○ وعنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال:

ما من أحد يسلّم علي إلا ردّ الله عليّ روحي حتى أردّ عليه السلام.

○ وعن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

من رآني في المنام كان كمن رآني في حياتي. ومن زارني حتى

ينتهي إلى قبري كنت له يوم القيامة شهيداً. أو قال: شفيعاً.

○ وعن عليّ عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال:

لا تجعلوا قبري عيداً ولا بيوتكم قبوراً، وصلّوا علي وسلّموا حيثما كنتم، فإن صلاتكم وتسليمكم تبلغني حيثما كنتم.

○ وعن عليّ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

إن لله ملائكةً يَسبحُون في الأرض يُبلغوني صلاة مَنْ صلّى عليّ من أمتي.

○ وعن ابن عباس قال:

ليس أحد من أمة محمد صلى الله عليه وآله يصلّي عليه صلاةً إلا وهي تَبلُغه. يقول له الملَك: فلان يصلّي عليك كذا وكذا صلاة.

○ وعن كعب الأحبار قال:

ذكروا النبي صلى الله عليه وآله عند عائشة فقال كعب: ما مِن فجرٍ يطلع إلا هبط سبعون ألف مَلَك، يضربون القبر بأجنحتهم ويحفّون به، ويستغفرون له، وأحسبه قال: ويصلّون عليه حتى يُمسوا. فإذا أمسَوْا عرجوا ، وهبط سبعون ألف مَلَك، يضربون القبر بأجنحتهم، ويحفّون به، ويستغفرون له. قال: وأحسبه قال: ويصلّون عليه حتى يُصبحوا. فكذلك حتى تقوم الساعة، فإذا كان يوم القيامة خرج النبي صلى الله عليه وآله في سبعين ألف ملَك. وفي رواية: يزفّونه.

ذكر كيفية الصلاة عليه

○ عن ابن مسعود الأنصاري قال:

أتانا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ونحن في مجلس سعد بن عبادة، فقال له بشير بن سعد: أمرنا الله يا رسول الله أن نصلي عليك، فكيف نصلي عليك؟ قال: فسكت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) حتى تمنّينا أنه لم يسأله، فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): قولوا:

اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم. وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم في العالمين. إنك حميد مجيد. والسلام كما قد علمتم.

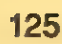
○ وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم):

من أحب أن يكتال بالمكيال الأوفى إذا صلى علينا أهل البيت فليقل: اللهم صل على محمد وأمهات المؤمنين وذريته وأهل بيته كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم. إنك حميد مجيد.

○ وعن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال:

لقيني كعب بن عُجْرة فقال: ألا أهدي لك هدية سمعتها من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)؟ قال: قلت: بلى. قال: فأهداها لي قال: سألنا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فقلنا: يا رسول الله، كيف الصلاة عليكم أهلَ البيت، فإن الله قد علّمنا كيف نسلّم؟ قال:

قولوا: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم، إنك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد وآل محمد كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم. إنك حميد مجيد.



○ وعن كعب بن عُجْرة قال:

لَّما نزلت: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾[111] فسألنا النبيَّ ﷺ عن الصلاة عليه

فقال: يعني: **قولوا: اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم، إنك حميد مجيد. وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم، إنك حميد مجيد.** قال: ونحن نقول: وعلينا معهم.

○ وعن بُريدة الأسلمي قال:

قلنا: يا رسول الله، أخبرنا كيف نصلي عليك فقد علّمتنا كيف نسلّم عليك. قال: **قولوا: اللهم اجعل صلواتك ورحمتك وبركاتك على محمد وعلى آل محمد كما جعلتها على إبراهيم. إنك حميد مجيد.**

○ وعن علي قال:

من صلّى على النبي ﷺ بهؤلاء الكلمات فقد صلّى عليه بصلاة جميع الخلائق. قال: يقول: صلوات الله وملائكته وأنبيائه ورسله وجميع خلقه على محمد وعلى آل محمد وعليه وعليهم السلام ورحمة الله وبركاته. قال: من صلّى عليه بهنّ كل يوم ثلاث مرات، ويوم الجمعة مئة مرة حُشر يوم القيامة في زمرة رسول الله ﷺ وأخذ رسول الله ﷺ بيده حتى يُدخله الجنة.

○ وعن سلامة الكندي قال:

كان عليّ يعلمنا الصلاة على النبي ﷺ:

اللهم داحي المدحوّات وبارئ المسموكات، وجبّار القلوب على فِطراتها، شقيّها وسعيدها، اجعل

وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ

شرائف صلواتك، ونوامي بركاتك، ورأفة تحننك على محمد عبدك ورسولك، الفاتح لما أغلق، والخاتم لما سبق، والمعلن للحقّ بالحقّ، والدامغ جَيْشات الأباطيل كما حُمّل، فاضطلع بأمرك لطاعتك، مستوفزاً في مرضاتك لغير نُكل في قُدُم، ولا وهي في عزم، واعياً لوحيك، حافظاً لعهدك، ماضياً على نفاذ أمرك حتى أورى قبساً لقابس آلاء الله، يصل بأهله أسبابه به، فهُديت القلوب بعد خَوْضات الفتن والإثم[112]، مُوضحات الأعلام، ونائرات الأحكام، ومنيرات الإسلام، فهو أمينك المأمون، وخازن علمك المخزون، وشهيدك يوم الدين وبعيثك نعمة، ورسولك بالحق رحمة. اللهم افسح له مَفسَحاً في علاك أو عَدَنك، وأجزه مضاعفات الخير من فضلك له، مهنئات غير مكدرات، من فوز ثوابك المحلول، وجزيل عطائك المغلول، اللهم أعلِ على بناء البانين بناءه، وأكرم مثواه لديك ونزلَه، وأتمّ له نوره، وأَجزه من ابتعاثك له مقبولَ الشهادة، مَرضيّ المقالة، ذا مَنطق عَدْل، وخطبة فَصْل، وبرهان عظيم.



○ وعن عبد الله بن مسعود:

إذا صليتم على رسول الله ﷺ فأحسنوا الصلاة عليه، فإنكم لا تدرون لعل ذلك يُعرض عليه. فقالوا له: علّمنا. قال: قولوا: اللهم اجعل صلواتك وبركاتك ورحمتك على سيد المرسلين، وإمام المتقين، وخاتم النبيين محمد عبدك ورسولك، إمام الخير وولد الخير، ورسول الرحمة. اللهم ابعثه مقاماً محموداً يغبطه به الأولون والآخرون. اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد كما صلّيت على إبراهيم وآل إبراهيم، إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميد مجيد.

ذكر ما أعده الله من الثواب لمن صلى عليه

○ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

من صلّى عليّ صلاةً واحدة صلى الله عليه عشراً.

○ وعن أنس بن مالك أن رسولَ الله ﷺ [قال] [١١٣]:

من ذُكرت عنده فليصلِّ عليّ مئة. من صلّى علي مرة صلى الله عليه عشراً.

○ وعنه عن النبي ﷺ قال:

من صلّى عليّ صلاةً صلى الله عليه عشر صلوات. وحُطّت عنه عشرُ خطيات. ورفع له عشر درجات.

○ وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ:

صلوا عليّ، فإن الصلاة عليّ كفّارة لكم، فمن صلّى عليّ صلّى الله عليه.

○ وعن أنس بن مالك قال:

دخلتُ على رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، ما رأيتك أسرّ وجهاً ولا أشرق لوناً منك اليوم. قال:

وما يمنعني وإنما خرج جبريل من عندي آنفاً؟ قال: يا محمد، من صلى عليك صلاةً واحدة كُتبت له بها عشرُ حسنات، ورُدّ عليه مثلُ ما صلّى عليك.

○ وعنه أن رسول الله ﷺ قال:

أتاني جبريل عليه السلام فقال: من صلى عليك صلاةً واحدة صلى الله عليه عشراً، ورفعه عشر درجات.

○ وعن أبي طلحة الأنصاري قال:

دخلت على رسول الله ﷺ فعرفت البِشر في وجهه فقلت له: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، ما رأيتك قطّ أحسنَ بِشراً منك اليوم. قال: **وما يمنعني وهذا المَلَك بعثه الله آنفاً إليّ وأومأ بيده يقول لي: يا محمد، أما يرضيك ألا يصلي عليك أحد من أمتك إلا صلّيتُ عليه أنا وملائكتي عشراً، ولا سلم عليك أحد من أمتك إلا سلمت أنا وملائكتي عليه عشراً؟**

○ وعن أبي طلحة قال:

دخلت على النبي ﷺ وأسارير وجهه تَبرُق فقلت: يا رسول الله، ما رأيتك أطيبَ نفساً ولا أظهرَ بِشراً منك في يومنا هذا، فقال: **وما لي لا تطيب نفسي ويظهر بِشري وإنما فارقني جبريل الساعة وقال: يا محمد، من صلّى عليك من أمتك صلاة كتب الله لها بها عشر حسنات، ومحى عنه عشر سيئات، ورفعه عشر درجات، وقال له المَلَك مثلما قال لك. قال: يا جبريل، وما ذاك المَلَك؟ قال: إن الله عزّ وجلّ وكل بك ملَكاً من لَدُن خَلَقك إلى أن يبعثك لا يصلّي عليك أحد إلا قال: وأنت صلّى الله عليك.**



○ وفي رواية:

وردّ الله عليه مثل قوله. وعرضت عليّ يوم القيامة.

○ وعن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

من صلّى عليّ في كل يوم جمعة أربعين مرة محى الله عنه ذنوب أربعين سنة. ومن صلّى علي مرة واحدة فتُقبِّلت منه محى الله عنه ذنوب ثمانين سنة. ومن قرأ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾[114] أربعين مرة حتى يختِم السورة بنى الله له مناراً في جسر جهنم حتى يجاوز الجسر.

○ وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

من صلى عليّ صلاة تعظيماً لحقّي جعل الله له من تلك الكلمة مَلَكاً، جناح له في المشرق وجناح له في المغرب، ورجلاه في تخوم الأرض وعنقه ملوي تحت العرش يقول الله له: صلِّ على عبدي كما صلّى على نبيّي، فيصلي عليه إلى يوم القيامة.

○ وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

يا أيها الناس، إنّ أنجاكم يوم القيامة مِن أهوالها ومواطنها أكثركم عليّ في دار الدنيا صلاة، إنه قد كان في الله وملائكته كفاية. إن الله قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا

وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَٰبِكُمْ

الَذينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وسَلِّمُوا تَسْليماً﴾[١١٥] **خصّ بذلك المؤمنين ليثبتهم عليه.**

○ وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

من صلّى عليّ كنت شفيعه يوم القيامة.

○ وعنه قال: قال رسول الله ﷺ:

من كتب عني علماً، وكتب معه صلاة عليّ لم يزل في أجْرٍ ما قُرئ ذلك الكتاب.

○ وعن علي بن أبي طالب عن أبي بكر الصديق أنه قال:

الصلاة على النبي ﷺ أمحق للذنوب من الماء للنار، والسلام على النبي ﷺ أفضلُ من عتق الرقاب. والزكاة على النبي ﷺ أفضل من مُهَج الأنفس في سبيل الله عزّ وجلّ، وحُب رسول الله ﷺ أفضلُ من ضَرْب البِيد في سبيل الله عزّ وجلّ.

○ وعن عبد الرحمن بن عوف قال:

كان لا يفارق رسول الله ﷺ منا خمسةٌ أو أربعةٌ من أصحاب النبي ﷺ لما ينوبه من الخروج بالليل والنهار. قال: فجئته وقد خرج، فاتبعته فدخل حائطاً من حيطان الأشراف، فصلّى فسجد، فأطال السجود. قلت: قبض الله روحه. قال: فرفع رأسه فدعاني فقال: **ما لك؟** فقلت: يا رسول الله، أطلت السجود، قلت: قبض الله روح رسوله، لا أراه أبداً. قال: **سجدت شكراً لربي فيما أبلاني في أمتي: من صلّى عليّ صلاة من أمتي كتبت له عشر حسنات، ومحي عنه عشر سيئات.**

○ وفي حديث آخر بمعناه:

من صلّى عليّ منهم صلاة كُتبت له بغير حساب.

○ وعن عبد الرحمن بن عوف

أن رسول الله ﷺ خرج يوماً وفي وجهه السرور فقال: إن جبريل عليه السلام جاءني فقال: ألا أبشرك يامحمد بما أعطاك الله من أمتك وما أعطى أمتك منك: من صلّى عليك منهم صلاة صلّى الله عليه، ومن سلّم عليك سلم الله عليه.

○ وعن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ:

إن أَوْلاكم بي يوم القيامة أكثركم عليّ صلاة.

○ وعن عامر بن ربيعة أن رسول الله ﷺ قال:

من صلّى عليّ صلاة صلّى الله عليه وملائكته، فليكثر عبدٌ أو ليقلّ.

○ وعن ابن عباس قال:

ليس أحد من أمة محمد ﷺ يصلّي عليّ صلاة إلا وهي تبلُغه. يقول له الملَك: فلان يصلّي عليك كذا وكذا صلاة.

○ وعنه قال: قال رسول الله ﷺ:

من صلّى عليّ في كتابٍ لم تزل الصلاة جاريةً له ما دام اسمي في ذلك الكتاب.

○ وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

من صلّى عليّ في كتابٍ لم تزل الملائكة تستغفر له ما دام اسمي في ذلك الكتاب.

○ وعنه قال: قال رسول الله ﷺ:

أكثِروا من الصلاة عليّ فإنها لكم زكاة، وإذا سألتُم الله

فسَلُوه لي الوسيلة، فإنها أرفع درجة في الجنة، وهي لرجل، وأنا أرجو أن أكون.

○ وعن الحسن بن علي بن أبي طالب قال:

قالوا: يا رسول الله، ما معنى قول الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾[116].

فقال ﷺ: إن هذا من المكتوم، ولولا أنكم سألتموني ما أخبرتكم، إن الله وكل بي ملكين، فلا أذكَر عند عبدٍ فيصلّي عليّ إلا قال الملَكانِ: غفرَ الله لك. وقال الله عزّ وجلّ؛ وملائكته جواباً للملكين: آمين. ولا أذكَر عند عبدٍ فلا يصلّي علي إلا قال الملَكان: لا غفر الله لك.



وقال الله عزّ وجلّ وملائكته جواباً للملَكين: آمين.

○ وعن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه سمع النبي ﷺ يقول:

إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثلما يقول، ثم صلّوا عليّ. فإن من صلّى - يعني: عليَّ - صلاة صلى الله عليه عشراً، ثم سلوا لي الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله. وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلّت عليه الشفاعة.

○ وعنه قال:

مَن صلّى على رسول الله ﷺ صلاة صلّى الله عليه وملائكته بها سبعين صلاة، فليقلّ مِن ذلك أو ليُكثِر.

○ وعن عمّار بن ياسر قال: قال رسول الله ﷺ:

إن الله أعطاني ملَكاً من الملائكة يقوم على قبري إذا أنا متّ، فلا يصلّي عليّ عبدٌ صلاةً إلا قال: يا محمد، فلان بن فلان يصلي عليك، يسميه باسمه واسم أبيه، فيصلي الله عليه مكانها عشراً.

○ وفي رواية

أن الله عزّ وجلّ أعطى ملَكاً من الملائكة أسماء الخلق، فهو قائم على قبري إلى يوم القيامة، لا يصلّي عليّ أحد صلاة إلا سماه باسمه واسم أبيه. وقال: يا محمد، صلّى عليك فلان بن فلان، وكفل لي الربّ أن أردّ عليه بكل صلاة عشراً.

○ وفي رواية

فيصلّي الربّ على ذلك الرجل بكل واحدة عشراً.

○ وعن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ:

لا تجعلوني كقدح الراكب.

قال: قيل: يا رسول الله، وما قدح الراكب؟ قال:

الراكب يملأ قدحه، فإن أراد أن يشرب منه شرب، وإن أراد أن يتوضأ توضأ منه وإلا أهراقه. اجعلوني في أول الدعاء وأوسطه وآخره.

○ وعن رويفع بن ثابت الأنصاري أن رسول الله ﷺ قال:

من صلّى على محمد فقال:

اللهم، أنزله المقعد المقرّب عندك يوم القيامة وجبت له شفاعتي.

○ قال محمد بن المكرم:

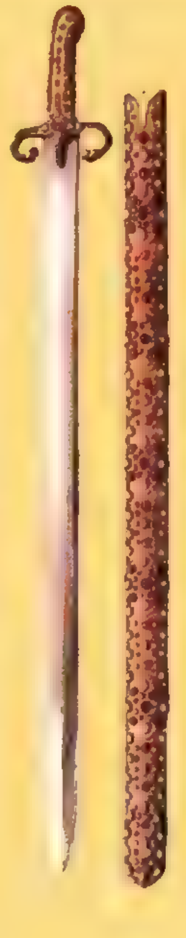
جامع هذا المختار هذا جدنا الذي ننتسب إليه رحمه الله.

○ وعن مصعب بن عمير الأنصاري عن أبيه وكان بدرياً قال: قال رسول الله ﷺ:

مَن صلّى عليّ من أمتي صلاةً مخلصاً من قلبه صلّى الله عليه بها عشر صلوات، ورفعه بها عشر درجات، وكتب له بها عشر حسنات. ومحى عنه بها عشر سيئات.

○ وعن أبي أمامة قال: قال رسول الله[١١٧] ﷺ:

أكثِروا عليّ من الصلاة في كل يوم جمعة، فإن صلاة أمتي تُعرَض عليّ في كلّ يومِ جمعة، فمن كان أكثرهم عليَّ صلاةً كان أقربَهم مني منزلة.



○ وعن أبي أمامة عن رسول الله ﷺ قال:

من ذُكرت عنده فلم يصلِّ علي خُطِيَ به يوم القيامة من الجنة إلى النار.

○ وعن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال:

لا يجلس قوم مجلساً لا يصلّون فيه على رسول الله إلا كان حسرةً، وإن دخلوا الجنة، لِما يرون من الثواب.

○ وعن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ:

ما من عبد صلّى عليّ صلاة

إلا عَرج بها ملاكٌ حتى يجيء بها وجهَ الرحمن فيقول: اذهبوا بها على قبر عبدي تستغفر لصاحبها وتقرّ بها عينه.

○ وعن عائشة قالت:

زيِّنوا مجالسكم بالصلاة على النبي ﷺ.

○ وعن وهب بن منبّه قال:

الصلاة على النبي ﷺ عبادة.

○ وعن الأصمعي[118] قال:

سمعت المهدي على منبر البصرة يقول: إن الله أمركم بأمرٍ بدأ فيه بنفسه وثنّى بملائكته فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾[119] أثرةً آثره الله بها من بين الرسل، واختصكم بها من بين الأمم، فقابلوا نعمة الله بالشكر.

○ وروى الواحدي[120] بسنده عن سهل بن محمد بن سليمان قال:



هذا التشريف الذي شرف الله تعالى به نبينا ﷺ بقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ[121] .. ﴾ أبلغ وأتمّ من تشريف آدم بأمر الملائكة بالسجود له، لأنه لا يجوز أن يكون الله تعالى مع الملائكة في ذلك التشريف، وقد أخبر تعالى عن نفسه بالصلاة على النبي ﷺ ثم عن الملائكة بالصلاة عليه. فتشريف صدر عنه أبلغ من تشريف تختص به الملائكة من غير جواز أن يكون الله معهم في ذلك.

○ قال الواحدي[122]:

وهذا الذي قاله سهل منتزع من قول المهدي، ولعله رآه ونظر إليه فأخذه منه وشرحه وقابَل ذلك بتشريف آدم فكان أبلغ وأتم منه.

وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ

الحواشي

(١) صحيح: رواه ابن هشام (٣٣٦/٢ و٣٦٨) عن ابن إسحاق بسنده الصحيح عن عائشة، ورواه الحاكم (٥٦/٣) من طريق أخرى عنها وصححها.

(٢) صحيح أخرجه ابن إسحاق عن عائشة بسنده السابق. وهو في البخاري (١١٥/٨ – ١١٦) ومسلم (٢١/٢-٢٢) نحوه.

(٣) ضعيف جداً أخرجه العقيلي في «الضعفاء» والبيهقي في الدلائل من طريق القاسم بن يزيد بن عبد الله بن قسيط عن أبيه عن عطاء عن ابن عباس عن أخيه الفضل. قال ابن المديني: عطاء هذا هو عندي عطاء بن يسار، وليس له أصل من حديث عطاء ابن أبي رباح؛ ولا عطاء بن يسار؛ وأخاف أن يكون عطاء الخراساني لأنه يرسل عن ابن عباس. قال الذهبي: قلت: «أخاف أن يكون كذباً مختلقاً» وقال الحافظ ابن كثير في التاريخ (٢٣١/٥) «وفي إسناده ومتنه غرابة شديدة».

(٤) صحيح، أخرجه البخاري (٩/٧ – ١٠، ١٨٣) والسياق له، ومسلم (١٠٨/٧) عن أبي سعيد؛ والرواية الأخرى عند ابن هشام (٣٦٩/٢) عن ابن إسحاق بسنده عن بعض آل أبي سعيد بن المعلّى. وهو ضعيف لجهالة هذا البعض، وقد رواه أحمد (٢١١/٤-٢١٢) من طريق ابن أبي المعلى عن أبيه. ورجاله ثقات غير الابن المذكور فلم أعرفه، وقد قال ابن كثير (٢٣٠/٥): «قالوا: صوابه أبو سعيد بن المعلى».

(٥) صحيح أخرجه البخاري (١١٦/٨-١١٧).

(٦) يشير إلى حديث ابن عباس مرفوعاً: هلموا أكتب لكم كتاباً... أخرجه البخاري (١١٠/٨).

(٧) صحيح، رواه البخاري (١٢١/٨) وغيره عن أنس.

(٨) صحيح رواه الترمذي (٣٥٠/٤) وحسّنه، وابن هشام (٣٧٠/٢).

(٩) صحيح رواه البخاري (١٢٠/٨) عن عائشة.

(١٠) ضعيف أخرجه الترمذي (١٢٨/٢) وغيره من طريق موسى بن سرجس عن القاسم بن محمد عن عائشة. وقال: «حديث غريب» يعني ضعيف لأن موسى هذا لم يوثقه أحد فهو مجهول.

(١١) صحيح أخرجه البخاري (١٣٠/٢) ومسلم (٢٠/٢-٢٤) عن عائشة.

(١٢) أخرجه الشيخان وغيرهما عن ابن مسعود.

(١٣) صحيح أخرجه ابن ماجه (١٥٥/٢) وأحمد (١١٧/٣) وغيرهما عن قتادة عن أنس، وفيه خلاف على قتادة بينه الحافظ ابن كثير في «البداية» (٢٣٨/٥-٢٣٩) وذكر عن البيهقي أنه قال: «والصحيح ما رواه عفان عن همان عن قتادة عن أبي الخليل عن سفينة عن

أم سلمة به» قلت: وهذا سند متصل صحيح. وله شاهد من حديث علي نحوه رواه ابن ماجه وأحمد (رقم ٥٨٥) وإسناده صحيح.

(١٤) صحيح أخرجه أحمد (٢٠٥٥، ٣٣٣٠، ٣٣٥٥) وابن ماجه (٣٧٣/١) من طريق أبي إسحاق عن الأرقم بن شرحبيل عن ابن عباس، ورجاله ثقات، لكن أعلّه البوصيري بأن أبا إسحاق - وهو السبيعي - اختلط بآخر عمره وكان مدلساً وقد رواه بالعنعنة. قلت: لكن تابعه عبد الله بن الشخير إلا أنه قال، عن ابن عباس عن العباس، فجعله من سند العباس وهذا اختلاف يسير لا يضر في صحة الحديث إن شاء الله، وقد رواه من هذا الوجه أحمد أيضاً (١٧٨٤، ١٧٨٥).

(١٥) صحيح أخرجه البخاري (١٣٠/٢-١٣١، ١١٧/٨) ومسلم (٢٤/٢-٢٥) وغيرهما من أنس بنحوه، ورواه ابن هشام (٣٧٠/٢-٣٧١) عن ابن إسحاق عن الزهري من أنس بلفظ الكتاب. وفيه انقطاع.

(١٦) هو من تمام حديث أنس عن ابن إسحاق.

(١٧) صحيح رواه ابن هشام (٣٧١/٢) عن ابن إسحاق بسنده الصحيح عنها وهو في البخاري (١٠٧/٨، ١١١-١١٢، ١١٣، ١١٧، ١١٨) ن٩وه مفرقاً.

(١٨) سورة آل عمران: ١٤٤.

(١٩) ابن كثير، المرجع السابق، ص٤٤٣-٤٤٤.

(٢٠) المرجع السابق، ص٤٤٦.

(٢١) المرجع السابق، ص٤٤٧.

(٢٢) المرجع السابق، ص٤٤٥.

(٢٣) المرجع السابق، ص٤٤٨.

(٢٤) المرجع السابق، ص٤٤٩.

(٢٥) المرجع السابق، ص٤٥٣.

(٢٦) المرجع السابق، ص٤٥٠.

(٢٧) المرجع السابق، ص٤٧٢.

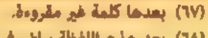
(٢٨) المرجع السابق، ص٤٧٦.

(٢٩) المرجع السابق، ص٤٧٠.

(٣٠) المرجع السابق، ص٤٧١.

(٣١) المرجع السابق، ص٤٧٣.

(٣٢) المرجع السابق، ص٤٥١.



(٣٣) المرجع السابق، ص٤٥٠.
(٣٤) المرجع السابق، ص٤٥٠.
(٣٥) ٤٥٢.
(٣٦) ٤٦٠.
(٣٧) ٤٥٦.
(٣٨) المرجع السابق، ص٤٧٤.
(٣٩) المرجع السابق، ص٤٧٤ أيضاً.
(٤٠) المرجع السابق، ص٤٧٧.
(٤١) المرجع السابق، ص٤٧٨.
(٤٢) المرجع السابق، ص٤٨١.
(٤٣) المرجع السابق، ص٤٨٢-٤٨٣.
(٤٤) المرجع السابق، ص٤٧٨.
(٤٥) المرجع السابق، ص٥٣٨.
(٤٦) المرجع السابق، ص٥٢٩.
(٤٧) المرجع السابق، ص٥٣٥.
(٤٨) المرجع السابق، ص٥٤٢.
(٤٩) سورة النصر ١١٠/١-٣.
(٥٠) سورة النصر ١١٠/١-٣.
(٥١) سورة النصر ١١٠/١-٣.
(٥٢) سورة النصر ١١٠/١-٣.
(٥٣) سورة الضحى ٩٣/٣.
(٥٤) أرمّ القوم: سكتوا وخافوا. النهاية: «رمم».
(٥٥) سورة الطلاق ٦٥/٢-٤.
(٥٦) سورة الطلاق ٦٥/٢-٤.
(٥٧) سورة الطلاق ٦٥/٢-٤.
(٥٨) سورة الأحزاب ٣٣/٧٠-٧٢.
(٥٩) سورة الأعراف ٧/١٢٨؛ وسورة القصص ٢٨/٨٣.
(٦٠) سورة الزمر ٣٩/٦٠.
(٦١) سورة الأحزاب ٣٣/٤٣.
(٦٢) ما بين الرقمين مستدرك في هامش الأصل.
(٦٣) استُعزّ به: أي اشتد به المرض وأشرف على الموت. اللسان: «عزز».
(٦٤) ينوء: ينهض. اللسان: «نوأ».
(٦٥) العلبة: قدح من خشب. وقيل من جلد وخشب. اللسان: «علب».
(٦٦) ما بين الرقمين مستدرك في هامش الأصل مقروناً بلفظة «صح».
(٦٧) بعدها كلمة غير مقروءة.
(٦٨) بعد هذه اللفظة بياض في الأصل بمقدار كلمة. وفي الهامش كتب حرف «ط».
(٦٩) زيدت اللفظة للسياق.
(٧٠) سورة آل عمران ٣/١٨٥.
(٧١) أي: أسمح. اللسان: «سلت».
(٧٢) سورة الأنبياء ٢١/٣٤، ٣٥
(٧٣) سورة آل عمران ٣/١٨٥.
(٧٤) سورة العصر ١٠٣/١-٢.
(٧٥) سورة محمد ٤٧/٣٢.
(٧٦) سورة الأنعام ٦/١٢٩.
(٧٧) السُّنح: موضع قرب المدينة. معجم البلدان.
(٧٨) سورة آل عمران ٣/١٤٤.
(٧٩) عقر: فجئه الرَّوْع فدهش فلم يقدر أن يتقدم أو يتأخر. اللسان: «عقر».
(٨٠) ما بين القوسين مستدرك في هامش الأصل، وما بين المعقوفتين كلام غير مقروء.
(٨١) لاث والتاث: أبطأ. اللسان: «لوث».
(٨٢) سورة الزمر ٣٩/٣٠.
(٨٣) سورة التوبة ٩/٤٠.
(٨٤) سورة التوبة ٩/٤٠.
(٨٥) ينجث هنا: يخرج. اللسان: «نجث».
(٨٦) مدر الحوض: أصلحه بالمَدَر أي قِطَع الطين اليابسة. اللسان: «مدر».
(٨٧) المساحي: ج مسحاة: المجرفة من حديد. اللسان: «مسح».
(٨٨) انظر مسند الإمام أحمد ١/٢٣٠.
(٨٩) اللحد: الشق الذي يكون في جانب القبر، والضريح: ما كان في وسطه. اللسان: «لحد، ضرح».
(٩٠) هي بئر بالمدينة كان النبي صلى الله عليه وسلم يستطيب ماءها. معجم البلدان.
(٩١) ثوب صُحاري: نسبة إلى صُحار، قرية باليمن. معجم البلدان. واللسان: «صحر».
(٩٢) هكذا وردت العبارة في الأصل، وهي مضطربة، وفي سيرة ابن كثير ٤/٥٢١: «... ودعا علياً والفضل، فكان إذا ذهب إلى الماء ليعاطيهما دعا أبا سفيان بن الحارث فأدخله».
(٩٣) باز عنه: حاد. اللسان: «بيز».
(٩٤) المجول: ثوب يثنى ويخاط من أحد شقيه. اللسان: «جول».
(٩٥) الإجنان: الدفن والستر والفعل أجنّه. اللسان: «جنن».



(٩٦) اللفظة مستدركة في هامش الأصل.
(٩٧) اليُمنة: ضرب من برود اليمن. اللسان: «يمن».
(٩٨) اللفظة مستدركة من هامش الأصل.
(٩٩) القباء من الثياب، الذي يلبس، مشتق من القَبْو لاجتماع أطرافه. اللسان: «قبو».
(١٠٠) اللفظة مستدركة في هامش الأصل.
(١٠١) ما بين الرقمين مستدرك في هامش الأصل، وبعده: «صح».
(١٠٢) الكرزن والكرزَن والكرزين: الفأس. والجمع كرازن وكرازين. اللسان والنهاية والقاموس: «كرزن».
(١٠٣) النَّقَل: صغار الحجارة أشباه الأثافي. النهاية واللسان: «نقل».
(١٠٤) جمهر القبر: جمع عليه التراب ولم يطينه. اللسان: «جمهر».
(١٠٥) موضع اللفظة بياض في الأصل، أتممناه من البداية ٣٦٦/٥.
(١٠٦) أجاف الباب: ردّه. اللسان: «جوف».
(١٠٧) سورة طه ٥٥/٢٠.
(١٠٨) سورة المرسلات ٢٥/٧٧، ٢٦.
(١٠٩) سورة آل عمران ١٨٥/٣ وسورة الأنبياء ٢ص٣٥/١ وسورة العنكبوت ٥٧/٢٩.
(١١٠) سورة الزمر ١٠/٣٩.
(١١١) سورة الأحزاب ٥٦/٣٣.
(١١٢) كذا في الأصل. وفي نهج البلاغة ١٣٧: «الفلق والآثام وأقام بموضحات الأعلام». ولعلها أفضل.
(١١٣) زيدت اللفظة للسياق.
(١١٤) سورة الإخلاص ١/١١٢.
(١١٥) سورة الأحزاب ٥٦/٣٣.
(١١٦) سورة الأحزاب ٥٦/٣٣.
(١١٧) لفظتا «رسول الله» مستدركتان في هامش الأصل.
(١١٨) الخبر في أسباب النزول ٢٤٣.
(١١٩) سورة الأحزاب ٥٦/٣٣.
(١٢٠) الخبر في أسباب النزول ٢٤٣.
(١٢١) سورة الأحزاب ٥٦/٣٣.
(١٢٢) الخبر في أسباب النزول ٢٤٣.


وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ
مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ
أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ

وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ
فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ
وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ







الفصل الخامس

الرسالة و الرسول

صلى الله عليه وآله وسلم



يا من له الأخلاق ما تهوى العلا
منها وما يتعشق الكبراء
زانتك في الخلق العظيم شمائل
يغرى بهن ويولع الكرماء
فإذا سخوت بلغت بالجود المدى
وفعلت ما لا تفعل الأنواء
وإذا عفوت فقادرا ومقدرا
لا يستهين بعفوك الجهلاء
وإذا رحمت فأنت أم أو أب
هذان في الدنيا هما الرحماء
وإذا غضبت فإنما هي غضبة
في الحق لا ضغن ولا بغضاء
وإذا رضيت فذاك في مرضاته
ورضا الكثير تحلم ورياء
وإذا خطبت فللمنابر هزة
تعرو الندي وللقلوب بكاء



راية النبي ﷺ التي سلمها لعلي رضي الله عنه يوم فتح خيبر

عالم الغيب:

إن الإيمان بالغيب يعني أن المؤمن لا يقتصر وعيه على العالم الفيزيائي المشهود، بل يعتقد بوجود عالم آخر غير مرئي هو عالم الغيب، وإليه يشير اصطلاح: «ما وراء الطبيعة» أو «الميتافيزيقيا» لكن الاصطلاح الفلسفي يظل غامضاً ومضطرباً أمام وضوح الاصطلاح الديني، فالمسلم يعتقد بوجود الله خالق الكون والحياة، وأنه يرسل رسلاً يوحي إليهم بالرسالات التي تنظم حياة الإنسان على الأرض، وتحدد القيم الأخلاقية المطلقة، وتجعل أتباعها يدينون لله بالعبودية، والعبودية لله لا تعني شل إرادة الإنسان ولا تقييد طاقاته، ولا إذلاله، بل هي منطلق لتحرره من عبادة المخلوقات إذ (لا إله إلا الله)، وهي تبصير له وتفتيح لوعيه على حقيقته وحقيقة الوجود، فلا يتضاءل فيحس بأنه ذرة في فلاة، لا أهمية لها ولا غاية، ولا يستعلي فيحس أنه «الإله الخالق» كما يعبر الماركسيون والماديون في القرن العشرين، وهم يحسبون أنهم بنفي «الله» وإثبات الخلق للإنسان يعلون من قدر الإنسان ويحررونه، ويجعلونه مصدر القيم النسبية المتغيرة في الزمان والمكان تبعاً لرقي الإنسان وتغيره المستمر. وبذلك يكلون الإنسان إلى نفسه وطاقاته، ويحرمونه من رعاية الله ونور رسالاته، ويكبتون روحه عندما يمنعونها من الاتصال بخالقها ويحصرونه في عالم ضيق مظلم هو عالم المادة. وقد وصف الله تعالى المؤمنين المتقين بأنهم يؤمنون بالغيب، فقال تعالى: ﴿الم (١) ذَلِكَ الكِتَابُ لا رَيْبَ فيه هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ...﴾[1].

وعالم الغيب الذي يؤمن به المتقون يشتمل على الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره من الله تعالى. ولا يسمى مؤمناً إلاّ من آمن بهذه العقيدة كاملة، فلا يسعه أن يؤمن ببعضها وينكر بعضها الآخر.

إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ

الأدبيات الإنسانية تركز على ذات الإنسان ، وعالمه المادي ، وتهمل إلى حد كبير قضية العلاقة مع الخالق والمصير المحتم

الإِســلام هو الدين الخاتم لرسالات الله تعالى إلى الإِنسان، وهو الرسالة الخالدة مدى الحياة، وهو يهدف إلى تبصير الإِنسان بخالقه وبذاته وبعالمه وبمصيره، في حين تسعى الأدبيات الإِنسانية من فلسفة وعلم اجتماع وانثروبولوجي ونفس وسياسة واقتصاد وأدب شعري ونثري قصصي ومسرحي إلى تبصير الإِنسان بذاته وعالمه فقط إلاّ تلك الأدبيات المتأثرة بالفكر الديني والمستوحية لرسالات الله فإنها تبصر الإِنسان بالخالق وبالمصير.

وفي عالم اليوم تركز الأدبيات الإِنسانية على ذات الإِنسان وعالمه المادي، وتهمل إلى حد كبير قضية المصير والعلاقة مع الخالق، وهو اتجاه محكوم بالفلسفات المادية التي لا تؤمن إلا بالمادة والمحسوس، والتي تنكر عالم الغيب وتتنكّر له، ولا ترى في المصير إلا العودة إلى تراب الأرض عودة نهائية ليس وراءها بعث ولا نشور ولا حساب ولا عقاب، ولا جنة ولا نار.

وهكذا عاش إنسان القرن العشرين داخل نفسه وداخل حدود العالم المادي الضيقة لا يضيء قبسُ الإِيمان إلاّ نفوساً قليلة، ولا يعيش تجارب الروح إلاّ عددٌ محدود، ولا يتطلع إلى الله وما عنده من رحمة ورضوان في الدنيا والآخرة إلاّ صفوةٌ من الخلق، وقليل ما هم.

إنّ الناظر في كتاب الله تعالى وسنّة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم يدرك أن الإِسلام أعطى مساحة واسعة من نصوصه للتعريف بالخالق عز وجل وما يحبه ويرضاه، وما يبغضه وينهى عنه، وبين الأمر والنهي الإلهيين تقع سياسات المجتمع والثروة، فتتحدد خصائص الدولة وقيم الاقتصاد وسنة الاجتماع، وتتضح علاقة الإِنسان بالإِنسان، والرجل بالمرأة. وهنا تبرز تفصيلات كثيرة دقيقة وجليلة لتحديد العلاقات الاجتماعية ضمن أحكام الشريعة التي تمثل إرادة الله تعالى في شؤون خلقه.

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِين مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾

لا بد للانسان من تربية تقوم على اصلاح الداخل وتوثيق الصلة بالله نظرا وعملا وفكرا وتطبيقا

ولكن ما الذي يدعو الإنسان إلى الوقوف عند أحكام الشرع، والتماس رضا الله والبحث عن مراداته ومنهياته؟

هل يكفي أن يعرف الإنسان عظمة الخالق وقدرته وكمال صفاته؟ وهل يكفي أن يطلع على أمره ونهيه ليلتزم بشرعه في شؤون حياته؟.

أم لا بد أن يتربى الإنسان وفق منهج معين يرتكز على توثيق الصلة بالله نظراً وعملاً، فكراً وتطبيقاً. ويقوم بالإشراف على هذه التربية أساتذة المنهج الرباني.

إن مطالعة التاريخ تبرز أن المنهج الإلهي تعاقب الأنبياء على تربية الناس وفقه، وهذا المنهج يتعامل مع النفس الإنسانية فيغرس فيها الخوف والرجاء، الخوف من الله تعالى وعقابه، والرجاء في رحمة الله ورضوانه ونيل ثوابه، وقد استقامت نفوس الملايين من البشر على العقيدة الصحيحة والسلوك الصالح عبر التاريخ عندما توازنت معاني الخوف والرجاء في نفوسهم.

منهج الانبياء في تربية الناس يقوم على الخوف والرجاء في الله سبحانه وتعالى

وعندما يستقيم الإنسان ويستبصر بالرؤية الإيمانية الصادقة فإن حياته ترقي حضارياً فيتوخى السلوك الراقي مع عالمه، يعاون الإنسان، ويرفق بالحيوان، ويحافظ على خيرات الأرض، ويمنع التلوث عن البيئة، ويرشد الاستهلاك، وينظم الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وفق معايير العدل والحق والمساواة والحرية والكرامة.

لا غرابة إذاً عندما يعطي الإسلام مساحة واسعة للتعريف بالخالق وعظمته وقدرته المطلقة، ولا غرابة حين يجعل منهجه التربوي يقوم أساساً على تكوين الإنسان الصالح بغرس التقوى ومعانيها في قلبه، وأداتا المنهج في تحقيق التقوى هما الخوف والرجاء، قال تعالى في وصف المؤمنين الصادقين: ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾[٣].

عندما يستقيم الانسان ويستبصر بالرؤية الايمانية الصادقة فإن حياته ترقى حضاريا إذ يتوخى السلوك الراقي مع عالمه «وعباد الرحمن الذين يمشون على الارض هونا» فعبوديتك للرحمن تمتد آثارها إلى الجماد ايضا

ووصف تقلبهم بين الخوف والرجاء في الآية: ﴿يُسَارِعُونَ فِي الخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾[٤]، وقال تعالى كاشفاً عن العلة في ثوابه: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾[٥].

وغرس الخوف من الله في قلب المؤمن إيجابي في ثمرته خلافاً للخوف من غير الله من قوى الطبيعة ومظاهر الكون، فإن الشجاعة في مواجهتها والإفادة من تسخيرها للإنسان، وذلك بإخضاعها لعلمه وصناعاته وإنتاجه. واجتناب الظن بأنها تملك قدرةً وإرادةً وتأثيراً على مجريات الأحداث في الحياة كما كان يظن قدامى اليونان عندما سيطرت عليهم أفكار التوهم والتخيل، فنسبوا لمظاهر الطبيعة صفات الألوهية، وعبدوها من دون الله، فللبحر إله، وللخصب إله، وللرعد إله وللعواصف إله، وللحب إله وللجمال إله، حتى إن الآلهة العديدة التي اعتقدوها سلبت الإنسان كل سلطان فما هو إلاّ ذرة في مهب الرياح الهوجاء لا قدرة له على الثبات والمواجهة، بل هو خاضع للحتميات القاهرة التي تفرضها إرادات الآلهة المتعارضة.

لقد جرد الإسلام الإنسان من خوف الطبيعة الصماء، ومن خوف الأحياء الضخمة والقوية، ومن خوفه من بعض بني جنسه، عندما وضح له حقيقة الأشياء، ومنعه من السقوط في عبودية غير الله. بل إن الخوف من الله تعالى عودل بالرجاء لئلا يسقط الإنسان فريسة القنوط والاكتئاب، ولئلا يشل الخوف طاقته، ويعطله عن العمل المثمر والإنتاج النافع، فكانت آيات الرجاء تبعث الأمل في نفوس المؤمنين وتدفع إلى العمل، وتقاوم اليأس بل تحرمه ﴿إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إلاَّ القَوْمُ الكَافِرُونَ﴾[٦].

لقد اهتم الإسلام بتوجيه أتباعه نحو التفكير التأملي في ظواهر الكون وقوانين الحياة، فملاحظة الظواهر الطبيعية ورصدها هي أولى مراحل التفكير العلمي المنظم.

اهتم الإسلام بتوجيه أتباعه نحو التفكير التأملي في ظواهر الكون وقوانين الحياة

قال تعالى: ﴿والشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ العَزِيزِ العَلِيمِ﴾(٧). وقد تبدو بعض الظواهر غامضة، لا تُعرف أسبابها وعللها، وقد يحاول الإنسان تعليلها تعليلاً عقلياً قد لا يُوفَّق فيه، ومن هنا فان الإسلام وهبه بعض القواعد والتفسيرات التي تعينه على فهم الكون والحياة، وتمنعه من الانحراف في تفسير ظواهر الكون والحياة تفسيراً يفسد عقيدة التوحيد، أو يقود إلى الخرافة والأساطير التي تعشعش في العقل وتحرفه عن التصور السليم، ومن هذا بادر رسول الله ﷺ لتصحيح تصور بعض الصحابة إزاء ظاهرتي الكسوف والخسوف، حيث اعتقدوا أن خسوف الشمس والقمر يتعلق بموت إبراهيم ابن الرسول ﷺ، فبيَّن لهم رسول الله ﷺ أن ظاهرتي الكسوف والخسوف علامتان وآيتان من آيات الله تشيران إلى إسلام الشمس والقمر لله بخضوعهما للقانون الفلكي الذي يحكمهما، وأن لا علاقة لما يحدث في الأفلاك وعالم النجوم بما يقع من أحداث إنسانية على الأرض، فقال عليه الصلاة والسلام: «**إن الشمس والقمر لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته ولكنهما آيتان من آيات الله فإذا رأيتموهما فصلوا**»(٨). وهكذا يظهر المؤمن سجوده لخالقه وخضوعه الإرادي لمن تخضع له السماوات والأرض طوعاً وكرهاً.

وبذلك وضع الإسلام حداً لكل ما يتعلق بعلم التنجيم القائم على تأثير الكواكب على أحداث الأرض، ومن ثم الإفادة من رصد الأفلاك في التنبؤ بأحداث المستقبل التي تقع للأفراد والجماعات.

وما أكثر المتشبثين بالتنجيم عبر تاريخ البشرية الطويل، بل وما أكثرهم في علام اليوم رغم انتشار الوعي والعلم، بل قد نجد من المثقفين والعلماء المتخصصين في علوم

صفاء عقيدتك ينجيك من براثن الدجل والكذابين

الطبيعة والفلك والرياضيات وأنواع العلوم الدقيقة من يتقبل عقله أفكار التنجيم والتنبؤ المستقبل. ويبدو أن الإنسان مستعد للتعامل مع عالم الغيب بطريقة بعيدة عن المنطق وقيم العلم مهما بلغ من مكانة في علوم الدنيا وأن العقيدة الإسلامية هي سبيل النجاة من الوقوع تحت تأثير الأساطير.

لقد حددت العقيدة الإسلامية مجالات الغيب التي أتاح الوحي الإلهي للإنسان التعرف عليها، وسدت ما سوى ذلك. فليس على الإنسان إلا التحرك الواعي في التعامل في «الغيب» من خلال نافذة الوحي الإلهي التي جعلته يطل على الإلهيات والروحانيات والسمعيات والنبوات دون أن يقع تحت سلطات الخرافات أو استغلال المشعوذين والسحرة.

يقول المفكر «كولن ولسن» في كتابه «الإنسان وقواه الخفية»: «لا تستطيع الحضارة أن تتقدم إلى أبعد مما وصلت إليه حتى يسلم الناس بقوى الغيب غير المنظورة تسليماً بديهياً على مستوى تسليمهم بالطاقة الذرية».

ولكن هذا المفكر يدعو إلى استخدام قوى الإنسان «الكامنة في لا وعيه» لإحداث الاتصال بعالم الغيب وهو ما يسميه بعلم السيطرة والاتصال - أو السيرناطيقا اصطلاحاً - والذي كشف عن حقيقة أن ثمة برمجة تتخلل الطبيعة بأسرها[9].

وبعد دراسة عميقة لكل مكتشفات علم السيرناطيقا قال ولسن - وهو فيلسوف وجودي بريطاني -: «قد اقنعتني - يعني الأدلة - بأن المزاعم الأساسية للنزعة الغيبية، هي مزاعم صحيحة، ويبدو لي أن حقيقة الحياة بعد الموت قد أصبحت قائمة بعيدة عن متناول أي شك معقول»[10].

إن العقول البشرية غالباً ما تتسم بالسذاجة ويسهل خداعها وغشها من قبل السحرة والمحتالين، ومن ثم فإن خواص العقل هذه جعلت الكثيرين من أبناء هذا القرن وبدافع الإحساس بالعقم والضجر اندفعوا نحو إحياء

عالم الغيب لا ينكشف للإنسان الا عن طريق الوحي الالهي . اما التعرف على القوى الكامنة في الانسان والكون فهو لا يدخل في دائرة الغيب

الاهتمام بالعالم الغامض وبالوسائل السحرية بعد أن ظن العلماء منذ القرن السادس عشر الميلادي أن عصر العقل قد بزغ وأن عهود السحر قد ولّت[11]. يقول كولن ولسن: «إن إنكلترا وأمريكا تضمان الآن أعداداً من السحرة تزيد على ما كان فيها منذ عصر الإصلاح»[12].

وهكذا فإن العلم والمدنية المعاصرة لم يتمكنا من تحرير عقل الإنسان من الخرافة والأساطير، أما الإسلام فقد قطع السبيل على المشعوذين منذ أربعة عشر قرناً، عندما قال ﷺ: **«الشمس والقمر لا يكسفان لموت أحد ولا لحياته، ولكنهما آيتان من آيات الله، فإذا رأيتموهما فصلوا»**[13].

وفهم الصحابة والتابعون المقصود وهو القطع بعدم تأثير النجوم في أحداث الناس والحياة، فقال قتادة السدوسي في تفسير الآية: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾: خلق - الله - هذه النجوم لثلاث؛ جعلها زينةً للسماء، ورجوماً للشياطين، وعلاماتٍ يُهتدى بها، فمن تأول بغير ذلك أخطأ وأضاع نصيبه وتكلف ما لا علم له به[14].

إن عالم الغيب لا ينكشف للإنسان إلا عن طريق الوحي الإلهي، أما التعرف على القوى الكامنة في الإنسان والكون فهو لا يدخل في دائرة الغيب. فالله وحده عالم الغيب والشهادة، أما الإنسان فمجال نشاطه عالم الشهادة، ولكن الله تعالى أطلعه على قدر من عالم الغيب يوسّع دائرة وعيه، ويَلزمه في حياته الوجدانية والعقلية، ويفسح له في وجوده الذي تحده المادة، وهكذا أرسل الله الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، لنقل القدر المناسب من المعرفة الغيبية للإنسان، وفقد ما حدده الله تعالى في وحيه لأنبيائه فليس للإنسان أن يطلب علم الغيب خارج دائرة الوحي، إذ ليس له أن يبدد قواه العقلية وطاقاته

نسيانك ربك خسارة لك . أول نتائجها : ضياع نفسك وشتات فكرك

فيما لا سبيل لها إليه، ومن هنا قال رسول الله ﷺ:
«يأتي الشيطان أحدكم فيقول: من خلق كذا؟ من خلق كذا؟ حتى يقول: من خلق ربك؟ فإذا بلغه فليستعذ بالله ولينته» رواه البخاري في صحيحه[15].

لقد جرّت محاولات الإنسان الذاتية أن يتصور الخالق إلى أنواع من التجسيم والتجسيد ومن هنا أمر الرسول الكريم ﷺ بعدم التفكير في ذات الله والانصراف إلى التفكير في المخلوقات الجامدة والحية، ومحاولة التوصل إلى قوانين المادة وأسرار الطبيعة، للإفادة من ذلك كله في بناء الحضارة، أما التعرّف على الله تعالى وصفاته وكيفية توحيده وعبادته فيتلقاه الإنسان عن الرسل الكرام، دون أن يجهد عقله في التصور أو الاستقراء أو الاستدلال، إلا ضمن دائرة الوحي الإلهي.

إنّ الإنسان المعاصر الذي يعيش في دائرة الحضارة الغربية امتلأ غروراً وعجباً، وصورت له الإمكانيات التكنولوجية الهائلة أنه قادر على الاستقلال بذاته، والاعتماد على تجاربه وعقله لإحراز العلم والمعرفة وتسخير الطبيعة والكشف عن أسرار الكون، وقد نسي ربّه في بهرج الانتصار العلمي، بل صوّر له الفلاسفة الوضعيون والوجوديون والبراجماتيكيون أنه الكائن الأول الذي تخضع له الموجودات الأخرى، وما عليه إلا أن يكتشف حريته ويثق بقدرته، وفي غمرة هذا التمويه الفكري سقط الإنسان في جاهلية القرن العشرين، وبدل أن يتحرر عاد ليسقط بفعل حاجاته النفسية والروحية في براثن السحر والشعوذة.

وسبيلُ النجاة من أزمة الإنسان المعاصر هو العودة إلى تعاليم الوحي الآلهي، والتعرف على الله وعالم الغيب من خلاله. وبذلك يحقق الإنسان وجوده المتكامل ولا يفقد شيئاً من طاقاته، وهو يندفع للكشف عن المجهول البعيد بوسائله الذاتية القاصرة.

كبت الروح ومنعها من التعرف على الله لن يولّد الا موت الانسان

إن كبت الروح ومنعها من التعرف على الله - الواحد الأحد الفرد الصمد - لن يولِّد إلا موت الإنسان وبقاء الجسد المادي الذي لا يفضل عن الحيوان، وهذا هو مصدر شقاء الإنسان المعاصر إنه لا يشعر باكتمال الحياة. قال ﷺ: «مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر مثل الحي والميت»(١٦).

وقد يرى بعض الفلاسفة والمفكرين أن تحديد العلاقة بالله أخذت حيزاً كبيراً في تعاليم الإسلام، وأن عالم اليوم قد اتجه إلى بحث العلاقات الاجتماعية وتحديد الحقوق والواجبات وأكد على حرية الإنسان وكرامته وتطلعاته نحو الرفاه والسعادة.

والحق إن الإسلام أكد على التوحيد وجعله محوراً للحياة، وأن أول العدل والوفاء أن يعدل المرء مع ربه وأن يفي له بحق الألوهية، ويجرد له العبادة. فإن لم يعدل مع الرب المُنعم المتفضل القادر على الحساب والثواب والعقاب فكيف يعدل مع أمثاله من البشر؟ وإن لم يتحرر من أوهام الشرك وخرافة الخضوع لقوى الطبيعة أو للآلهة المصنوعة أو للمعتقدات الخاطئة فكيف سيتحرر من الخضوع لطواغيت البشر وكيف يحقق ذاته، ويحافظ على حريته وكرامته اقتصادياً واجتماعياً وسياسياً؟

إن الموحِّد هو الرجل الحرُّ لأنه يعرف إن لا إله إلا الله، وأن لا أحد - كائناً من كان - يقدر على ضُره أو نفعه إلا بإذن الله.

وهكذا يعرف مكانه في الكون، ويعتز بدينه ونفسه، ويحقق الخير والحق والجمال، وقبل ذلك يحقق الغاية من وجوده.

ولن يقع المؤمن بالاغتراب الذي يصوره سارتر والبير كامي والوجوديون الآخرون، ولن ينتهي اغترابه إلى الإحساس بالضياع والتمزق والعبث، ولن يحتاج إلى إثبات حريته ووجوده بإنكار وجود الله والبعد عن سلطانه، فتلك رؤى فكرية قاصرة لا تخرج

إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ

همة المفكرين ينبغي ان تتوجه نحو فهم المضامين الفكرية والاجتماعية والسياسية والتربوية في الاسلام

عن حدود التجربة والمعاناة الإنسانية، مما يعبِّر عن خيبة الأمل وضياع اليقين، في حين يعيش المؤمن في رحاب واسعة ورؤى عريضة تقتبس من علم الله ونوره ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾[17].

ومهما حاول الفلاسفة والمصلحون أن يتخطوا هذا الطريق، طريق الإيمان بالله وتوحيده، وطرحوا برامج الإصلاح الاجتماعي في إطار الفلسفات المتنوعة البعيدة عن الله تعالى فإنهم لن يحققوا الصلاح المنشود، لأن التنكر لله تعالى لن ينجب إلا الشر ولن يزرع إلا الحقد، ولن يكون إلا شخصيات قلقة تفتقد مقومات الإنسان الصالح.

ولقد قَدَرَ الفلاسفة والمصلحون الله حقَّ قدره لعرفوا أن أو لوازم إصلاح الإنسان تعريفُه بالخالق عز وجل، وتوثيقُ صلته به بالعبادة والطاعة لأوامره ونواهيه، وأن مهمة المصلحين ليست في تشريع أديان جديدة، وتحديد رؤية للعالم والإنسان عن طريق النظر والاجتهاد، فإن حق التشريع لله وحده، ولا ينازعه فيه إلا ظالم جاحد ومتكبر جاف. قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[18].

وقال تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨) إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾[19].

إن همة المفكرين ينبغي أن تتوجه نحو فهم المضامين العقدية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والتربوية في الإسلام وتعميق هذا الفهم باستمرار، للوصول بالإنسان إلى الله تعالى وتحقيق سعادته في دنياه وآخرته.

الألوهية والربوبية:

ويرتكز نظام الاعتقاد في الإسلام على عقيدة الألوهية والربوبية استمع جبير ابن مطعم إلى رسول الله ﷺ يقرأ في المغرب بسورة الطور فلما بلغ هاتين الآيتين: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ والأَرْضَ بَل لاَّ يُوقِنُونَ﴾[٢٠] قال: جبير: «كاد قلبي أن يطير»[٢١].

فلماذا كاد قلب هذا الصحابي أن يطير عند سماع الآية؟ أليس لما فيها من بليغ الحجة على الخلق مما وعاه عقله واستشفته روحه؟ وكم من الناس يمرون على هذه الآية وغيرها فلا تحرك قلوبهم ولا تهز وجدانهم ولا تثير من المعاني ما أثارته في قلب هذا الصحابي الجليل.

لقد تأمل المفسرون في هذه الآية تأملات شتى فـ (أم) هنا ليست بمعنى (بل) وإنما هي للاستفهام، ولم يكن المشركون ينكرون أن الله خلقهم وخلق السماوات والأرض وأنهم ليسوا بخالقين، ولكنهم يغفلون ما يترتب على ذلك من توحيد الألوهية وهو مقتضى الاعتراف بالخالق ونعمه.

وقد لخص ابن تيمية أقوال المفسرين في الآية: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾ فقال: «من غير رب خلقهم، وقيل من غير مادة، وقيل من غير عاقبة وجزاء. والأول مراد قطعاً، فإن كل ما خلق من مادة أو لغاية فلابد له من خالق»[٢٢].

لقد جنح بعض فلاسفة القرن العشرين إلى القول بأن المادة هي الأصل الأول وأن «الإنسان يقوم وحده» لم يخلقه رب ولم يُحكمه إله، وهذا عنوان كتاب جوليان هكسلي الذي أنكر فيه وجود الله زاعماً أنه يعتمد على أدلة العلم. وقد نقض رأيه عالم آخر هو كريسي موريسون في مؤلفه المشهور (الإنسان لا يقوم وحده) الذي بين فيه بأدلة العلم الحديث نفسه أن الله خالق كل شيء.

العبادة شكر للخالق على نعمه وتفضله

وهذا يدل على أن الصراع بين الإيمان والإلحاد قديم وحديث وأن مقولة فيورباخ (لا إله والحياة مادة) ليست جديدة، وإنما هي ترديد لأقوال الدهريين القدامى والطبيعيين المحدثين، على أن هذه الآراء تصدعت منذ منتصف هذا القرن عندما تم الكشف عن حقيقة المادة، إذ تفجرت ذراتها، ودلت على أنها ليست «مادة» بالمعنى القديم بل هي طاقة سالبة وموجبة وهي في حالة حركة وليست ساكنة.

وبذلك أطل العلم الحديث على تصور جديد للمادة نفسها هدم به كل التصورات القديمة للدهريين القدامى والطبيعيين الجدد.

ولم يكن العرب المشركون الذين أخبر القرآن عن عقائدهم ينكرون أن الله تعالى هو خلقهم قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾(٢٣) كما أنهم ما كانوا ينكرون أن الله هو الذي خلق السماوات والأرض. قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾(٢٤).

بل لم يكونوا يجهلون بعض صفات الخالق مثل كونه عزيزاً عليماً. قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾(٢٥).

ولكن المشركين مع اعترافهم بالربوبية، فقد أشركوا معه غيره في العبودية، متجاهلين تفرده بالخلق، ومن هنا أنكر عليهم الله تعالى هذا الخلط الذي أفضى إلى صرف العبادة إلى من لا يستحقها، لأن العبادة شكر للخالق المنعم فمن ليس بمصدر للخلق وللنعم ولا يستحق العبادة، قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾(٢٦).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾(٢٧).

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾(٢٨).

وقال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾(٢٩).

وقال تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾(٣٠).

جميع ما في الكون يدل على وجود الله وعظمته

وبين ما هم فيه من تخليط، قال تعالى: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾[31]. فما دام الشركاء ليس لهم خلق فما مصدر التشابه والالتباس إذاً؟. إن التمايز بين الخالق الواحد والمخلوقات المتنوعة واضح، لا يقبل اللبس والخلط إلا عندما تختلُّ المقاييس وتعوجُّ الموازين وتنحرف الفطرة. فكل ما في السماوات والأرض مخلوق لله وحده. قال تعالى: ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ﴾[32]. إن وحدة واتساق نظام الكون والحياة في العالم المشهود دليل على صدوره عن أمر واحد وإرادة واحدة لا تُنازَع، ولولا ذلك لتفكك نظام الكون واختلت وحدتُه واضطرب تناسقه و﴿لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾[33].

قال تعالى: ﴿مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ﴾[34].

يقول كريسي موريسون: «إن وجود الخالق تدل عليه تنظيمات لا نهاية لها، تكون الحياة بدونها مستحيلة، وإن وجود الإنسان على ظهر الأرض، والمظاهر الفاخرة لذكائه، إنما هي جزء من برنامج ينفذه باريء الكون»[35]. ويقول: «إن الإنسان ليكسب مزيداً لا حدَّ له من التقدم الحسابي في كل وحدة للعلم، غير أن تحطيم ذرة - دالتون التي كانت تعد أصغر قالب في بناء الكون إلى مجموعة نجوم مكونة من جرم مذنب وإلكترون طائرة قد فتح مجالاً لتبديل فكرتنا عن الكون والحقيقة تبديلاً جوهرياً، ولم يعد التناسق الميت للذرات الجامدة يربط تصورنا بما هو مادي. وإن المعارف الجديدة التي كشف عنها العلم لتدع مجالاً لوجود مدبِّر جبار وراء ظواهر الطبيعة»[36]. ويقول ستانلي كونجدن: «إن جميع الكون يشهد على وجود الله سبحانه ويدل على قدرته وعظمته، وعندما نقوم نحن العلماء بتحليل ظواهر هذا الكون ودراستها حتى باستخدام الطريقة الاستدلالية، فإننا لا نفعل أكثر من ملاحظة آثار يدي الله وعظمته ذلك

آيات الله في كل مكان في النفس وفي كل ذرة من ذرات هذا الوجود

هو الله الذي لا نستطيع أن نصل إليه بالوسائل العلمية المادية وحدها، ولكننا نرى آياته في أنفسنا، وفي كل ذرة من ذرات هذا الوجود، وليست العلوم إلا دراسة خلق الله وآثار قدرته»[٣٧].

ويقول بول كلارنس: «إن الأمر الذي نستطيع أن نثق به كل الثقة هو أن الإنسان وهذا الوجود من حوله لم ينشأ هكذا نشأة ذاتية من العدم المطلق، بل أن لهما بداية، ولابد لكل بداية من مبديء، كما أننا نعرف أن هذا النظام الرائع المعتمد الذي يسود هذا الكون يخضع لقوانين لم يخلقها الإنسان، وأن معجزة الحياة في حد ذاتها لها بداية، كما أن وراءها توجيهاً وتدبيراً خارج دائرة الإنسان. إنها بداية مقدسة وتوجيه مقدس وتدبير إلهي محكم»[٣٨].

ويقول جورج أيول: «إن كل ذرة من ذرات هذا الكون تشهد بوجود الله، وإنها تدل على وجوده حتى دون حاجة إلى الاستدلال بأن الأشياء المادية تعجز عن خلق نفسها».

فهذه أقوال علماء الطبيعة الكبار في القرن العشرين تشهد بما قاله الله تعالى في كتابه المنزل على نبيه من أن وجود المخلوق يدل على وجود الخالق، وأن سبب الكفر يرجع إلى انعدام اليقين عند الكافرين لأن الله تعالى لم يكتب لهم الإيمان ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لاَّ يُوقِنُونَ﴾. قال الخطابي: «فذكر العلة التي عاقتهم عن الإيمان، وهي عدم اليقين الذي هو موهبة من الله عز وجل ولا ينال إلا بتوفيقه، ولهذا كان انزعاج جبير ابن مطعم حتى قال: كاد قلبي أن يطير والله أعلم»[٣٩].

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِين مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾

النبوات

الإيمان بسائر الأنبياء وأثره:

يهتم الإسلام بتوجيه أتباعه نحو النظرة الإنسانية الواسعة، ونحو استشراف التاريخ واختراق الجدران بين الثقافات والحضارات، والإفادة من الحصيلة الثقافية العالمية لخير المجتمع الإسلامي.

وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٨٤) وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[٤٠] يوضح القرآن عقيدة المسلمين في الإيمان الشامل بأنبياء الله وأمنائه على وحيه، فالدين في نظر المسلم واحد من لدن آدم عليه السلام وحتى محمد ﷺ وهو الإسلام، والإيمان بالأنبياء واجب حتى إن إنكار نبوة أحدهم تفضي بالمنكر إلى الردة عن الإسلام، بل إن تعاليم الأديان ومناسك العبادة أحياناً تبقى ثابتة، تشير عملياً إلى وحدة المصدر الإلهي لهذه الأديان جميعاً...

فعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: «أفاض جبريل بإبراهيم صلى الله عليهما، فصلى به بمنى الظهر والعصر، والمغرب والعشاء والفجر، ثم غدا من منى إلى عرفة، فصلى به الصلاتين: الظهر والعصر، ثم وقف له حتى غابت الشمس، ثم دفع حتى أتى المُزدلفة، فنزل بها فبات وصلى، ثم صلى كأعجل ما يصلى أحد من المسلمين، ثم وقف به كأبطأ ما يصلي أحد من المسلمين، ثم دفع منه إلى منى، فرمى وذبح، ثم أوحى الله تعالى إلى محمد أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان المشركين»[٤١]. وهو يدل على وحدة مناسك الحج في تعاليم إبراهيم ومحمد ﷺ، وهو مصداق قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا﴾[٤٢].

الدين في مصدره واحد ووجود الاختلاف مرده إلى الأهواء

إن التشابه وأحياناً التماثل بين الأديان في العقيدة خاصة ثم في بعض المناسك التعبدية والتشريعات الاجتماعية لا يبعث على الشك في صحتها، كما هو منحى بعض العلماء المعاصرين من الأنثروبولوجيين والمؤرخين، الذين يدرسون الدين على نفس منهجهم في دراسة الفولكلور والأساطير الشعبية، فهم يرصدون أوجهَ التماثل بين الديانة اللاحقة والديانة السابقة ليصلوا إلى نتيجة قد حددوها - خلافاً للمنهج العلمي - وهي أن الإسلام ليس مصدره الوحي الإلهي، بل هو نسيج من تعاليم سابقة بعضها استمد من التوراة مثل قصص الأنبياء، وبعضها من الإنجيل، وبعضها من القانون الروماني، وهكذا متناسين أن التماثل سببه وحدة المصدر الإلهي، وأثر الأديان السابقة في المجتمعات البشرية المتنوعة عبر التاريخ الإنساني، فهذا ما يتغافله الأنثروبولوجيون والمؤرخون، وبذلك يخونون الحقيقة عندما يغفلون هذا الوجه منها.

لقد حاول بعضهم ربط معاني الآيات القرآنية بالأساطير السومرية والبابلية والآشورية والفرعونية واليونانية والرومانية لإسقاط فكرة الوحي الآلهي، والقول بأن مصادر الدين - كما يثبتها العلم الذي يدعونه - هي الفولكلور والأساطير الشعبية وليس الوحي الآلهي[٤٣]. وبالطبع فليس العيب في علم الانثربولوجي - وهو علم الإنسان وبيئته الثقافية التاريخية - بل في التوجيه المنحرف الذي سعى اللادينيون لإقحام هذا العلم فيه تحقيقاً لأهداف عقدية بعيدة عن العلم المجرد ومتطلبات البحث العلمي، ومن هنا صار لزاماً على المؤمنين في هذا العصر أن يعيدوا لهذا العلم وجهته الصحيحة في الكشف عن فطرة الإنسان، وحقيقة الأديان، وصلة البشر بالخالق الرحيم الرحمن، مستشرفين التاريخ باحثٍ في جذور الحياة وأول الآثار، وعندما يقود العلم رجالٌ يتسمون بالوعي والتجرد فإنهم سيقلبون النتائجِ التي أعلنها اللادينيون من المتلبسين بثياب العلم زوراً وبهتاناً.

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾

لقد بين القرآن بوضوح التشابه بين الأديان ولم ينكره، فقال تعالى مخاطباً رسوله: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾[٤٤] فالقرآن تصديق لرسالات الأنبياء السابقين وليس نقيضاً لها.

وقد اختار الله تعالى الرسل الكرام من بين الناس، وجعلهم أئمةً يهدون العباد إلى توحيد الله وتحكيم شرائعه، وهم أمثلة عالية في عمل الخير وتنفيذ أوامر الله، لذلك فإن الإسلام ينظر إليهم بوصفهم أمثل الناس وأفضلهم وأعلاهم درجةً وقدراً، وأسماهم تصوراً وسلوكاً. كيف لا وقد اختارهم الله تعالى رسلاً ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾[٤٥].

وهو ﴿يَصْطَفِي مِنَ المَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ﴾[٤٦] لذلك فهم منزهون عن المعاصي، معصومون من الخطايا، ليصح الاقتداء بهم في سائر سلوكهم وجميع أحوالهم. قال تعالى: ﴿وجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الخَيْرَاتِ وإِقَامَ الصَّلاةِ وإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾[٤٧].

من أجل ذلك كانت صورة الأنبياء السابقين على محمد ﷺ في القرآن والسنة أمثل وأجل وأسمى من الصور التي ترسمها الكتب الدينية الأخرى كالتوراة – وشرحه التلمود – والإنجيل، لما نال الكتب الأخرى من تحريف على أيدي اتباعها.

والأنبياء أوحي إليهم بشرع دون أن يكلفوا بتبليغه، لكنهم يعملون بموجبه، وأما الرسل فأوحى إليهم بشرع وكُلِّفوا بتبليغه. وقد سمى القرآن منهم خمسة وعشرين رسولاً، وهم: آدم ونوح وإبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب وداود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وزكريا ويحيى وإدريس ويونس وهود وشعيب وصالح ولوط والياس واليسع وذو الكفل وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين[٤٨]. وهؤلاء الرسل يجب الإيمان برسالاتهم على تعيين أسمائهم وأشخاصهم، وإنكار واحد منهم كفر بصريح القرآن، وهم يتفاضلون، وأفضلهم أولو العزم من الرسل لشدة ابتلائهم وعظيم جهادهم:

أفضل المرسلين هو محمد ﷺ وهو بشر لم تكسبه الرسالة صفات الألوهية

نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد. قال تعالى ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾[49] وأفضل الرسل جميعاً محمد ﷺ كما في الحديث **«ما من نبي، آدم فمن سواه إلا تحت لوائي»**[50] ولا يتنافى هذا التفضيل مع قوله تعالى: ﴿لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾[51] لأن المراد عدم التفريق بالإيمان برسالاتهم جميعاً وليس في التفاضل بينهم. والأنبياء والمرسلون من البشر، لا يخرجون من البشرية بالوحي، بل هم يحافظون على طبيعتهم، وقد حرّف النصارى وحي الله، وخالفوا عيسى عليه السلام عندما أضفَوا عليه صفات الألوهية وقد بين القرآن بوضوح أن أفضل المرسلين محمد ﷺ هو بشر لم تكسبه الرسالة صفات الألوهية قال تعالى ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ﴾[52] فالوحي هو الذي يميز الرسول، ويكشف له الغيب، ويعرفه بالله وبصفاته وبأسمائه، وما يحب وما يكره، وبأوامره ونواهيه، وبشريعته التي يريد إنقاذها في الحياة، وبأسرار الخلق والأمر، والقضاء والقدر. ولم يكن الأنبياء من أرباب الفلسفات أو علماء الطبيعيات، ولم يكن علمهم كسباً، بل كان أفضل الأنبياء محمد ﷺ أمياً لا يحسن القراءة والكتابة.

ولم يكن الداخل على مجلس رسول الله ﷺ يميزه عن أصحابه من هيئته أو مكان جلوسه، بل كان الغريب يسأل عنه ليعرفه.. أخرج الدرامي قال العباس: يا رسول الله إني رأيتهم قد آذوك بغبارهم فلو اتخذت عريشاً تكلمهم منه؟ فقال: **«لا أزال بين أظهرهم يطأون عقبي، وينازعوني ردائي حتى يكون الله يريحني منهم»**[53].

وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ

لم يخلع النبي ﷺ على نفسه صفات الألوهية بل هو عبد الله

وأخرج الطبراني عن عبد الله بن جبير الخزاعي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يمشي في أناس من أصحابه فتستر بثوب، فلما رأى ظله رفع رأسه، فإذا بملاءة قد ستر بها فقال له: **مه!!** وأخذ الثوب فقال: «**إنما أنا مثلكم**»[٥٤].

وسئلت عائشة - رضي الله عنها - هل كان رسول الله ﷺ يعمل في بيته؟ قالت: نعم. كان يخصف نعله ويخيط ثوبه ويعمل في بيته كما يعمل أحدكم في بيته[٥٥].

فهذه صورة النبي في الإسلام، وهو أرفع البشر، له الحب والتوقير والدعاء، وله الدرجة الرفيعة، لكنه لا يتجاوز مقام العبودية والطاعة لله، ولا يخلع على نفسه صفات الألوهية، ولا يدعو الناس إلى عبادته، بل يدعوهم إلى عبادة الله وحده، ويجعل نفسه مثلهم الأعلى في عبادة الله وطاعته، وشعاره ﴿كُونُوا رَبَّانِيِّينَ﴾[٥٦].

وقد حرص الرسول الكريم ﷺ على التمييز بين الألوهية والنبوة، خاصة أن الأمم السابقة قد ألهت أنبياءها ولا شك أن تأليه الأنبياء لم يكن في حياتهم، بل بعد زمنهم بقليل أو كثير حيث تدخل المبالغات والأساطير إلى تاريخهم وسيرتهم، ويبالغ أتباعهم في أخبارهم، حتى يوصلوهم إلى مرحلة الألوهية، ويعبدوهم من دون الله، أو يشركوهم في عبادة الله. ومن هنا حذر رسول الله ﷺ أتباعه من تأليهه وأكد على صفاته البشرية. فقد «أتى النبي ﷺ رجلٌ، فكلَّمه، فجعل تَرعَدُ فرائصُهُ فقال: (**هوِّن عليك. فإني لستُ بمَلِك. إنما أنا ابن امرأةٍ تأكُلُ القَدِيد**)[٥٧]» وهذا تواضع منه عليه الصلاة والسلام، وهو الذي اختاره الله من خيار خلقه، وعصمه في نسبه وطهارة محتده؛ فكل آبائه وأمهاته من زواج صحيح.

رغم علو ومكانة وسمو خُلقه الشريف فإنه لم يتخط خصائص البشرية

ورغم علو مكانته وسمو خلقه وإشادة القرآن برفعته وعظمته فإنه لم يتخطّ خصائص البشرية، فهو يتألم كما يتألم البشر، بل إن آلامه تفوق آلامهم.

روى البخاري أنه ﷺ قال: (**إني أُوعَكُ كما يوعك رجلان منكم**)[٥٨]، ولما اشتد المرض عليه حين وفاته لاحظت فاطمة - بنتُهُ - ما كان يتغشّاه فكانت تقول: وا كرب أباه. فيقول لها مهدئاً: **ليس على أبيك كرب بعد اليوم**)[٥٩].

وكان يقول: (**إنا معشر الأنبياء يُضاعَفُ علينا البلاء**)[٦٠].

ولم يدع مناسبة إلا ويبينُ خصائصه البشرية التي لا تنفك عنه إلا في عصمة النبوة، روى الإمام مسلم عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (**اللهم إنما محمد بشر، يغضب كما يغضب البشر، وإني قد أخذت عندك عهداً لن تُخلفنيه، فأيما مؤمنٍ آذيتُهُ، أو سببتُهُ أو جلدتُهُ، فاجعلها له كفارةً وقربةً، تقرِّبُهُ بها إليك يوم القيامة**)[٦١].

وكما يطرأ عليه الغضب يطرأ عليه النسيان، فهو وإن كان الله قد رفع درجته فوق الخلق كلهم فإنه لم يبرئه من سمات الحَدَث ولم يُخله من الأعراض البشرية[٦٢]. قد سها في صلاته ونسي بعض العدد من ركعاتها حتى ذُكِّر بها ونُبِّه عليها.

شاور اصحابه . ونزل عند رأيهم وفي هذا تعليم منه ﷺ لنا

روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: صلى بنا رسول الله ﷺ إحدى صلاتي العَشِيِّ، فصلى بنا ركعتين ثم سلَّم، فقام إلى خشبة معروضة في المسجد فاتكأ عليها كأنَّه غضبان، ووضع يده اليمنى على اليسرى، وشبَّك بين أصابعه، ووضع خده الأيمن على ظهر كفه اليسرى، وخرجت السَّرْعانُ من أبواب المسجد فقالوا: قُصرت الصلاةُ، وفي القوم أبو بكر وعمر فهابا أن يكلِّماه، وفي القوم رجل في يديه طول يقال له ذو اليدين قال: يا رسول الله أنسيتَ أم قُصِرت الصلاة؟ قال: **لم أنسَ ولم تُقصر**، فقال: **أكما يقول ذو اليدين؟** فقالوا: نعم فتقدَّم فصلَّى ما ترك ثم سلم)[٦٣].

ولم تمنع نبوته ورفعةُ درجته أصحابه من مراجعته في الرأي حتى يعزم الله له، ففي صلح الحديبية راجع عمر بن الخطاب رسول الله ﷺ في موافقته على شروط الصلح فقال عمر - رضي الله عنه - «فأتيت نبيَّ الله ﷺ فقلت: ألستَ نبيَّ الله حقاً؟ قال: **بلى**، قلت: فلم نُعطي الدنيَّةَ في ديننا إذاً؟ قال: **إني رسول الله ولست أعصيه وهو ناصري**، قلت: أو ليس كنتَ تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به؟ قال: **بلى فأخبرتك أنك تأتيه العام؟** قلت: لا. قال: **فإنك آتيه ومطوف به**»[٦٤].

وكان عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - يراجع رسول الله ﷺ ليقف على الحكمة من موافقته على شروط الصلح، وكان يرغب في إذلال المشركين، «فجميع ما صدر منه كان معذوراً فيه بل هو مأجور لأنه مجتهد فيه»[٦٥].

كن عبداً شكوراً لربك واحرص على التزود فاللقاء قريب

ولم تقتصر المراجعة على أصحاب النبي ﷺ المقربين، ولا على أصحاب المسئولية في الدولة والمجتمع، بل إن النساء كنَّ يراجعنَهُ أيضاً. قال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -: «كنا معشر قريش نغلب النساء، فلما قدمنا على الأنصار إذا هم قوم تغلبهم نساؤهم، فطفق نساؤنا يأخذن من أدب نساء الأنصار، فصحتُ على امرأتي فراجعتني فأنكرت أن تراجعني! فقالت: ولم تُنكر أن أراجعك؟ فوالله إن أزواج النبي ليراجعنَهُ وإن إحداهن لتهجره اليوم حتى الليل فأفزعني ذلك فقلت: جاءت من فعلت ذلك منهن بعظيم، ثم جمعت عليَّ ثيابي فدخلت على حفصة فقلت: أي حفصة، أتغاضب إحداكن رسولَ الله حتى الليل، فقالت: نعم. فقلت: خبتِ وخسرتِ أفتأمنين أن يغضب الله لغضب رسوله. لا تستكثري على رسول الله، ولا تراجعيه في شيء ولا تهجريه وسليني ما بدا لك»[٦٦].

وكان رسول الله ﷺ يؤكد لأصحابه هذا المعنى، معنى بشريته، وأنه إنما يمتاز عليهم بالنبوة، ويحذرهم من فعل الأمم السابقة مع أنبيائهم عندما غلت فيهم فاتخذتهم آلهة مع الله سبحانه.

وإنما نهاهم عن المبالغة في مدحه خشية أن يجرَّ ذلك مع الأيام إلى إسباغ صفات الألوهية عليه كما حصل لمن أطرى عيسى ابن مريم من النصارى، وقد تمسك عليه الصلاة والسلام بصفة العبودية لله وصفة الرسالة، فهو عبد الله ورسوله، وفيه تتمثل العبودية الصادقة لله فهو أكثر البشر عبادة وطاعة وأشدهم التزاماً بتعاليم الرسالة.

عن المغيرة بن شعبة - رضي الله عنه -: «أن النبي ﷺ صلّى حتى انتفخت قدماه، فقيل له: أتُكَلِّفُ هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر»؟ فقال: «**أفلا أكون عبداً شكوراً**»[٦٧].

وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَٰبِكُمْ

من أعظم نعم الله سبحانه وتعالى أن هدانا لدينه وعرفنا بشرعه

إنَّ عبادة المصطفى ﷺ هي ثمرة إحساسه ﷺ بعظمة الخالق ونعمه الكثيرة عليه، وخاصةً ائتمناه على الرسالة الخاتمة التي حملها للعالمين.. والتي صارت بفضل الله ثم بفضل تبليغ الرسول لها أعظمَ نعم الله على العباد، فهي تتقدم سائر النعم الأخرى جليلها وصغيرها، فليس من نعمة أعظم من الهداية إلى معرفة الله الخالق، واستبانة طريقه المستقيم المفضي إلى النعيم المقيم. في الآخرة، وإلى الطمأنينة والراحة النفسية في الدنيا، حيث لم يعدي الإنسان بحاجة إلى طواف طويل وجهد عقلي كبير سعياً للوصول إلى الحق، وتعرفاً على الله، ووصولاً إلى الحق والخير والجمال. فكل ذلك جاءت به الرسالة الخاتمة التي حملها رسول الله ﷺ وبلغها لأصحابه رضوان الله عليهم، وهم بدورهم حملوها إلى أمم الأرض، وتوارثها الخلف عن السلف عبر القرون، فاهتدى بنورها ألوف الملايين من أهل الأرض.

إن نعم الله على الإنسان لا تعدُّ ولا تُحصى في روحه وعقله وبدنه، بحيث إن الإنسان الواحد يمتلك ثروة عظيمة جهّزه بها الخالق القدير في أعضائه المختلفة، ومن البدهي أن الإنسان صاحب هذه الأعضاء لا يرضى أن يستبدل أياً منها بالألوف المؤلفة من الدنانير والذهب والفضة، وهذا ينطبق على نعمة البصر والسمع والعقل، بل واليد والرجل.. وقد جاء الوقت الحاضر ليرى الناس جميعاً أن أعضاء البدن تقوم بالمال الكثير عندما يحتاج مريض إلى كلية أو غيرها.

إن النعم تحيط بالإنسان وتكتنفه لكن تعوُّده عليها ينسيه قيمتها، ولو فقد الإنسان شربة ماء ثم وجدها بالمال الكثير لدفعه لحيازتها، لكن كرم الخالق معه أن وهبه الماء والطعام والهواء وكل ما يلزم لحياته دون أن يطالب بشيء سوى العبادة التي تحقق غاية الوجود.

وكان رسول الله ﷺ يعبر عن إحساسه بكل معاني الإحسان الإلهي والتعهد الربانيٍ عندما يصلي حتى ترِمَ قدماه. (**أفلا أكون عبداً شكوراً؟**).

ختم النبوة وعموم الرسالة الإسلامية:

بُعث محمدٌ ﷺ رحمةً للعالمين، بعد أن ضاعت معالم الرسالات السماوية السابقة، وتحرفت تعاليمها، وخفت إشعاعها، وضعف أثرها في الحياة الإنسانية، فكانت رسالته تجديداً لدعوة التوحيد التي بُعث بها سائر الأنبياء والمرسلين، وتعديلاً للشرائع السابقة وإكمالاً لها، بعد أن ارتقت البشرية وتفتحت عقولها وتهيأت نفوسها لاستقبال الرسالة الخاتمة بكل جوانبها الروحية والاجتماعية، وقد أوضح المصطفى ﷺ أن رسالته إكمال لرسالات الأنبياء السابقين، قال تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾[٦٨].

وفي الحديث الشريف عن جابر - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: «**مثلي ومثل الأنبياء كمثل رجل بنى داراً فأتمَّها وأكملها إلا موضع لَبِنَة. فجعل الناس يدخلونها ويتعجبون منها ويقولون: لولا موضعُ اللَّبِنَة**».

قال رسول الله ﷺ: «**فأنا موضع اللبنة، جئت فختمتُ الأنبياء**»[٦٩].

والحديث يبين اكتمال الرسالة الخاتمة ووفاءَها بحاجات البشرية، مهما درجت في مراقي التقدم الحضاري ثقافةً وصناعةً، مما نص عليه القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً﴾[٧٠]، فالإسلام هو الدين الخاتم الذي لا دين بعده، ومحمد ﷺ هو الرسول الخاتم فلا نبيٌّ بعده، فهو الدين الذي ارتضاه الله للبشرية جمعاء

حتى قيام الساعة، وقد أمر الله أتباع الديانات الأخرى بالدخول فيه مبيناً لهم أن نسخَ الأديانَ كلها فلا يَقبل الله بعد بعثِ محمد ﷺ ديناً سواه.. قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾[٧١] وقال: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِينَ﴾[٧٢].

وقد أخذ الله العهد على جميع الأنبياء والرسل من قبله أن يؤمنوا به إذا أدركوا بعثته وأن ينصروه، لذلك فقد كانوا وأتباعهم على علم بصفاته حيث وردت في كتبهم المنزلة، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ المُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ..﴾[٧٣].

وقد اختار الله تعالى الاسم لأمته ﷺ فقال تعالى: ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ المُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾[٧٤] فمن الخطأ تسمية المسلمين بغير الاسم قياساً على أتباع الديانات الأخرى، كما يفعل المستشرقون فيطلقون اسم (المحمدية) على (الإسلام)، واسم (المحمديين) على المسلمين، وينبغي للمسلم أن يجهر بإسلامه ويعلنه ويعتز به كما في القرآن.. ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ المُسْلِمِينَ﴾[٧٥].

ومحمد ﷺ هو أول المسلمين من هذه الأمة، وهو أولى بالأنبياء من أتباعهم الذين حرفوا تعاليمهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾[٧٦].

وقال ﷺ: «**أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الدنيا والآخرة**»[٧٧].

وقال ليهود: «**أنا أولى بموسى منكم**»[٧٨].

راية التوحيد لا تعترف بالطبقية أو العنصرية أو التمايز

وبما أن الرسالة الخاتمة امتدت بآفاقها الرحيبة إلى الماضي، فاعترفت برسالات الأنبياء السابقين في التاريخ، فإنها اختصت بعمومها فهي لسائر البشر وليست خاصة بقوم معينين وهي دين الحاضر والمستقبل قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾[79].

وقال ﷺ: «وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثتُ إلى الناس عامة»[80] وفي رواية مسلم «وأرسلت إلى الخلق كافةوختم بي النبيون»[81]. فالرسالة الخاتمة دعوة لوحدة الإنسانية تحت راية التوحيد لا تعترف بالطبقية، ولا بالعنصرية، ولا باختلاف اللون والعرق واللغة، بل هي تتجاوز كل ذلك تحقيقاً للمساواة التامة بين البشر، وتوحيداً لموكب الإيمان في طريقه إلى الله.

ونظراً لأن رسالة محمد ﷺ عامة، تمتد في المكان لتشمل المعمورة، وفي الزمان لتستغرق ما بقي من تاريخ الإنسان، فقد تكفل الله بحفظها من التحريف والتبديل والضياع، وهكذا حفظ كتاب الله الخالد «القرآن الكريم» وحفظت سنة المصطفى ﷺ منذ أربعة عشر قرناً، فصار بوسع الأجيال المتلاحقة أن تعرف حقيقة الإسلام وتفاصيل العقيدة والشريعة كما عرفتها الأجيال الأولى دون اختلاف.

قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[82].

ومعجزة الرسالة الإسلامية الخالدة هي القرآن الكريم، فهي معجزة دائمة باقية، ظاهرة الإعجاز في كل زمان ومكان، وكانت رسالات الأنبياء من قبله موقوتةً محدودة بالزمان والمكان، فكانت معجزاتهم حسية تهدف إلى قهر وتعجيز من يحضرها في حينها، ويشهدها عند حدوثها، كما هو ظاهر من معجزات موسى عليه السلام حين ضرب البحر بعصاه فانفتح أمامه طرق العبور وسط الماء، وكما هي معجزات عيسى عليه السلام حين يبريء الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله..

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾

الإيمان يقطع الطريق على كل فكر سلبي يدعو للإبقاء على الأوضاع الظالمة وعلى الشر والفساد

فمن لم يشهد هذه المعجزات فإنه لا يذعن للحق ولا يتبع النبي.. أما معجزة الرسول الكريم فكانت معجزة خالدة لخلود الرسالة، باقية - بحفظ الله - بقاء الحياة تذعن لها العقول المستنيرة والقلوب الواعية في كل زمان ومكان، ويتذوق بيانها وبلاغتها الفصحاءُ والبلغاء، فهي معجزة بيانية بلاغية تحدت العرب وقت النزول وبعده، وهم أمة البيان، فعجزوا عن إجابة التحدي عبر العصور[٨٣].

وقد أشار المصطفى ﷺ إلى اختلاف معجزته عن معجزات الأنبياء من قبله فقال: (**ما من الأنبياء من نبي إلا قد أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر وإنما الذي أوتيت وحياً أوحى الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة**)[٨٤].

وقد كثر أتباع الرسول ﷺ على مر القرون حتى بلغوا في الوقت الحاضر ربع سكان المعمورة، ولو أنهم التزموا بتعاليم النبي الكريم في عقائدهم وسلوكهم ونظمهم، وأدركوا مسؤوليتهم في الدعوة إلى دين الله لفتح الله عليهم بركاتٍ من السماء والأرض، ولحققوا السعادة لأنفسهم في الدنيا ونالوا مغفرة الله ورضوانه في الآخرة.

لقد قطع الإسلام بختم النبوات بنبوة محمد ﷺ الطريق أمام أدعياء النبوة، وضيَّقَ مسالك نشر دعواتهم الباطلة بأن هيأ الأذهان لعدم قبولها، وكذلك قطع الطريق على الأفكار السلبية التي تدعو للإبقاء على الأوضاع الظالمة وعلى الشر والفساد لحين ظهور نبي مرسل أو إمام منتظر. فلم يبق أمام المسلمين إلا العمل الدائب وفق هدي النبي محمد ﷺ دون انتظار لوحي جديد.

القرآن معجزة الرسول الخالدة:

القرآن هو كتاب الله المنزل على نبيه لفظاً ومعنى، وهو قطعي الثبوت لتواتر نقله، ولوعد الله بحفظه.

ولم يكن النبي ﷺ يعرف الكتاب ولا الإيمان قبل أن يوحى إليه القرآن الذي جعله الله تعلى نوراً يهدي به عباده إلى الصراط المستقيم. قال تعالى: ﴿ولَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(٨٥).

وقد سئل ابن مسعود رضي الله عنه: ما الصراط المستقيم؟ قال: تركنا محمد ﷺ في أدناه، وطرفه في الجنة، وعن يمينه جواد، وعن يساره جواد، وثم رجال يدعون من مرّ بهم، فمن أخذ في تلك الجواد انتهت به إلى النار، ومن أخذ على الصراط المستقيم انتهى به إلى الجنة، ثم قرأ ابن مسعود ﴿وأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ ولا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾(٨٦).

وتدلنا رواية أحمد والنسائي على أن عبد الله بن مسعود تعلم هذا التعريف للصراط المستقيم من رسول الله ﷺ، فقد قال ابن مسعود: خطَّ لنا رسول الله ﷺ خطاً ثم قال: **هذا سبيل الله.** ثم خطَّ خطوطاً عن يمينه وعن شماله وقال: **هذه سبل، على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه**، وقرأ: ﴿وأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ ولا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾.

ومعنى كلام ابن مسعود أن النبي ﷺ ترك أصحابه بعد أن أخذ بأيديهم إلى طرف الطريق المُفضية إلى الجنة، فتركهم على المحجة البيضاء والسنة الزهراء، لكن هذه الطريق تحتاج إلى الاستقامة عليها حتى النهاية، وعدم سلوك أية جادة مما يتشعب عنها نتيجة الإفراط والمبالغة والتعمق، أو نتيجة التفريط ورقّة الدين واتّباع الهوى حيث يحاول

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾

طريق السنة هو أقصر الطرق إلى الجنة

أهل الأهواء دعوتهم وإغراءَهم بسلوك الطرق المتفرقة والشاذَة التي تبعد بهم عن الجنة، فطريق السنة هو أقصر الطرق إلى الجنة.

والوحي: بمعنى، الإيماء، وهو لغة: الإعلام بالشيء سراً، وشرعاً هو الإعلام بالشرع وهو خاص بتعليم الله للأنبياء بواسطة مَلَك، أو بدون واسطة إما بإلقاء المعنى في النفس وهو الإلهام، وإما بالكلام من وراء حجاب أي بدون رؤية كما حدث لموسى - عليه السلام -.

وكان الرسول ﷺ يشاهد جبريل - عليه السلام - إما على صورته الحقيقية وهذا نادر، وإما متمثلاً في صورة بشر فيكلمه فيعي ما يقول، وهو أيسر الوحي عليه، وتارةً لا يراه بل يسمع عند قدومه دويّاً وصلصلةً شديدة، فيدرك من عنده من الصحابة أنه يوحى إليه بثقل بدنه وتفصد جبينه عرقاً، وأحياناً بسماع دوي كدويِّ النَّحل عند وجهه، وكان ﷺ يسمع صلصلة الجرس ويجدُ من ذلك شدةً، فإذا قضى جبريلُ رسالةَ ربه عاد النبي ﷺ إلى حالته العادية، ونظراً لحب النبي ﷺ حفظَ القرآن ولشدة الوحي عليه من ناحية أخرى، فإنه كان ينازع جبريل القراءة ولا يصبر حتى يُتمَّها مسارعةً إلى الحفظ لئلا ينفلت منه شيء، فنزل قوله تعالى: ﴿لا تُحَرِّكْ به لسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وقُرْآنَهُ﴾[٨٧].

أخرج البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها: «أول ما بديء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح»[٨٨].

ويدل حديث عائشة - رضي الله عنها - على أن الرؤيا الصادقة للنبي ﷺ كانت وحياً، وكانت أول الوحي إيناساً للرسول ﷺ فهي أخف وقعاً على نفسه البشرية كما أنها تهيئه لتلقي شدائد الوحي في اليقظة.

والوحي الإلهي نظير الوحي إلى الأنبياء قبله لا تباين فيه. قال تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ والنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾.

وكان رسول الله ﷺ قد حَبَّب الله إليه العزلة في غار حراء يتعبد متبعاً الحنيفية، وهي دين إبراهيم عليه السلام، فيبقى في الغار مدة شهر، ثم يرجع إلى أهله ليتزود بالطعام أخذاً بالأسباب، وقد تكررت خلوته في غار حراء حتى جاءه الوحي وهو في الغار معتكفاً في شهر رمضان، وقد طلب منه المَلَك أن يقرأ. فأجاب: ما أنا بقارئ، إذ كان رسول الله ﷺ أمياً لا يقرأ. والأُمية من دلائل معجزته، وأبعد الله تعالى بها عنه شبهةَ الأخذ عن الكتب السابقة، فأمسك به الملكُ وضمَّه ضماً شديداً مكرراً طلبه منه أن يقرأ. ثم أوضح له أن يقرأ عن ظهر الغيب لشيء لم يسبق له حفظه، بل يتعلمه في الآن بأمر الله، وهي الآيات الخمس من صدر سورة العلق - وهي أول ما نزل من القرآن على الإطلاق، ونزل باقي سورة العلق بعد ذلك بسنين، وأما أول سورة نزلت بتمامها فهي الفاتحة على المشهور - فرجع النبي ﷺ بهذه الآيات الخمس يرتجف قلبه فطلب من زوجه أن تدثره، ففعلت حتى ذهب عنه الفزع، وأخبرها بالخبر، ولم يكن ذلك عن شك بما أوحي إليه، بل للمفاجأة التي لم يكن يتوقعها، ولما أبدى لخديجة رضي الله عنها خشيته أقسمت له أن الله لا يعرِّضه للذل والهوان والفضيحة، وذكَّرته بحسن أخلاقه، فهو يصل الرحم ببرِّ أقربائه والإحسان إليهم، ويعين المحتاج، وينال معالي الأمور والسبق إلى المكرمات، ويقرى الضيف، ويعين صاحب الحق على بلوغه فمن كان هذا شأنه لا يخزيه الله بل يرفعه مكاناً علياً. ثم إن خديجة انطلقت به إلى ورقة بن نوفل، وكان نصرانياً عالماً بالعربية والعبرية، وله اطلاع على التوراة والإنجيل حيث كان متمكناً من نقل التوراة من العبرية إلى العربية، وكان شيخاً قد صقلته التجارب والنظر في الكتب، فلما

وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَٰبِكُمْ

سمع من النبي ﷺ خبر ما رأى أدرك حقيقة الأمر فصرّح بأنه وحيٌ مثل الوحي الذي تلقاه موسى عليه السلام وتمنّى ورقة لو عاد شاباً ليتمكن من نصرة النبي ﷺ على قومه حين يخرجوه من مكة، ثم أدرك استحالة ذلك لشيخوخته فتمنى لو يدرك ذلك اليوم فقط، واستغرب النبي ﷺ من كلام ورقة فقومُهُ يحبّونه وينادونه بالصادق الأمين فكيف يخرجونه من بلدها!، فسأل ورقة: أو مخرجيٌ هم؟ فبيّن ورقة: أن هذه هي سنة الحياة، فما من نبي دعا قومه إلى نبذ الجاهلية وتوحيد الله بالعبادة والطاعة إلا عادَوه، وآذَوه.. وتوفي ورقة.. وانقطع الوحي فترة - قال الشعبي إنها سنتان ونصف السنة - وحزن النبي ﷺ على انقطاعه حتى عاوده الوحي آمراً له بالدعوة والإنذار ﴿يَا أَيُّهَا المُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ (٢) ورَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) والرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾. وكان ذلك في بيت خديجة - رضي الله عنها -.

وهكذا بدأت مرحلة الرسالة وقد سبقتها ثلاث سنوات هي مرحلة النبوة. ومع نزول الوحي الإلهي عرف البشر مصدراً للتلقي والعلم عن الله عز وجل، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تكفل الله بحفظه لينير لأجيال العالمين الطريق الحق ويهديهم إلى الصراط المستقيم صراط الله العزيز الحميد.

تكفل الله بحفظ القرآن:

وقد تكفل الله بحفظ القرآن الكريم من أن يزاد فيه ما ليس منه، أو يُنقص منه ما هو من أحكامه وحدوده وفرائضه، فهو الكتاب الخالد المحفوظ بحفظ الله له على تعاقب الزمان واختلاف السكان، فما دام القرآن دستور الرسالة الإسلامية، وما دامت الرسالة الإسلامية لكل البشر، في كل الأزمان والأصقاع، فإن حفظ القرآن وخلوده لازم ودائم دوام الرسالة نفسها. قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[٨٩].

ونظراً لطبيعة الإسلام التي تحمّل الإنسان المسؤولية، وتطلب منه بذل الجهد في الوصول إلى الحق والحفاظ على المبدأ والجهاد في سبيل الرسالة، فإن الله تعالى هيأ للقرآن الكريم كل لوازم حفظه وخلوده، فمنذ كان الوحي الأمين يلقي الآيات القرآنية على سمع النبي الأمين، بيّنت آيات كريمة أن الله يتكفل بحفظ النبي لهذه الآيات ونبهت الرسول إلى ألا يسترسل في بذل الجهد العنيف في الانتباه والتحفز النفسي المرهق والشد العقلي الكثير خوفاً من تفلت آيات الوحي منه وعدم القدرة على حفظها.. قال تعالى: ﴿لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾.

لقد حفظ النبي صلى الله عليه وآله القرآن الكريم، وكان جبريل يتعاهده به ويعرضه عليه في رمضان من كل عام، وكان النبي صلى الله عليه وآله يملي ما ينزل عليه من الآيات على الكُتّاب من الصحابة منذ المرحلة المكية.

وقد بلغ عدد كُتّاب الوحي تسعة وعشرين كاتباً أشهرهم: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي والزبير بن العوام وسعيد بن العاص وعمرو بن العاص وأبي بن كعب ومعاوية بن أبي سفيان وزيد بن ثابت ومعاوية وزيد كانا أكثر التصاقاً بهذه المهمة الخطيرة، وكانت الكتابة في الغالب على قطع

وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ
أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ

جمع القرآن في عهد الصّديق وانتقل إلى عهدة الفاروق

الجلد، واكتاف العظام وجريد النخل وصفائح الحجارة، إذ لم يكن البردي متوافراً آنذاك في الحجاز.

وكان كتاب الوحي يحتفظون بما يكتبونه عندهم، ولم تكن ثمة نسخة عند الرسول ﷺ نفسه، وقد جمع القرآن أربعة من الأنصار هم أبي بن كعب ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت وأبو زيد[90] من الصحابة في حياة الرسول ﷺ، ولكن كانت الرقاع متفرقة بينهم، وكانت بمجموعها تشتمل على نص القرآن الكريم كاملاً كما أملاه الرسول ﷺ وكما كان محفوظاً في صدور الكثيرين من الصحابة إلى حد التواتر.

وقد حظي بعض الصحابة بالعرضة الأخيرة للقرآن الكريم حيث عرض جبريل القرآن على الرسول ﷺ عام وفاته في رمضان مرتين، وعرضه الرسول على بعض الصحابة ومنهم زيد بن ثابت، وميزة هذه العرضة أنها تمثل نص القرآن الخالد دون الآيات التي نُسخت تلاوتها.

وكان هذا مما رشح زيد بن ثابت للقيام بجمع نسخة كاملة من القرآن الكريم بأمر من الخليفة أبي بكر الصديق تنفيذاً لاقتراح قدمه عمر بن الخطاب رضي الله عنهما.

قال أبو بكر لزيد: (إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ فتتبّع القرآن فاجمعه)[91]. فقام زيد بهذه المهمة بكل دقة، واعتمد على ما كتب في حياة الرسول ﷺ على أن يشهد شخصان بأن المكتوب من إملاء الرسول ذاته وأنه جزء من التنزيل في صورته النهائية.

وهكذا تم الجمع الأول للقرآن الكريم في خلافة الصّديق، وانتقل المصحف من الصّديق إلى عمر بن الخطاب الذي أودعه لدى حفصة أم المؤمنين عند استشهاده. فلما بويع عثمان رضي الله عنه بالخلافة قام بالجمع الأخير معتمداً على المصحف الذي عند حفصة مع تشكيل لجنة من زيد بن ثابت الذي تولّى الجمع الأول ومعه عبد الله ابن الزبير وسعيد بن العاص

وعبد الرحمن بن الحارث ابن هشام، ويلاحظ أن الثلاثة الأخيرين من قريش، في حين أن زيد بن ثابت أنصاري ويفسر طبيعة تكوين اللجنة ما ذكره عثمان من قاعدة العمل: (ما اختلفتم فيه وزيد فاكتبوه بلسان قريش فإنه نزل بلسانهم).

وقد أتمت اللجنة عملها بنجاح ونسخت ستة مصاحف وزعت أربعة منها على مكة والشام والكوفة والبصرة، وبقي المصحف الخامس في المدينة والسادس لدى عثمان.. وصارت المصاحف تنقل عنها عبر القرون التالية ويقال لرسمها (الرسم العثماني) نسبة إلى الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه.

وقد استمر علماء المسلمين طيلة القرون يبذلون جهوداً عظيمة في خدمة المصحف، بإضافة النقط والشكل إلى الرسم العثماني الذي كان خالياً منهما، ويرجع الفضل في ذلك إلى أبي الأسود الدُؤليّ الذي وضع النقاط فوق الحروف لتمييزها، وإلى نصر بن عاصم اللثي ويحيى بن يعمر العدواني اللذين وضعا الحركات فوق الحروف لمنع اللحن فيها، ثم جاء الخليل بن أحمد الفراهيدي ليجعل الشكل على صورته الحالية.

ولم تقتصر جهود العلماء في خدمة المصحف على النقط والشكل وإنما عرفوا بمواضع الوقف والابتداء، ووضعوا العلوم المتنوعة لخدمته مثل التفسير وعلوم القرآن والتجويد ومعرفة القراءات وشرح غريب القرآن وكتب إعـراب القرآن، فتكونت مكتبة نفيسة في العلوم القرآنية ومازال اللاحقون يضيفون فيها إلى جهود السابقين تحقيقاً لإرادة الله في حفظه وبيانه.

وقد أثار حفظ القرآن بهذا الإتقان على مرّ الأزمـان دهشة وإعجاب المنصفين من علماء الشرق والغرب فقال لوبلوا: «من ذا الذي لم يتمن لو أن أحداً من تلاميذ عيسى الذين عاصروه قام بتدوين تعاليمه بعد وفاته مباشرة».

وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ

القرآن أفضل كتابه أخرجته العناية الإلهية لبني البشر

إن هذه الجهود التي سخرها الله تعالى لحفظ القرآن تحقيقاً لوعده قد أفلحت في إيصال النص القرآني كاملاً إلى الأجيال المتعاقبة حتى اليوم، في الوقت الذي وقع التحريف على سائر الكتب السماوية الأخرى والتي كتبت بعد أزمان طويلة من حياة أنبيائها.

لقد ظل القرآن الكريم يُغذّي عقول وأرواح المسلمين، ويدخل الطمأنينة والقدرة على مواجهة صعاب الحياة إلى نفوسهم، ويذكي فيهم الطموح إلى المعرفة والاندفاع لبناء الحضارة وتشييد المدنية، ويهيئ لهم أسباب ذلك كله، بما حواه تشريعه من قوانين الأخلاق، ومبادئ الاجتماع، وإقرار العدل، وتحقيق السلام في داخل النفس وفي إطار المجتمع، فضلاً عن حفاظه على اللغة العربية التي توحّد أمة الإسلام، وتسهم بآدابها في توحيد ثقافتهم ومقاييسهم الخلقية والاجتماعية وأذواقهم الأدبية والفنية، فلا غرابة إذا ما عبّر مفكر غربي هو الدكتور موريس عن إعجابه بقوله: (إن القرآن أفضل كتاب أخرجته العناية الإلهية لبني البشر).

أثر القرآن في تبصير الإنسان

إن القرآن يفتح للمؤمن آفاقاً بعيداً لاستشراف الحق والخير إذا سلك العبد سبيل الهداية ومجاهدة النفس، وبإلزامها المعروف وتجنيبها المنكر، أو بتعبير آخر بإقامتها على السنة التي سنها محمد ﷺ وتنفيرها من البدعة، فهذه المجاهدة للنفس والأخذ بها في مسالك الهداية والنور تُفضي إلى انفساح الآفاق أمام النفس لزيادة الصعود والارتقاء، والإشراق.. فكلما زادت المجاهدة قويت البصيرة وعظمت معرفة الإنسان بالله ثم النفس وبالعالم من حوله.

وفِعلُ الأوامر واتباع المواعظ يفضي إلى الأجر العظيم في الدنيا والآخرة، ويُفضي إلى زيادة الهداية والاستقامة على نهج الحق.

لقد علّم الله تعالى عباده المؤمنين أن يدرسوا أنفسهم، ويحللوا دوافع سلوكهم، ويتبصروا في خطرات

علم النفس القرآني علم أهمله المسلمون

النفس، ويستشرفوا نوايا أعمالها وكانت آيات القرآن الكريم تتابع في رسم منحنيات النفس وبيان مكامن القوة ومواطن الضعف فيها قال تعالى: ﴿والَّذينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾(٩٢) وقال تعالى: ﴿والَّذينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾(٩٣) وقال: ﴿ولَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ وأَشَدَّ تَثْبِيتاً (٦٦) وإذاً لآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْراً عَظِيماً (٦٧) ولَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً﴾(٩٤). فكان هذا التوجيه دافعاً لظهور مدارس علم النفس في الإسلام؛ ذلك العلم الذي زرع المسلمون الأوائل جذوره وأهمل الخلف تعهد تلك الجذور.. فلم يصل إلى غاياته إلا في ظل حضارة الغرب ومفاهيمها، مما حرفه عن الطريق الأصيل الذي وجه إليه القرآن أتباعه، وبهذه الصورة الجاهلية استورده المسلمون فيما استوردوا من ثقافة الغرب، مما كان له أثر خطير في تشويه صورة الإنسان ودوافع سلوكه لدى مدرسة التحليل النفسي الفرويدية.

إنَّ الخواطر التي تبعث على ارتكاب الجريمة تبدأ بتسويل من النفس لتطويع المجرم، قال تعالى على لسان أبي يوسف عليه السلام ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾(٩٥)، ومن يقرأ قصة يوسف عليه السلام في القرآن يجد تحليلاً دقيقاً لكوامن الغَيرة والحسد في نفوس إخوة يوسف، ويجد عواطف الأبوة والرحمة والحب والأمل بالله وعدم اليأس من رَوحه في نفس يعقوب، ويجد تحليلاً لشخصية بعض النساء ممن ينتمين إلى طبقة الحكم بمصر في ذلك العصر، بل ويقرأ تعبيراً للرؤيا التنبؤية التي هي جزء من الوحي.

وفي قصة قتل قابيل لأخيه هابيل تطالعنا دوافع أول جريمة قتل على الأرض بسبب الحسد، عندما تقبل الله تعالى قربان هابيل ولم يتقبل من الآخر، وهن يبرز الدافع النفسي لارتكاب الجريمة تلعب فيه النفس الأمارة دوراً بارزاً قال تعالى: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ﴾(٩٦).

الصراحة والحق منهج القرآن في التبصر بذات الإنسان

لكنه سرعان ما ندم على ما فعل، فأراد أن يقدم الإحسان للقتيل، ولم يأبَ أن يتعلم من الغراب طريقةَ الدفن ﴿قَالَ يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾(٩٧).

وهكذا كشفت قصة ابني آدم عن النفس الأمّارة والنفس اللوّامة في لقطة سريعة وبعبارات وجيزة تكشف عن أغوار الإنسان وتعرفه بذاته. وبذلك تتقدم به نحو الرشد الفكري، بتكوين معتقداته الأساسية التي تمنع وقوعه في التيه، والإحساس بعبثية الحياة وجدوى الوجود، أو عدم معقولية العالم التي سقط ضحيتها الكثيرون من أبناء القرن العشرين، عندما ضاعت منهم حقائق الدين في تثبيت أهداف الخلق والحياة، وتحديد قضية مصير الإنسان، وأخلاقيات السلوك المترتبة على تقرير قضية المصير ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ﴾(٩٨).

إن منهج القرآن في تعريف الإنسان بذاته يرتكز على الصراحة والحق، فيكشف عن جوانب سلبية كما يكشف عن جوانب إيجابية ويوضح أن جوانب السلب والإيجاب تكمن في أعماق النفس وتعايش داخلها، وقد يظهر جانب على آخر ويطغي بقوته عليه ويبقى الجانب الآخر في أغوار الإنسان قال تعالى: ﴿ونَفْسٍ ومَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وتَقْوَاهَا﴾(٩٩) وبين أن الطغيان يجرُّ الإنسان إلى الكفر والرغبة في الاستغناء عن الله قال تعالى: ﴿كَلاَّ إِنَّ الإنسَانَ لَيَطْغَى (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى﴾(١٠٠) وقال ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾(١٠١) وقال: ﴿إِنَّ الإنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾(١٠٢) وقال: ﴿قُتِلَ الإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾(١٠٣) وكاشف القرآن الإنسان بحقيقة وجوده، ومصدرِ متاعبه وصراعاته في هذه الحياة، وإنه مخلق للمكابدة والتعب والنصب قال تعالى ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ فِي كَبَدٍ﴾(١٠٤) فالدنيا دار امتحان وابتلاء وتمحيص، وعلى الإنسان أن يسعى

مهما أسرف الإنسان على نفسه ونأى جنباً عن ربه فإن باب التوبة مفتوح أمامه للعودة

لخلاص روحه ونفسه، بتوحيد الله وطاعته وعبادته وشكره واستغفاره، قال تعالى: ﴿وأن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى﴾[١٠٥]. وقال تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ﴾[١٠٦] وقال تعالى ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً﴾[١٠٧] وكما أن الإنسان لديه الاستعداد للطغيان فإن لديه أيضاً قابلية للخضوع والاستخذاء قال تعالى عن فرعون وقومه: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾[١٠٨] وهكذا فإن القرآن أنكر الطغيان كما أنكر الاستخذاء، وهما لخقان متلازمان في المجتمعات، فحيثما يوجد أحدهما يوجد الآخر، وليس من منجي سوى الاستجابة لداعي الله في التزام الحق والعدل والرحمة والخير، قال تعالى: ﴿ومَن لاَّ يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الأَرْضِ﴾[١٠٩]

وإذا أسرف الإنسان على نفسه ونأى جنباً عن ربه، فإن باب التوبة مفتوح أمامه للعودة ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً﴾[١١٠].

إن ما جُبلت عليه النفس الأمّارة من سوء يقتضي من الإنسان الحذر منه ومدافعته، وإلا سقط في المحذور وارتكب جرماً بحق نفسه، أو بحقوق من حوله أو بحق الله تعالى.

قال تعالى: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾[١١١] وقد لا يبدو السوء ظاهراً للعيان، بل مستوراً بالخديعة والمكر، مزخرفاً بالتزيين والتحسين، يحتاج الكشف عنه إلى العلم والتثبيت والعرض على كتاب الله تعالى وسنة المصطفى ﷺ وإجماع العلماء. قال تعالى: ﴿وزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[١١٢] وسمّى القرآن هذا التزيين وسوسة كما في قول الله تعالى: ﴿يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾[١١٣] وقوله: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾[١١٤].

ولا شك أن قدرة الناس على معرفة الخير الخالص والحق المحض ليست واحدةً. بل يتبع ذلك بصيرتَهم ومعرفتَهم بالشرع وتمييزهم للخير وللشر، فكلما تيقّظت بصائرهم وزادت تقواهم وعظمت معرفتهم

أرسل الله الرسل لتبصير العباد وإنارة حياتهم

بالشرع وحدوده، ازدادوا قدرة على تمييز نفحات الحق وخطرات الخير، من وساوس الشيطان وتزيينه ونفثات النفس الأمارة ومكايدها.

ولا عذر لمن غفل عن الله وأهمل التعرف على أحكام الشرع بادّعاء الجهل، فإن الله تعالى ذمَّ أولئك الذين يلتبس عليهم الخير والشر ويفقدون القدرة على الرؤية الصحيحة فقال تعالى: ﴿وهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً﴾[115] وقال: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً﴾[116].

وكيف يعذر من بلغته دعوة محمد ﷺ وفيها البيان والتبصير والمعرفة والتذكير، وقد قال ﷺ: **«إنَّ للشيطان لَمَّة بابن آدم، وللمَلَك لَمَّة، فأما لَمَّة الشيطان فإيعادٌ بالشر وتكذيب بالحق، وأما لَمَّة الملَك فإيعاد بالخير وتصديقٌ بالحق، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله، فليحمَدِ الله. ومن وجد الأخرى فيتعوَّذ بالله من الشيطان** ثم قرأ ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الفَقْرَ ويَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ﴾[117]»[118].

ولكن معرفة الخير والحق الذي يخطر بنفس المؤمن لا تتم إلا بمعرفة الدين عقيدةً وشريعةً، نظراً وتطبيقاً. لذلك أرسل الله الرسل لتبصير العباد وإنارة الدرب أمامهم ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾[119].

والمؤمن الواعي يتبع السلف الصالح في طرائق البحث والاستنباط والترجيح. وإلا تاه وسط آلاف الروايات في مجلدات التفسير والحديث

خلو القرآن من التعارض:

ولا شك أن كلام الله تعالى وكلام رسوله المبلغ عنه يخلو من التناقض الذي قد يقع في كلام البشر. قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافاً كَثِيراً﴾(١٢٠) لأن علم الله تعالى محيط، وإنما يقع في التناقض من يقصر عن الإحاطة العلمية، أو يغفل عن جزئية فتشذ عن قاعدة يقعدها، أو استقراء يقوم به، وأما الله الذي أحاط بكل شيء علماً، والذي لا يعزب عنه مثقال حبة في الأرض ولا في السماء، فمحال في حقه التناقض والاختلاف في القول، وكذلك رسول الله ﷺ فإن من المحال أن يتناقض في كلامه، ولا يدخل في ذلك أن ينسخ قوله اللاحق قولَه السابق فإن النسخ وقع في الكتاب والسنة معاً في عصر التنزيل، ولكن قصور علم الإنسان المتلقي عن الله ورسوله وعدم إحاطته بالنصوص لكثرتها أو لعدم وصولها إليه أو لقصوره عن فهمها وحسن توجيهها توجيهاً صحيحاً، أو لقلة بضاعته اللغوية أو عدم إتقانه الصناعة النحوية، أو لعدم معرفته بقواعد إزالة التعارض التي قعَّدها العلماء من المحدثين والأصوليين، مما عنونوا له بـ«تأويل مختلف القرآن» و«تأويل مختلف الحديث».

والمؤمن الواعي يتبع السلف الصالح في طرائق البحث والاستنباط والترجيح. وإلا تاه وسط آلاف الروايات في مجلدات التفسير والحديث. فإن استغلق عليه فهم أمر عقدي أو شرعي فليقل كما علمنا ربنا تعالى: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾(١٢١).

حول ما يزعم من وجود الإعجاز الرياضي في القرآن:

قال تعالى: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (٣٦) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ (٢٧) لا تُبْقِي ولا تَذَرُ (٢٨) لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ (٢٩) عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (٣٠) وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلاَّ مَلائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ وَمَا هِيَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْبَشَرِ﴾[١٣٢].

لقد جاءت هذه الآيات في سورة المدثر بعد ذكر موقف الوليد بن المغيرة من الإسلام، وقوله عن القرآن ﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ وكان الوليد من رجالات قريش، كثير المال والولد، حسنَ المعرفة بالشعر، وبأفانين الكلام، مما يجعله واعياً لكلام الله تعالى مميزاً له، لكنه آثر الكفر عناداً منه للحق، واستكباراً وبطراً وجحوداً للنعم العظيمة التي أنعمها الله عليه، مع أنه كان يطمع في المزيد من النعم، ولعله كان يطمع في النبوة بعد أن نالته حظوظ الدنيا حتى شبع منها. فيكون الحسد أحد بواعث إنكاره لنبوة محمد ﷺ فمضى يُعين قومه في دعاياتهم ويوجههم فيها، مدعياً أن القرآن سحر يأخذه الرسول ﷺ عن غيره، ويؤكد لهم أنه قول بشر كما يذكر القرآن عن هذا ﴿إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ﴾[١٣٣].

مع أن المغير كان يعرف تماماً أنه ليس من كلام البشر، فقد وَضَّحَ لقومه مباينةَ القرآن لكلام الكُهَّان ومفارقتَه لشعر الشعراء، ومن هنا توعده الله تعالى بأن يصليه سقر وهو اسم علم لباب من أبواب جهنم، نارها لا تُبقي من فيها حياً ولا تذره ميتاً، بل تحرقه كلما تجدَّد خَلْقُه ليخلد في العذاب، وهي «لوَّاحة للبشر» تحرق البشرة، التي تتجدد دوماً، فتبقى حاسة المعذب

كاملة، فلا تخف معاناته على الدوام، ويؤد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا العَذَابَ﴾(١٢٤).

وقد أخبر الله تعالى رسوله ﷺ بأن سقر عليها تسعةَ عشرَ خازناً من الملائكة، وذلك أن أبا جهلٍ ظنهم رجالاً فزعم أن عدد قريش كثير، وأنهم يغلبون تسعةَ عشرَ رجلاً، فبيّن تعالى أنهم ملائكة، وأن ذكر عددهم المحدود فيه فتنة للمشركين الذين استقلّوا عددهم وطمعوا في غلبتهم، وبيّن تعالى أن عدد خزنة النار مذكور أيضاً في التوراة والإنجيل، وأن هذا الاتفاق في العدد لأنَّ كُتُب الله تعالى يصَّقُ بعضُها بعضاً، فيزيد يقينُ أهل الكتاب والمؤمنين بصحة نبوة أنبيائهم وصدق كتبهم، وأما المشركون فيزدادون شكاً ونفاقاً في حقيقة البعث والنار التي وصفها القرآن بأنها تذكرة للبشر ﴿وَمَا هِيَ إلاَّ ذِكْرَى لِلْبَشَرِ﴾(١٢٥).

ويتضح من النص القرآن وكلام السلف في بيان معناه أن عدد خزنة النار هم تسعةَ عشرَ خازناً، وأنهم من الملائكة، وأن الرقم «تسعة عشر» ليس لُغزاً غامضاً ليأتي الباحثون في القرن العشرين فيدخلوا القرآن في الكمبيوتر ثم يحلّوا لغز الرقم، وعندها يتجلّى لهم ما لم يتجلّ لرسول الله ﷺ من أوجه الإعجاز القرآني - فيما يزعمون -!!!

فقد ظهرت خلال العقود الثلاثة دراسات مبنية على أن ثمة إعجازاً رياضياً في القرآن، وأن هذا الإعجاز كشف عنه الكمبيوتر حيث أظهر أن ثمة خصوصية للرقم «تسعة عشر» في القرآن حيث تبين من الدراسات التي استعانت بالعقل الآلي أن عدد حروف البسملة تسعة عشر حرفاً، وأن كل كلمة منها يتكرر ذكرها في القرآن تسع عشرة مرة وأن فواتح السور وردت في تسع وعشرين سورة، ومجموع حروف الفواتح أربعة عشر حرفاً فيكون رقم جمعها سبعة وخمسين، وهو من مضاعفات رقم تسعة عشر.

القرآن لا يحمل ألغازاً

ومن خلال التركيز على رقم تسعة عشر يظهر أن بناء القرآن يقوم على هذا الرقم قصداً مما يدل على الإعجاز الرياضي حيث يستحيل على إنسان أن يقيم نظماً وفق رقم تسعة عشر ومضاعفاته مما يدل على الإعجاز.

وبناء على هذه المقدمات وصل الباحثون المعاصرون إلى نقض كلام المفسرين القدامى، بل ومعارضة النص القرآني الذي بيّن أن خزنة النار تسعةَ عشر مَلَكاً، بالقول بأن التسعة عشر التي ذكرت إنما هي عدد حروف البسملة وليست عدد خزنة النار.

وقد يبدو للسذّج أن الكشف عن أوجه جديدة للإعجاز القرآن يخدم قضية الإسلام والإيمان في هذا العصر. ولكن الصحيح أنها تزيد من الحيرة والشك عندما تبني استنتاجاتها على أسس واهية ومصادفات واتفاقات اعتباطية ساذجة، فالقرآن لا يحمل ألغازاً يكشف عنها الكمبيوتر، ونبي الإسلام ﷺ لم يكن يجهل معاني

إعجاز القرآن في نظمه وأسلوبه

القرآن وطريقة نظمه وأوجه إعجازه، ولم يُخبر بأن ثمة أوجهاً للإعجاز سيكشف عنها الزمان. والحق أنه ليس فيما ذكره الباحثون بواسطة الكمبيوتر ما يدل على وجود إعجاز رياضي، وإنما هي بحوث تلفيقية لجأت إلى ملاحظة ظواهر متكررة بالنسبة للرقم تسعة عشر، ويمكن أن يلاحظ هذا الأطراد والتكرر بالنسبة لأرقام أخرى فلا تبقى ثمة خصوصية للرقم (تسعة عشر)، وسواء أكان الحافز على مثل هذه الدراسات الرغبة في الإثارة والتجديد، أو الارتباط بجهات مشبوهة يعني الرقم تسعةَ عشرَ عندها معنىً تحيطه الأسرار والألغاز، فإن على المسلم أن يحذر هذه الدراسات ولا يطمئن إلا لكلام أهل العلم المعروفين بالصدق والغيرة على دين الله.

إن إعجاز القرآن في نظمه وأسلوبه، وقد تحدّى العرب - وهم أمة البلاغة والفصاحة - أن يأتوا بمثله فعجزوا، ودام التحدث عبر تاريخ الإسلام دون أن يحقق الأعداء استجابةً ناجحة للتحدي. ثم إنّ شريعة الإسلام

الشرع بني على مراعاة المصلحة والتيسير ورفع الحرج ومنع التعسف والظلم

بما تضمنته من أحكام عادلة وعبَّرت عنه من رؤية شاملة لمصالح البشر وتقدير لآمالهم وآلامهم، وتحديد دقيق لعلاقاتهم، وإبراز للحق والواجب، وكل ذلك بنى على مراعاة المصلحة والتيسير للناس ورفع الحرج عنهم ومنع التعسف والظلم. وكذلك فقد مضى على نزول القرآن أكثر من أربعة عشر قرناً دون أن يظهر العلم المتطور والبحث المتقدم أية تناقضات بين ما ذكره القرآن وما كشف عنه علم الإنسان النظري والتجريبي فهذا كله دليل على أن القرآن من عند الله وليس كلام محمد ﷺ، بل إن الفرق واضح بيّن بين أسلوب القرآن وأسلوب الرسول كما يظهر في أحاديثه. ومعروف لدى نقاد الأدب استحالة أن يكتب الكاتب بأسلوبين متمايزين تمايز أسلوبي القرآن والحديث. وهذه الأوجه تغني عن محاولة افتعال أوجه أخرى للإعجاز مثل فكرة الإعجاز الرياضي التي لم تُبتنَ على حقائق العلم بل استغلت موافقات معينة لخدمة أهداف مريبة سواء اتصلت بتدعيم مكانة الرقم تسعة عشر عند البابيين والبهائيين، أو بالكسب المادي عن طريق الإثارة وادعاء التجديد مما يؤدي إلى رواج المنشور - وانخداع السذج بما فيها من معلومات غريبة ظاهرها خدمة الإيمان، وباطنها التشكيكُ والنقضُ لأقوال السلف بل ولصريح القرآن.

وقد حذّر رسول الله ﷺ من تفسير القرآن بالرأي دون دليل فقال: **(من قال في القرآن برأيه فليتبوَّأ مقعده من النار)**[١٣٦]. وقال ﷺ: **(من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ)**[١٣٧].

إن القرآن معجزة بيانية، وإن تشريعاته المحكمة دليل على أنه من عند الله ولكنه ليس المعجزة الوحيدة لمحمد ﷺ كما ذهب إلى ذلك البعض من مؤلفي

السيرة النبوية المعاصرين[128]. بل ثمة معجزات أخرى ثابتة بأحاديث صحيحة لا يمكن ردها أو تأويلها، وليس من داع لإنكارها سوى الخضوع لمنهج البحث المادي الذي ينكر ما وراء الطبيعة من عالم الغيب والروح.

وفيما يلي أعرض للمعجزات الحسية التي جرت في عصر السيرة.

معجزات الرسول الحسية

كان المشركون يطالبون رسول الله ﷺ بالآيات الحسيّة التي تخرق سنن الحياة وقوانين الطبيعة، وكانوا يقصدون من وراء طلبهم إظهار عجزه عن ذلك والسخرية منه ولعل المؤمنين - وقد ضاقت بهم السبل - كانوا يتطلعون إلى الاستجابة لطلب المشركين رجاء إيمانهم، خاصة أن المشركين كانوا يحلفون ويؤكدون بأنهم سيستجيبون للإسلام حال ظهور المعجزات الخارقة. لكن الإسلام لم يعتمد على المعجزات الخارقة في اجتذاب قلوب الناس إلى الإيمان، بل اعتمد على إقناع عقولهم واجتلاب قلوبهم وملء وجدانهم بمعاني القرآن، الذي يمثل المعجزة الدائمة الباقية، مما يمكن الأجيال المتعاقبة إلى التأثر بهذه المعجزة البيانية، وما تحمل من معاني الحق والصدق، وما تزخر به من سمو التشريع، وحسن الإرشاد

إلى مكارم الأخلاق، فضلاً عن قوة التأثير الروحي والنفسي في السامع والقارئ.

وقد أخبر الله تعالى بأن المشركين لن يؤمنوا حتى لو جاءتهم المعجزات الخارقة، لأن الله تعالى يقلبُ أفئدتهم وأبصارهم، ولا يريد هدايتهم، فهم أهل عناد واستهزاء وجحود للحق، ومثلهم لا يستسلم للحق مهما وضح لهم. وسوف يجدون لكل آية تأويلاً، ولكل معجزة تفسيرا إذ أنهم طبعوا على الكفر والتمرد على الله تعالى، ومن كان هذا حاله لا يعدم التأويلات والتفسيرات والظنون وتقولات قريبة وبعيدة.

قال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لا يُؤْمِنُونَ (١٠٩) وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١٠) وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾[١٢٩].

وما دامت الهداية بيد الله وحده، فمن لم يشأ أن يهديه لا يهتدي حتى لو رأى الملائكة عياناً وكلمه الموتى جهاراً وعاين كل شيء معاينةً فانجلى له الأمر تماماً، وهذا فيمن كتب الله عليهم الشقاء، وأما من كتب لهم السعادة والإيمان فهم الذين استثناهم الله تعالى بقوله: ﴿إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ وقد أكد القرآن على هذه الحقيقة في آيات كثيرة.. فقال تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ (٧) وَقَالُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكاً لَّقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لا يُنظَرُونَ﴾[١٣٠].

وهنا يكشف الله تعالى عن حقيقة أخرى هي سنته في الكافرين إذا جحدوا المعجزة الحسية، فهو يعجِّل لهم العقاب ولا يفسح لهم الوقت للتوبة، فكان عدم إجابة طلب المشركين رحمةً بهم وإنظاراً لهم ليثوب إلى الحق من كتبت له السعادة والإيمان، وأما أهل الشقاء فلن تغير المعجزاتُ

المعجزة القرآنية انفردت بالظهور والتأثير الكبير. لما تتسم به من خلود يتسق مع خلود الرسالة الإسلامية وعمومها

مصيرَهم مهما بلغت عظمتها واتسع خرقها لقوانين الحياة والطبيعة، كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً مِّنَ السَّمَاء فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (١٤) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾[١٣١].

وهكذا حتى لو استجاب الحق لطلب المشركين المعجزات الحسية، فإنهم سيتأولونها بأعمال السحرة، ويبطلون حجيتها عناداً واستكباراً، تحقيقاً لما كتبه الله عليهم من الشقاء.

وهكذا فإن المعجزة القرآنية انفردت بالظهور والتأثير الكبير، لما تتسم به من خلود يتسق مع خلود الرسالة الإسلامية وعمومها، أما بقية المعجزات الحسية فقد ظهرت غالباً للصحابة رضوان الله عليهم، وكان أمر النبي ﷺ لهم بيّنا، وقد استجابوا لدعوته قبل ظهورها، فلم تكن سبباً في إيمانهم، وإن كان اطلاعهم على أحواله عليه الصلاة والسلام وكرامتهِ على الله تعالى مما يزيد في انشراح صدورهم وطمأنينة قلوبهم، بل كثيراً ما وقعت المعجزات الحسية لإزالة الكرب عنهم أو سد جوعهم أو إلحاق الهزيمة بعدوهم. أما المعجزة القرآنية فكانت تحدياً مباشراً للكفار وسبباً في إسلام من أسلم منهم بالإضافة إلى تأثير شخص النبي ﷺ في حسن خلقه الجم، ولطف حديثه، وكمال معانيه وسدادها.

قال ابن تيمية - رحمه الله - في كتاب النبوات: «والقرآن مما يَعلَمُ الناس - عربهم وعجمهم - أنه لم يوجد له نظير مع حرص العرب وغير العرب على معارضته، فلفظُهُ آيةٌ، وأخبارهُ آيةٌ، وأمره ونهيه، ووعده ووعيده آية، وجلالته وعظمته وسلطانه على القلوب آية، وإذا ترجم بغير العربي كانت معانيه آية، كل ذلك لا يوجد له نظير في العالم»[١٣٢].

وهذا تفصيل جميل لأوجه الإعجاز القرآني لفظاً ومعنىً، وقد بيّن الرسول ﷺ مكانة المعجزة القرآنية في

دعوته، وأنها الغالبة على سائر معجزاته فقال: «**ما من الأنبياء إلا أعطى من الآيات ما مِثْلُهُ آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة**»[١٣٣].

ورجاؤهُ ﷺ أن يكون أكثر اتباعاً ممن سبقه من الأنبياء لخلود رسالته، وخلود معجزاته القرآنية التي تكفل انضواء اتباع جدد تحت رايته حتى قيام الساعة.

قال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾[١٣٤] وقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٣) فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[١٣٥]. وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[١٣٦].

وقال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾[١٣٧] وقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لاَّ يُؤْمِنُونَ (٣٣) فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾[١٣٨].

وهكذا تحدّى القرآن الأجيال البشرية عبر القرون بأن يأتوا بمثل هذا القرآن، أو بعشر سور مثله أو بسورة مثله، أو بحديث مثله، فلم يجب أحد على تحديه، فبان أنه أنزل بعلم الله.

عن إنكار البعض للمعجزات الحسية غير القرآن لا وجه له، فقد ثبتت بالأحاديث الصحيحة المستفيضة، فمعناها متواتر من حيث الدلالة على

المؤمن يسلم في إيمانه تبعاً لتسليمه للوحي والنبوة

وقوع معجزات للنبي ﷺ فيها خرق للناموس الطبيعي، كما في حادثة شق الصدر في العام الخامس من عمره ﷺ. ثم تكرر ذلك قبل الإسراء والمعراج وهو في الثانية والخمسين من عمره، وكلتا الحادثتين في الصحيحين. فعن أنس بن مالك - رضي الله عنه -: «أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل عليه السلام وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه فصرعه فشق عن قلبه، فاستخرج القلب، فاستخرج منه علقة، فقال: هذا حظ الشيطان منك، ثم غسله في طُست من ذهب بماء زمزم، ثم أعاده في مكانه، وجاء الغلمان يسعون - يعني ظئره - فقالوا: إن محمداً قد قتل فاستقبلوه وهو منتقع اللون. قال أنس: وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره»[١٣٩].

وفي الصحيحين عن أنس قال: «كان أبو ذر يحدث أن رسول الله ﷺ قال: **خرج سقف بيتي وأنا بمكة، فنزل جبريل، ففرج صدري ثم غسله بماء زمزم، ثم جاء بطُست من ذهب ممتلئ حكمةً وإيماناً فأفرغه في صدري، ثم أطبقه، ثم أخذ بيدي فعرج بي إلى السماء الدنيا**»[١٤٠].

ولا شك أن خبر شق الصدر لا تتقبله عقول الماديين، أما المؤمنون بالغيب فهم يسلمون به تبعاً لتسليمهم بالوحي والنبوة؛ وهما خرق للقانون المادي، لا تقبله الفلسفات الحسية لأنه ظاهرة لا يمكن إخضاعها لتجاريب المختبرات، ولكن الإيمان بالغيب شرط الإسلام ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ﴾[١٤١].

لم تخل سيرة الرسول ﷺ من معجزات تخرق السنن الطبيعية ولكن الخرق كان يحدث أمام المؤمنين غالباً ولم يكن سبباً في إيمانهم لكنه كان يطمئن قلوبهم

كان المشركون إذاً يطالبون النبي ﷺ بالمعجزات الحسية، واعدين بالإيمان إذا رأوا وسمعوا، ولم يعتمد منهج الدعوة المحمدية أسلوب المعجزات الحسية في هداية الناس إلى الله ونبيه ورسالته اعتماداً كبيراً، ولكن السيرة المحمدية لم تخل من خرق للسنن الطبيعية، لكن الخرق كان يحدث أمام المؤمنين غالباً ولم يكن سبباً في إيمانهم، لكنه كان يطمئن قلوبهم ويزيدهم إيماناً، فضلاً عن رفع الشدائد وحل الأزمات وتيسير الصعاب عليهم.

ومن الأحداث النادرة التي استجاب الله تعالى فيها لتحدي المشركين ما رواه البخاري في صحيحه من «أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية، فأراهم انشقاق القمر فقال عليه الصلاة والسلام: **اشهدوا**»(١٤٢).

وقد فصل حديث صحيح حادثة انشقاق القمر في المرحلة المكية من حديث الصحابي جبير بن مطعم - رضي الله عنه - قال: (انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فصار فرقتين؛ فرقة على هذا الجبل، وفرقة على هذا الجبل، فقالوا: سحرنا محمد وقالوا: إنْ كان سحرنا فإنه لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم)(١٤٣). ولم يكن قولهم سحرنا محمد تعبيراً عن اقتناعهم، وإنما كان ذريعة للتخلص من وعدهم بالإيمان عند رؤية المعجزة، فالفرق بين معجزة النبي وعمل السحرة ظاهر، فهم لم يألفوا من رسول الله تعلم السحر وتعاطيه، ولذلك لم يجرِ على لسان المشركين بيان اكتسابه ومن علّمهُ إياه. ثم إنّ النبي يريد هدايتهم إلى الحق وليس جرّ نفع لنفسه كما هو شأن الساحر.

وإذا كان انشقاق القمر استجابةً لطلب المشركين وكشفاً لعنادهم وكذبهم فإنّ حادثة الإسراء والمعراج وما رافقها من وصف دقيق لبيت المقدس قدّمه الرسول ﷺ أمام المشركين ولم يكن قد رآه، وما رأى من آيات ربه الكبرى في المعراج كل ذلك كان معجزة

وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَـٰبِكُمْ

وقعت معجزات في حسية للرسول ﷺ أمام بعض المشركين في أوقات متباينة

دون أن يطالبه بها أحد، بل كانت فتنة وامتحاناً ميَّزت بين المؤمنين والكافرين.

وقد وقعت معجزات حسيَّة أخرى للرسول ﷺ أمام بعض المشركين في أوقات متباينة من المرحلة المدنية، لكنها لم تؤد إلى إيمان أحد منهم بصورة مباشرة استجابة لقهر المعجزة، بل تأخر إيمانهم بعدها حين شاء الله لهم الهداية. فقد حدث في أحد أسفار الرسول ﷺ مع الصحابة أن نفذ الماء، فأرسل اثنين من الصحابة يرتادان المياه، فلم يجدا ماء بل وجدا امرأة تحمل مزادتين من ماء على بعير لها، فقدما بها إلى رسول الله ﷺ، ففرغ من مائها في إناء ثم سقى الناس منه، ثم أعاد إليها المزادتين كاملتين مع هدايا من الطعام وقال لها: **تعلمين ما رزئنا من مائك شيئاً ولكن الله هو الذي أسقانا**. فلما رجعت المرأة إلى أهلها قالت عنه فعل كذا وكذا، فوالله إنه لأسحر الناس، أو إنه لرسول الله حقاً ولم تُسلم وقومُها إلا بعد حين[١٤٤]. فرغم ما لاحظته المرأة من المعجزة الحسية الظاهرة، فإنها لم تسلم نتيجة ذلك لأن العقل الكافر قد يخلط ما بين معجزة النبي والسحر عند شيوع الجهل وضعف الوعي وانعدام التمييز بين الحق والباطل.

ومثل هذا تكرر مع رجل من بني عامر - فيما يرويه الإمام أحمد بسند صحيح قال: (أتى النبي ﷺ رجل من بني عامر فقال: يا رسول الله أرني الخاتم الذي بين كتفيك فإني من أطبِّ الناس. فقال رسول الله ﷺ **ألا أريك آية؟** قال: بلى. قال: فنظَرَ إلى نخلة فقال: ادع ذلك العَذْقَ. قال: فدعاه فجاء ينقر حتى قام بين يديه. فقال له رسول الله ﷺ: **ارجع** فرجع مكانه. فقال العامري: يا آل بني عامر ما رأيت كاليوم رجلاً أسحر)[١٤٥].

ازداد الصحابة إيماناً واستبشاراً بما رأوه من معجزات تنبع من رسول الله ﷺ

ولكن أمر المرأة صاحبة المزادة والرجل العامري يختلف عن موقف قريش، لأن المرأة والعامري لم يكونا يعرفان الرسول ﷺ، كما كانت قريش تعرف من صدقه وحسن سيرته وجوانب دعوته، وأنه رفض عروضها الدنيوية، وهي مطلب الساحر ومراده من السحر.

والحق أن اطلاع المشركين على المعجزات الحسية للرسول ﷺ كان قليلاً إلى جانب المعجزات الحسية الكثيرة التي شهدها المؤمنون فازدادوا إيماناً واستبشاراً.. قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: (كنا نعد الآيات بركةً، وأنتم تدونها تخويفاً؛ كنا مع رسول الله ﷺ في سفر فقلَّ الماء فقالوا: اطلبوا فضلة من ماء، فجاءوا بإناء فيه ماء قليل، فأدخل يده في لإناء ثم قال: **حيَّ على الطهور المبارك**، والبركةُ من الله فلقد رأيت الماء ينبع من بين أصابع رسول الله ﷺ، ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل)[١٤٦].

وقد استفاضت الأخبار الصحيحة في تكثير الماء والطعام بين يديه في السفر والحضر، فقد توضأ سبعون صحابياً في قدح فيه ماء يسير مدّ النبي فيه أصابعه الأربع، ومرة أخرى توضأ زهاء ثلاثمائة من إناء وضع الرسول ﷺ يده فيه، فجعل الماء ينبع من بين أصابعه[١٤٧].

وقد تكرر منه ذلك في الحديبية مراراً، فقد نزل المسلمون على ثمد قليل الماء فنزحوه، واشتكوا إلى رسول الله ﷺ العطش «فانتزع سهماً من كنانته ثم أمرهم أن يجعلوه فيه، فوالله ما زال يجيش لهم بالري حتى صدروا عنه»[١٤٨].

ومرة أخرى في الحديبية عطش الناس بين يدي النبي ركوة فتوضأ منها، واشتكى الناس إليه أن ليس عندهم ماء للشرب والوضوء غير ما في الرَّكوة، فوضع يده في الركوة فجعل الماء يثور بين أصابعه كأمثال العيون، فشرب ألف وخمسمائة من الصحابة وتوضأوا. وهذا الخبر يرويه جابر بن عبد الله في صحيح البخاري، وقد شهده العيان من الصحابة وهم جمع غفير، وما أنكره أحد[١٤٩].

وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ

وقعت معجزات في حسية للرسول ﷺ امام بعض المشركين في اوقات متباينة

ومن ذلك ما حدث في غزوة تبوك حيث أخبر معاذ بن جبل بأن عين ماء تبوك كانت تبضُّ بشيء من ماء، وأن المقاتلين وقفوا عليها، ومعروف أن جيش تبوك هو أكبر جيش قاده رسول الله ﷺ، فماذا يجدي معهم ماء لا يكفي للرجل الواحد إلا بعد جمعه في إناء! فما كان من رسول الله ﷺ إلا أن غسل يديه ووجهه بماء جُمِع له من العين في إناء، ثم أعاده في العين فجرت بماء منهمر، فقال لمعاذ: «**يوشك يا معاذ إن طالت بك حياةٌ أن ترى ما ههنا قد مليء جناناً**»[150].

وكذلك فقد استفاضت الأخبار الصحيحة في تكثير الطعام بين يديه عليه الصلاة والسلام، منها حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه في الخندق،حيث رأى النبي ﷺ يعصب بطنه بحجر من الجوع، فقد لبث المسلمون ثلاثة أيام لا يذوقون طعاماً، فطلب جابر من امرأته أن تصنع طعاماً فذبحت ماعزاً وطحنت شعيراً، فصنعت من اللحم والشعير بُرمة، وذهب جابر فدعا رسول الله إلى طعامه قائلاً: طعيم لي فقُم أنت يا رسول الله ورجلٌ أو رجلان فصاح النبي بأهل الخندق ودعاهم إلى طعام جابر وهم ألفٌ، فأُسقط في يد جابر وأشفق من قلة الطعام، فبارك النبي في الطعام قال جابر: فأقسم بالله لقد أكلوا حتى تركوه وانحرفوا، وإن برمتنا لتغطُ كما هي، وإن عجيننا ليُخبز كما هو[151].

وقد تكرر تكثير الطعام في وليمة زواجه ﷺ من زينب رضي الله عنها، فقد أهدت له أم سليم حَيْسةً في بُرمة صنعتها من تمر وسَمن وأَقِط، فدعا النبي ﷺ رجالاً غصَّ بهم البيت ودعا بما شاء الله له من الدعاء ثم أكلوا منها جمعاً[152].

وفي غزوة تبوك نفدت أزواد المسلمين حتى همُّوا بنحر بعض إبلهم التي تحملهم، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: يا رسول الله لو جمعتَ ما بقي من أزواد القوم فدعوتَ الله عليها. ففعل، فجاء ذو البُرِّ ببُرِّه وذو التمر بتمره فدعا عليها حتى ملأ القومُ أزوادَهم. فقال ﷺ: **أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله لا يلقي الله بهما عبد غيرَ شاكس فيهما إلا دخل الجنة**[153].

وقال أبو هريرة رضي الله عنه: (أتيت النبي ﷺ بتمرات، فقلت: أدع الله لي فيهن بالبركة. قال: فصفَّهنّ بين يديه ثم دعا. فقال لي: **اجعلهن في مزود وأدخل يدك ولا تنثره**. قال: فحملت منه كذا وكذا وسقا في سبيل الله ونأكل ونطعم، وكان لا يفارق حقوى فلما قتل عثمان رضي الله عنه انقطع عن حقوى فسقط[154].

ومن هذه المعجزات الحسية الطبيَّة أن عبد الله بن عتيك عندما ذهب لقتل اليهودي أبي رافع لِما كان يفعل من أذى الرسول والإعانة عليه، سقط عبد الله من درجة في بيت أبي رافع، فانكسرت ساقه، فلما رجع فأخبر رسول الله بقتل أبي رافع وأن رجله انكسرت قال له رسول الله ﷺ: **ابسط رجلك**. قال: فبسطتُ رجلي فمسحها فكأنَّها لم اشتكها قط[155].

وأصيبت ساق سلمة بن الأكوع في غزوة خيبر فأتى النبي ﷺ فقال: إن ابن أختي شاكٍ فادع الله له، فدعا له. فمات السائب وهو ابن أربع وتسعين وكان جَلداً معتدلاً، فكان يقول: لقد علمت ما متعت به سمعي وبصري إلا بدعاء النبي ﷺ.

وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِين مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ

ومسح رسول الله على وجه قَتادة بن مِلْحان، فصار كأن على وجهه الدهان، أو كالمرآة تنعكس عليه الأشياء[١٥٦].

وأما إخباره ﷺ بالأمور المغيَّبة، فهو لا يدل بالطبع على معرفة الغيب إذ ليس ذلك إلا لله وحده، ولكنه يخبر بما يُعلمه الله بواسطة الوحي، فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - : أن رسول الله ﷺ نعى النجاشي في اليوم الذي مات فيه، خرج إلى المصلى فصفَّ وكبَّر أربعاً[١٥٧].

ومن ذلك إخباره ﷺ عن استشهاد القادة الثلاثة في غزوة مؤتة، قبل وصول الخبر إلى المدينة، فقال ﷺ: «**أخذ الراية زيدٌ فأصيب، ثم أخذها جعفر فأصيب، ثم أخذها عبد الله بن رواحة فأصيب**، وإن عيني رسول الله ﷺ لتذرفان **ثم أخذها خالد بن الوليد من غير إمرةٍ ففُتح له**»[١٥٨].

ومن ذلك ما رواه أبو حُميد الساعدي في سياق قصة غزوة تبوك: «وانطلقنا حتى قدمنا تبوك، فقال رسول الله ﷺ: «**ستهبُّ عليكم الليلة ريح شديدة، فلا يقم فيها أحد منكم، فمن كان له بعير فليشد عقاله**. فهبت ريح شديدة، فقام رجل فحملته الريح حتى ألقته بجبلي طيء»[١٥٩].

وعندما قدَّمت له امرأة طعاماً مع جمع من أصحابه فلاك لقمة في فمه ثم قال: «أجد لحم شاة أُخذت بغير إذن أهلها؟ فقالت المرأة: يا رسول الله إني أرسلت إلى البقيع يُشتري لي شاة. فلم أجد، فأرسلت إلى جار لي قد اشتري شاة أن أرسل إليّ بها بثمنها، فلم يوجد فأرسلت إلى امرأته فأرسلت غلي بها فقال رسول الله ﷺ: **أطعميه الأساري**»[١٦٠].

وأما عصمة الله تعالى له فقد روى الصحابي جابر بن عبد الله (أنه غزا مع رسول الله ﷺ قِبَلَ نجد، فلما قفل رسول الله ﷺ قفل معه، فأدركتهم القائلة في وادٍ كثير العضاه، فنزل رسول الله ﷺ، وتفرق الناس يستظلون بالشجر، فنزل رسول الله ﷺ تحت شجرة وعلق سيفه، ونمنا نومة فإذا رسول الله ﷺ يدعونا وإذ عنده أعرابي فقال: **إن هذا اخترط عليَّ سيفي وأنا نائم فاستيقظت وهو في يده صلتاً، فقال: من يمنعك مني؟ فقلت: الله - ثلاثاً -**، ولم يعاقبه وجلس)(١٦١).

ومما يدل على عصمة الله له ما رواه أبو هريرة - رضي الله عنه - قال: «قال أبو جهل: هل يعفِّر محمد وجهه بين أظهركم؟ قال: فقيل: نعم. فقال: واللات والعُزّى لئن رأيتُه يفعل ذلك لأطأنَّ على رقبته أو لأعفرنَّ وجهه في التراب. قال: فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلي، زعم ليطأ على رقبته. قال: فما فجئتْهُم منه إلا وهو ينكص على عقبيه ويتَّقي بيديه. قال: فقيل له: مالك؟ قال: إن بيني وبينه لخندقاً من نار وهولاً وأجنحة، فقال رسول الله ﷺ: **لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضواً عضواً**»(١٦٢).

وأما إحساس النبات والجماد به ومخاطبته لهما فمن ذلك حديث جابر بن عبد الله قال: «إنَّ امرأة من الأنصار قالت لرسول الله ﷺ: يا رسول الله! ألا

أجعل لك شيئاً تقعد عليه، فإن لي غلاماً نجاراً؟ قال: إن شئتِ. فعملت له المنبر، فلما كان يوم الجمعة قعد النبي ﷺ على المنبر الذي صُنِع، فصاحت النخلةُ التي كان يخطب عندها حتى كادت أن تنشق، فنزل النبي ﷺ حتى أخذها فضمها إليه، فجعلت تئن أنين الصبي الذي يسكت حتى استقرّت»[١٦٣].

ومن ذلك قوله ﷺ: «**إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم عليّ قبل أن أبعث إني لأعرفه الآن**»[١٦٤].

ومن ذلك حديث عائشة - رضي الله عنها -: «كان لآل رسول الله وحش، فكان إذا خرج رسول الله ﷺ اشتدَّ ولعب في البيت، فإذا دخل رسول الله ﷺ سكن ولم يتحرك كراهية أن يؤذيه»[١٦٥].

وقد نهى رسول الله ﷺ رجلاً من الأنصار عن أذى جَمَل قائلاً: «**ألا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملكك الله إياها؟ فإنه شكاك إليَّ وزعم إنك تُجيعه وتُدئبُهُ**»[١٦٦].

وقد رمى رسول الله « المشركين بالتراب في وجوههم في عدة مواقف من السيرة، فكان للتراب أثر في هزيمتهم. كما أخبر شهود عيان من الصحابة رضوان الله عليهم، فأخبر العباس بن عبد المطلب وسلمة بن الأكوع «أنه ﷺ لما غشيه المشركون في غزوة حنين، نزل عن بغلته فأخذ تراباً أو حصيات من الأرض، ثم استقبل به وجوههم فقال: **شاهت الوجوه**، فما خلق الله منهم إنساناً إلا ملأ عينيه تراباً بتلك القبضة فولوا مدبرين»[١٦٧].

وقد أخبر عبد الله بن عباس «أن الملأ من قريش اجتمعوا في الحجر، فتعاهدوا باللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى لو قد رأينا محمداً قمنا إليه قيام رجل واحد فلم نفارقه حتى نقتله.

قال: فأقبلت فاطمة تبكي حتى دخلت على أبيها فقالت له: ما علمت.. « قال: يا بنية أدني وضـوءاً فتوضأ، ثم دخل المسجد فلما رأوه قالوا هو هذا. منهم رجل، فأقبل رسول الله ﷺ حتى قام على رؤوسهم فأخذ قبضة من تراب فحصبهم بها وقال: شاهت الوجوه. قال: فما أصابت منهم حصاة غلا قتل يوم بدر كافراً»[١٦٨].

إذاً شهد المسلمون معجزات كثيرة لرسول الله ﷺ، كانت تزيدهم إيماناً واستبشاراً، وكـانـت متنوعة في جنسها، متكررة في أوقـات عـدديـة، ما بين تكثير المـاء والطعام حتى ليكفي ماء وطعام الاثنين والثلاثة عـدداً كبيراً يبلغ الألف أو يزيد، وما بين تطبيب المرضى بالدعاء والمسح على موضع الأذى، وما بين الأخبار عن أمور مغيبة فتقع كما أخبر، وما بين انصياع الحيوان والنبات والجماد له وهي لا تعقل، وما بين عصمة الله له من القتل، واستجابة الله لدعائه. وقد مال بعض الباحثين إلى إنكار المعجزات الحسية بحجة أنها لا تتمشى مع نمط التفكير العقلي الحديث. ولا تتقبلها الفلسفات الحديثة، ولا مناهج البحث المعاصرة. وقد اعترف هؤلاء بالمعجزة القرآنية وحدها، لأنها محسوسة لأهل هذا العصر يمكنهم دراستها والحكم على أوجه الإعجاز فيها، أما المعجزات الحسية التي وقعت للنبي ﷺ فلا يمكن إخضاعها للدراسة، ولا تتقبلها الأعـراف العلمية السائدة. ونظراً لأن المصادر الإسلامية الصحيحة نقلت أخبار المعجزات الحسية، فإن إنكارها فيه اتهام لشهود العيان من الصحابة رضوان الله عليهم بالكذب أو بضعف العقل

وخلل التصور، بحيث نقلوا أخباراً تصوروها صحيحة وليست كذلك، ولا يخفي ما في الاتهامين من إجحاف وتناقض فقد قبلنا من نفس شهود العيان ما يتعلق بالعقيدة والشريعة، وتعرفنا على أخبار النبي ﷺ فلماذا قبلنا منهم رواياتهم في هذا كله، وأنكرناها عندما تعرضت لأخبار المعجزات الحسية، وإن كانت العلة أن العقل المادي يرفض المعجزات، فإنه يرفض الوحي كله ويرفض الإيمان بالله وبرسالاته، فلا مناص للمؤمن بالغيب من قبول الروايات الصحيحة المتعلقة بالمعجزات الحسية.

منهج الرسول ﷺ في العبادة

لمحة عن الشعائر التعبدية في العهد المكي:

لم تصح رواية في تشريع الوضوء بمكة، ولكن ثمة روايات ضعيفة يسوقها ابن إسحق مرة بمناسبة فرض الصلاة[١٦٩]، وأخرى في قصة إسلام عمر بن الخطاب[١٧٠]، ويستشف من الآية المكية ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾[١٧١] إن الوضوء شرع بمكة، وقد رجح ذلك السهيلي[١٧٢].وبه قال جمهور العلماء[١٧٣]. رغم أن الآية الكريمة المتعلقة بالوضوء نزلت بالمدينة باتفاق وهي: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا

فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾[١٧٤] وقد أسمتها عائشة - رضي الله عنها - آية التيمم، ربما للإشارة إلى أن الوضوء كان مفروضاً قبل أن يكون قرآناً يتلى[١٧٥].

وكانت قبلة الصلاة بمكة نحو بيت المقدس، فكان النبي ﷺ يقف بين الركنين اليماني والأسود، فيجمع بين استقبال الكعبة وبيت المقدس[١٧٦].

وقد ورد ذكر الصلاة في عدة سور مكية مثل الآية ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى (٩) عَبْداً إِذَا صَلَّى﴾[١٧٧] والآية ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾[١٧٨] و﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى (١٤) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾[١٧٩] و﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (٤٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾[١٨٠].

وتشير بعض الأخبار الضعيفة إلى أن أوائل المسلمين كانوا يصلون، لكنها لا توضح كيفية صلاتهم، ولا عدد ركعاتها إن كان فيها ركوع. ولكنها تذكر أن النبي ﷺ كان يخرج مع علي - رضي الله عنه - إلى شعاب مكة يصليان سراً[١٨١]. وأن الصحابة الخمسة الذين دعاهم أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - أسلموا وصلوا[١٨٢]، على أن عائشة - رضي الله عنها - ذكرت في حديث صحيح أن الصلاة كانت أول رضها ركعتين ركعتين في الحضر والسفر[١٨٣]»، وبيّنَ المزني - صاحب الإمام الشافعي - أن الصلاة قبل حادث الإسراء والمعراج كانت صلاة قبل غروب الشمس وصلاة قبل طلوعها[١٨٤].

وفي حادثة الإسراء والمعراج قبل الهجرة بسنة - في رواية مرسلة للزهري - فرضت الصلاة في خمسة أوقات[١٨٥]، وحدد عدد ركعاتها، ثنتان للصبح وثلاث للمغرب وأربع للظهر والعصر والعشاء، في السفر والحضر، ثم قصرت الصلاة الرباعية في السفر بعد الهجرة إلى المدينة فصارت ركعتين فقط للمسافر[١٨٦].

وكان المسلمون في المرحلة المكية يؤدون الصلاة سراً[١٨٧]، خوفاً من بطش المشركين، ونادراً ما جهروا بصلاتهم كما فعلوا مرة عند إسلام عمر بن الخطاب

ويتمثل منهج الرسول ﷺ في العبادة بإقامة الفرائض والإكثار من النوافل. والاهتمام بالعبادات القلبية من ذكر وخشوع وإنابة رغم غفران الله له ورضاه عنه

حيث صلى معه بعضهم في [188] الكعبة. وكان الكلام في الصلاة مثل رد السلام وتشميت العاطس مسموحاً به ثم نهي عن الكلام في الصلاة بعد الهجرة الأولى إلى الحبشة من المرحلة المكية[189].

وقد شرع قيام الليل بنزول سورة المزمل في المرحلة المكية ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً (٢) نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً (٤) إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً (٥) إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَأَقْوَمُ قِيلاً (٦) إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحاً طَوِيلاً (٧) وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً ﴾[190].

وفي المرحلة المكية شرعت الزكاة بمعناها العام، وهو الحثُّ على الصدقات وإعطاء المحروم وإطعام المسكين دون تحديد للأنصبة والمقادير، فوصفت السور المكية المؤمنين بأنهم ﴿لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾ و﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ وله ﴿حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾[191]. أما تحديد النصاب ومقادير الزكاة فقد شرع في سنة اثنتين من الهجرة[192].

وأما صلاة الجمعة، فقد كانت قبل هجرة النبي ﷺ إلى المدينة المنورة، وقد تمكن المسلمون في المدينة من أدائها، فقد روى أبو داؤد بإسناد حسن قول كعب بن مالك الأنصاري: «أول من جمع بنا أسعد بن زرارة في هزم البيت، في نقيع يقال له: نقيع الخضعات.. وقال كعب إنهم كانوا أربعين رجلاً»[193].

لقد تأخرت بعض الفرائض التي اعتبرت من أركان الإسلام إلى المرحلة المدنية مثل الصوم والحج أما الصوم فقد كانت فرضيته يوم الاثنين لليليتين خلتا من شعبان من السنة الثانية من الهجرة وأما الحج فقد فرض سنة ست للهجرة، وابن القيم أن افتراضه كان سنة تسع.

ويتمثل منهج الرسول ﷺ في العبادة بإقامة الفرائض والإكثار من النوافل، والاهتمام بالعبادات القلبية من ذكر وخشوع وإنابة رغم غفران الله له ورضاه عنه.

انغمر قلب رسول الله ﷺ بمحبة الله تعالى، ولم يعد يفيض الا الذكر والشكر. قلبه الذي ينبض بذكر الله ويخفق بشكره لا يسعه الا المضي في السبيل الذي اعتاده

قال تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً (١) لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾[194]،وقد نزلت سورة الفتح في طريق عودة المسلمين من الحديبية إلى المدينة، بعد عقد صلح الحديبية، وكان فرح الرسول ﷺ بها عظيماً، لما فيها من إقرار لموافقته على الصلح، وكذلك فإن الآية أخبرت رسول الله ﷺ بالبشارة العظيمة ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾.

فما كان حال النبي الموعود بغفران الذنوب؟ هل ترك العمل وجنح إلى الراحة؟ وهل قلل ذلك الغفران من جده في العبادة واجتهاده في الجهاد، وهل قنع بما قدم وطوى صفحات الكفاح في السلم والحرب؟

إن رسول الله ﷺ لم يفعل ذلك، بل مضى دءوباً في ملء أشواق روحه، وتطلعات قلبه الذي انغمر بمحبة الله تعالى، ولم يعد يفيض إلا الذكر والشكر، قلبه الذي ينبض بذكر الله ويخفق بشكره لا يسعه إلا المضي في السبيل الذي اعتاده، لقد بلغ الستين من عمره أو كاد حين نزول سورة الفتح، وكان العقدان الأخيران حافلين بمهام جسيمة تمثلت في حمل أعباء الرسالة وتبليغها، ومقارعة خصومها بالحجة والبيان في مكة، ثم بالحجة والسنان في المدينة وهو في صراعه الطويل من أجل الحق لا يدع التزود من طاقات الروح الهائلة بوصلها بالخالق القدير، فكان كما قالت عائشة - رضي الله عنها -: «كان يصلي ليلاً طويلاً قائماً، وليلاً طويلاً قاعداً، فإذا قرأ وهو قائم ركع وسجد وهو قائم، وإذا قرأ وهو جالس ركع وسجد وهو جالس»[195].

ولم يكن يكلف نفسه فوق ما تطيق، بل يعمل ما يتيسر له حسب مراحل عمره وقوة جسده، فلما ثقل جسمه الشريف ولم يعد يطيق القيام الطويل في صلاة التطوع

وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ

اعبد الله وكن كما كان نبيك عبداً شكوراً

أخذ يصلي قاعداً، قالت عائشة رضي الله عنها: «إن النبي ﷺ لم يمت حتى كان أكبر صلاته وهو جالس»[١٩٦].

وكان قيامه لصلاة الليل طويلاً، وكان أصحابه رضوان الله عليهم لا يطيقون ما يطيق قال عاصم بن ضمرة، سألت علياً كرم الله وجهه عن صلاة رسول الله ﷺ فقال: «إنكم لا تطيقون ذلك»[١٩٧].

وعن عبد الله بن مسعد قال: «صليت ليلة مع رسول الله ﷺ فلم يزل قائماً حتى هممتُ بأمر سوء. قيل له وما هممت به؟ قال:هممت أن أقعد وأدع النبي ﷺ[١٩٨]!» فعبد الله بن مسعود لم يكن يطيق - على ما عرف عنه من كثرة العبادة - ما يطيق رسول الله ﷺ حتى خطر في ذهنه أن يجلس في الصلاة، ويدع رسول الله قائماً لفرط تعبه، لكنه م يفعل وغالب الخطرة، لكنه لم ينس الموقف وأخبر الناس بطول صلاة رسول الله ﷺ ترغيباً لهم في العبادة وحثاً على الاقتداء بالنبي المغفور له، الذي يعبد الله تعالى تحت شعار «أفلا أكون عبداً شكوراً» فكيف بمن لا يدري إلى أين يصر إلى الجنة أم النار؟.

لقد وصف لنا عبد الله بن عباس - رضي الله عنه - كيف يمضي رسول الله ﷺ ليله، فقد بات ابن عباس عند خالته ميمونة - وهي أخت أمه لأبيه - فشاهد ما حدث وحدَّثَ به قال: «فاضطجعت في عَرْض الوسادة، واضطجع رسول الله ﷺ في طولها، فنام رسول الله ﷺ حتى إذا انتصفَ الليل، أو قبله بقليل، أو بعده بقليل، فاستيقظ رسول الله ﷺ، فجعل يمسح النوم عن وجهه، وقرأ العشرَ الآيات الخواتمَ من سورة آل عمران. وقال إلى شِنّ - أي قِربة - مُعلَّق فتوضأ منها، فأحسن الوضوء، ثم قام يصلي.

قـال عـبـد الـلـه بـن عـبـاس: فـقـمـت إلى جنبه، فذكر صلاته اثنتي عشر ركعة، ثم أوتر، ثم نام حتى جاءه المؤذن فقام فصلى ركعتين خفيفتين ثم خرج فصلى الصبح»[١٩٩].

وكانت قراءته للقرآن يمدُّها، ويقطعها فيقول ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ثم يقف، ثم يقول ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ثم يقف. وكان ربما أسرَّ بالقراءة، وربما جهر، وكان يرجِّع صوته بالقراءة - يرددها - وكل ذلك ثابت عنه بالأحاديث الصحيحة[٢٠٠].

وأحياناً كانت قراءته تختلط ببكائه، وبسمع نشيجه كما في حديث عبد الله بن الشخيِّر قال: أتيتُ رسول الله ﷺ وهو يصلي، ولجوفه أزيز كأزيز المِرْجل من البكاء «وكيف لا يتأثر رسول الله ﷺ بالقرآن فيبكي وهو أعرف الناس بالله، وأوعاهم بالحق الذي أنزل عليه، وقد عرف وأبصر من أمور الغيب في الإسراء والمعراج ومباشرة الوحي ما ملأه علماً وخيةً وفكراً وتأملاً[٢٠١]».

وكان ﷺ يحب أن يسمع القرآن بصوت الآخرين من الصحابة مثل أبيّ بن كعب وعبد الله بن مسعود وأبي موسى الأشعري من أصحاب الحفظ والتجويد والأصوات الحسنة بالقرآن.

قال عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه -: «قال لي رسول الله ﷺ: «**اقرأ عليّ**». فقلت: «يا رسول الله أقرأ عليك وعليك أُنزل»؟. قال: «**إني أحب أن أسمعه من غيري**». فقرأتُ سورة النساء حتى بلغت ﴿وجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيداً﴾ قال: «فرأيتُ عيني رسول الله تَهْمِلان» - متفق عليه -[٢٠٢].

وروى الإمام البخاري بسنده إلى أنس بن مالك قال: إن نبي الله ﷺ قال لأبي بن كعب: إنَّ الله أمرني أن أقرئك القرآن. قال: الله سمّاني لك؟ قال: نعم. قال : وقد ذكرت عند رب العالمين؟ قال: نعم. فَذَرفَت عيناه»[٢٠٣].

وكان ﷺ يعجبه صوت أبي موسى الأشعري وقد شبهه لحسنه بمزامير آل داوُد.

وهكذا سمع القرآن بأصوات الصحابة رضوان الله عليهم.

كان الرسول ﷺ يهدف الى توثيق صلة ا لقلب بالله بصورة دائمة، كما عبرت عائشة ـ رضى الله عنها ـ بقولها كان عمله ديمة

وكان يصلي التطوع في بيته، ويؤم الصحابة في المسجد في الصلوات الخمس المكتوبة، وقد سئل عن الصلاة في البيت والمسجد فقال: «**قد ترى ما أقرب بيتي من المسجد، فلأن أصلي في بيتي أحب من أن أصلي في المسجد إلا أن تكون صلاة مكتوبة**[٢٠٤]» وذلك لأن صلاة الجماعة في المسجد خمس أوقات تحقق أغراضاً نافعة؛ منها اجتماع المسلمين في الأماكن المتقاربة في مكان واحد مما يؤدي إلى تعارفهم، وتعاونهم على البر والتقوى، وتفقدهم لأحوال بعضهم، ومنها إقامة شعائر الإسلام بمظهر يدل على القوة والغلبة للإسلام وأهله.

ثم إن صلاة المكتوبات في المسجد أعظم أجراً، لأن صلاة الجماعة تفضل صلاة الفذّ بسبع وعشرين درجة، كما أخبر الرسول ﷺ. وأما صلاة التطوع فإن أدائها في البيت بعيداً عن الأعين يَبعُدُ بصاحبها عن الرياء والخيلاء ويقربه من الإخلاص، ويجعله قدوة لأهل بيته ممن ليس يحضر صلاة الجماعة من النساء، وأصحاب الأعذار.

وهكذا كنت صلوات رسول الله ﷺ في بيته في جوف الليل، وفي صلاة الضحى وفيما بين الصلوات المكتوبة، فقد جعلت قرة عينه في الصلاة، فهي معراج المؤمن، وكانت آخر ما أوصى به رسول الله ﷺ أصحابه وهو يودع الدنيا وينتقل إلى الرفيق الأعلى: «**الصلاة وما ملكت أيمانكم**»[٢٠٥].

وكان الرسول ﷺ يهدف إلى توثيق صلة ا لقلب بالله بصورة دائمة، كما عبَّرت عائشة - رضي الله عنها - بقولها: «كان عمله دِيمةً» وقالت مرة وشاركتها القول

أم سلمة، وقد سئلتا: أيّ العمل كان أحب إلى رسول الله ﷺ؟ قالتا: «ما ديم عليه وإن قلّ»[٢٠٦].

وكان ينوّع في عبادته ما بين صوم وصلاة وذكر وتعليم وجهاد، قال عوف بن مالك: كنت مع رسول الله ﷺ ليلةً، فاستاك ثم توضأ ثم قام يصلي، فقمتُ معه، فبدأ فاستفتح البقرة، فلا يمر بآية رحمةٍ إلا وقف فسأل، ولا يمرُّ بآية عذابٍ إلا وقف فتعوَّذ ثم ركع، فمكث راكعاً بقدر قيامه، ويقول في ركوعه: **«سبحان ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة»** ثم قرأ «آل عمران» ثم سورة ثم سورة، يفعل مثل ذلك»[٢٠٧].

وكان ﷺ كثير الصوم. قال أنس بن مالك - رضي الله عنه -: «كان يفطر من الشهر حتى نظن أن لا يصوم منه، ويصوم حتى نظمن أن لا يفطر، وكان لا تشاء أن تراه من الليل مصلياً إلا رأيته، ولا نائماً إلا رأيته»[٢٠٨].

وقد ذكرت عائشة - رضي الله عنها - «أنه كان يتحرّى صوم الاثنين والخميس»[٢٠٩] وقد بيّن رسول الله ﷺ سبب تحرّيه الصوم يومي الاثنين والخميس بقوله: **«تُعرض الأعمال يوم الاثنين والخميس فأُحبَّ أن يعرض عملي وأنا صائم»[٢١٠]**.

ومنهجه في الاتصال الدائم بالله لا يختل سواء كان في صلاة أو صوم أو كان مضطجعاً، قالت عائشة - رضي الله عنها - يا رسول الله أتنام قبل أن توتر؟ فقال: **«يا عائشة إن عينيَّ تنامان ولا ينام قلبي»[٢١١]**.

فقد كان يذكر الله على كل أحيانه، فإذا نام ذكر الله قائلاً: **«باسمك ربي وضعت جنبي وبك أرفعه، إن أمسكت نفسي**

وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَـٰبِكُمْ

فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين»[٢١٢].

وإذا استيقظ قال: «الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور»[٢١٣].

وعن عائشة - رضي الله عنها - قالت: «كان رسول الله ﷺ إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه ثم نفث فيهما فقرأ فيهما ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾. ثم يمسح ما استطاع من جسده، يبدأ بهما على رأسه ووجهه، وما أقبل من جسده، يفعل ذلك ثلاث مرات»[٢١٤].

وعن أنس بن مالك: أن رسول الله ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه قال: «الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وكفانا وآوانا، فكم ممّن لا كافي له ولا مُؤوي»[٢١٥].

فدعواته ﷺ عند النوم فيها معاني التسليم لله تعالى وأنه لا حول ولا قوة للإنسان إلا بالله، وأن الله وحده المحيي والمميت، وإنه يستحق الحمد على النوم والاستيقاظ والطعام والشراب والكفاية عن سؤال الناس والإيواء بما يحمله من معاني الطمأنينة والستر، وما أعظم دلالات قوله ﷺ: «فكم ممن لا كافي ولا مؤوي». نعم كم من الناس على وجه الأرض لا يجد كفايته ويسأل غيره العون، إن الجياع أكثر من الطاعمين، والعراة أكثر من الكاسين، ومن عندهم المال ولا يحسون بالكفاية بل يدفعهم الطمع والحرص على جمع المال من كل سبيل إلى القلق وعدم الإحساس بالكفاية.

القناعة هي الرضى النفسي والعقلي وهي تجعلك شامخا كالطود أمام الأعاصير

دع القلق ، كيف لا تطمئن نفس من لاذ بربه ، طاعتك لربك سر سعادتك ، وصلاتك تجلو كدر أيامك

ومن درس سيرة رسول الله ﷺ، وعرف قلة ما عنده من طعام وأثاث وأشياء أدرك معنى الزهد والقناعة والإحساس بالكفاية.

ثم إن رسول الله ﷺ يعلم أصحابه أن ينظروا إلى من دونهم من لناس، ولا ينظروا إلى من فوقهم، فمن نظر إلى من دونه عرف عظيم نعمة الله تعالى عليه، وقنع بما أعطاه، وأحس الرضا بالقدر والحمد لله على الإيواء، فلا يقلق لمصاب،ولا ينخلع قلبه خوفاً من مواجهة الأحداث الثقيلة والتقلبات العنيفة بل هو شامخ كالطود أمام أعاصير الحياة.

وكيف لا تطمئن نفس من آواه الله الذي أحاط بكل شيء علماً، والذي لا تعزب عنه مثقال حبة في لأرض ولا في السماء والذي ليس لقدرته حدود ولا لأمره رد؟

وقد روى الإمام مسلم في صحيحه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**من صلَّى الصبح فهو في ذمة الله، فلا يطلُبَنَّكم الله من ذمته بشيء، فإنه من يطلبه من ذَمته بشيء يدركه ، ثم يكبُّه على وجهه في نار جهنم**»[٢١٦].

فأي أمان للإنسان أعظم من أمان الله، وأن يكون في ذمة الله وعهده وحفظه، وكان رسول الله ﷺ إذا صلى الصبح يقعد في مصلاه يذكر الله تعالى حتى تطلع الشمس[٢١٧] ثم لا يزال بعدها يشكر نعم الله، فإذا طعم طعاماً أو شرب شرابًا أو لبس جديداً دعا الله تعالى شاكراً حامداً، فإذا ارتفعت الشمس تطوع لله بأربع وهي صلاة الضُّحى، وكان أبو هريرة - رضي الله عنه - يقول: «أوصاني خليلي ﷺ بصيام ثلاثة أيام من كل شهر، وركعتي الضُّحى، وأن أوترَ قبل أن أرقُد»[٢١٨].

وفي الحديث القدسي أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ الله عز وجل يقول يا ابن آدم اكفني أوَّل النهار بأربع رَكَعات أكْفِكَ بهن آخر يومك»[٢١٩] ولا يزال رسول الله ﷺ يحصِّن نفسه ليلهُ ونهارَه بالأدعية والأذكار، ويعلم أصحابه ذلك، فعن شداد بن أوس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «سيِّدُ الاستغفار أن تقول اللهم أنت ربّي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذُ بك من شرِّ ما صنعتُ، أبوءُ لك بنعمتك عليَّ وأبوءُ بذنبي، فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت»[٢٢٠].

وكان رسول الله ﷺ يعلم أصحابه صلاة الحاجة وصلاة التوبة وصلاة الاستخارة، فكانوا يرتبطون بالله تعالى في صلوات كثيرة، فلا يخلو إنسان من ذنب كبير أو صغير ففي الحديث «كل ابن آدم خطاء وخير الخطاءين التوابون»[٢٢١] ولا ينفك المرء عن حاجة تعرض له صغرت أو كبرت فعن عثمان ابن حُنيف - رضي الله عنه -: أن أعمى أتي إلى الرسول ﷺ فقال: يا رسول الله أدعُ الله أن يكشف للي عن بصري، قال: أو أدعُك. قال: يا رسول الله إنَّه قد شق عليّ ذهاب بصري قال: فانطلق فتوضأ ثم صلِّ ركعتين

ثم قل: اللهمّ إني أسألك وأتوجَّهُ إليك بنبييٍّ محمد ﷺ نبيّ ا لرحمة. يا محمد: إني أتوجَّه إلى ربّي بك أن يكشف لي عن بصري. اللهمّ شفعه فيّ وشفعني في نفسي فرجع وقد كشف الله عن بصره»[٢٢٢].

نبي الرحمة

قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[٢٢٣].

فالرسول عربي قرشي معروف النسب، لم يطعن أحد في صحة نسبه، وكرم محتده، فمخاطبة الله تعالى للعرب بان الرسول من أنفسهم تذكير لهم بأنه لهم ناصح ومحب، وعليهم مشفق، وعلى هدايتهم حريص، وأنه بهم رفيق وعليهم مشفق، يشق عليه ضلالهم ويفرح لهدايتهم، ووردت أحاديث كثيرة تبين بعض مظاهر الرحمة المهداة، والمتمثلة بالمصطفى ﷺ، فمن ذلك وفاته ﷺ قبل أمته ليكون لها سلفاً ففي الحديث القدسي: « إذا أراد رحمةَ أمةٍ من عباده قبض نبيها قبلها، فجعله لها فَرَطا وسلفا بين يديها، وإذ أراد هلكة أمة عذّبها، ونبيها حيٌّ فأهلكها وهو ينظر، فأقر عينه بهلكتها حين كذبوه وعصوا أمره»[٢٢٤].

ومن وقائع السيرة النبوية أن ثقيفاً آذت رسول الله ﷺ عندما ذهب إلى الطائف يدعوهم إلى الإسلام حتى رشقوه بالحجارة وأدموا قدميه، وخيّره الله أن يعاقبهم فيطبق عليهم الجبال، فقال ﷺ: **«بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً»**(٢٢٥).

وكان ﷺ آمناً لأمته في حياته، كما أن الاستغفار أمنٌ لها بعد وفاته قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾(٢٢٦) وهو في حياته ومماته رحمة وخير للمؤمنين. قال ﷺ **«حياتي خير لكم: تحدِثُون ويُحْدَثُ لكم، ووفاتي خير لكم تعرض عليَّ أعمالكم، فما رأيت من خير حمدت الله عليه، وما رأيت من شر استغفرت الله لكم»**(٢٢٧).

وهو رحمة عامة كما في القرآن ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾(٢٢٨) كما أنه نور يضيء طريق الهداية لناس قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً (٤٥) وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُّنِيراً ﴾(٢٢٩).

وعن أنس بن مالك - رضي الله عنه -: «لما كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة، أضاء من المدينة كل شيء، فلما كان اليوم الذي مات فيه رسول الله ﷺ أظلم كل شيء، وما فرغنا من دفنه حتى أنكرنا قلوبنا»(٢٣٠).

وقد منح الله تعالى الأنبياء دعوة مستجابة، فتعجلوها ودعوا بها، أما الرسول الكريم فقد ادخرها لأمته كما في الحديث: «**لكل نبي دعوة مستجابة**

فعجل كل نبي دعوته، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة»[٢٣١].

وتتجلى في رسالة النبي الكريم كل معاني الرحمة، فقد رفع الله عن أمته الإصر والأغلال التي كانت على الأمم السابقة، فيسر لها الدين ورفع عنه الحرج ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[٢٣٢].

وقد امتلأت نفس الرسول الكريم بالرحمة، وأوصى أتباعه بأن يكونوا رحماء كما وصفهم القرآن ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾[٢٣٣].

قال أنس بن مالك - رضي الله عنه - «ما رأيت أحداً كان أرحم بالعيال من رسول الله ﷺ[٢٣٤]». وقال زيد بن حارثة: «أرسلت ابنة النبي ﷺ أن ابناً لي قبض فأتنا، فأرسل يقرىء السلام ويقول: إنَّ لله ما أخذ وله ما أعطى، وكل عنده بأجل مسمى فلتصبر ولتحتسب، فأرسلت إليه تسم عليه ليأتينّها، فقام ومعه سعد بن عبادة ومعاذ بن جبل وأبي بن كعب وزيد بن ثابت ورجال، فرُفع إلى رسول الله ﷺ الصبيُّ ونفسه تتقعقع ففاضت عيناه، فقال سعد: يا رسول الله ما هذا؟ فقال: هذه رحمة جعلها الله تعالى في قلوب عباده. وإنما يرحم الله من عباده الرحماء»[٢٣٥].

وكان رسول الله ﷺ إذا أمّر أميراً على جيش أو سرية أوصاه: «.. **ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدا**»[٢٣٦].

وقد شملت رحمته ووصاته بالرحمة الحيوان فضلاً عن الإنسان فعن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال: «كنا مع النبي ﷺ، فمررنا بقرية نمل قد أحرقت، فغضب النبي ﷺ وقال: «**انه لا ينبغي لبشر أن يعذِبَ بعذاب الله عز وجل**»»[٢٣٧].

عن سعيد بن جبير قال: «مرَّ ابن عمر بنفر قد نصبوا دجاجة يترامونها، فقال ابن عمر: من فعل هذا؟ إن رسول الله ﷺ لعن من فعل هذا»[٢٣٨].

وقال رجل للنبي ﷺ: يا رسول الله إني لأذبح الشاة وأنا أرحمها، فقال النبي ﷺ: **«والشاة إن رحمتها رحمك الله»**[٢٣٩].

وقال ﷺ: **«إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القِتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذِبحَ، وليحدَّ أحدكم شفرتَه، فليُرح ذبيحتَه»**[٢٤٠].

وكان الرسول الرحيم يضرب لأصحابه الأمثال، ويحكي لهم من أخبار الماضين ما يرسم في نفوسهم الرحمة، قال لهم مرة: **«بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش، فوجد بئراً فنزل فيها فشرب ثم خرج فإذا كلب يلهث، يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ مني، فنزل البئر فملأ خفَّه ماء ثم أمسكه بفيه حتى رقِيَ، فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له. قالوا: يا رسول الله، وإنَّ لنا في البهائم لأجرا؟ فقال: في كل كبدٍ رطبةٍ أجر»**[٢٤١].

وهذا غيض من فيض، وكله يشهد لهذا النبي الكريم بأنه «رحمة مهداة» وأنه غرس معاني

الرمة في أصحابه، وأوصاهم بها وملأ تعاليمه بذكرها، وشمل به كل ذي روح من إنسان وحيوان، وسبق بذلك كل لوائح حقوق الإنسان الحديثة، وكل جمعيات البر والرفق بالحيوان مما يحسبه الناس من خصائص الحضارة الغربية وعطائها.

فلا عجب أن كانت بعثته رحمة للعالمين، وأن يعبر عن جوهر رسالته بقوله ﷺ: «**يا أيها الناس إنما أنا رحمةٌ مهداة**»[٢٤٢].

وسوف تظل تعاليمه تمسح جراحات المعذبين وتلمس حنايا المستضعفين وتلين قلوب المتجبرين وتملأ الحياة بالحب والدفء والرحمة.

محبة الرسول من الإيمان

قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[٢٤٣].

دلت هذه الآية على وجوب محبة الرسول ﷺ ووضعت ميزاناً لهذه المحبة تقاس به، فليس المطلوب أن يحب المؤمن رسول الله كحبه لأبيه وبنيه وأهله وماله، بل ينبغي أن ترجح كفة محبة الله ورسوله على سائر ما يحب، فلا يكون في قلبه محبة لشيء تزيد على محبته للرسول ﷺ، لأن الرسول سبب خروجه من ظلمات الجهالة والضلال وسعادته بالعلم والهداية، وإنقاذه من ضنك الدنيا وعذاب الآخرة، فنعمة الإيمان الحاصلة بسببه أعظم من سائر النعم وأكبر من

كل الفوائد، فحق على من أدرك عظمة هذه النعمة أن يحب من أوصلها إليه، وقد أدرك الصحابة رضوان الله عليهم هذه المعاني فتعلقوا برسول الله اشدَّ التعلق، وأحبوه أعظم الحب، وفدوه بالنفس والأهل والمال، قال صفون بن عسّار المُرادي: كنا مع النبي ﷺ في سفر، فبينا نحن عنده إذ ناداه أعرابي بصوت له جهوري: يا محمد. فأجابه رسول الله ﷺ نحواً من صوته: **هاؤم**، وقلنا له: ويحك اغضض من صوتك فإنك عند النبي ﷺ وقد نهيت عن هذا. فقال: والله لا أغضض، قال الأعرابي: المرء يحب القوم ولما يلحق بهم. قال النبي ﷺ: **المرء مع من أحبَّ يوم القيامة**[٣٤٤].

ففي هذا الحديث بيان فضل حب الله ورسوله والأخيار الصالحين من المؤمنين.

قال أنس رضي الله عنه: فما فرحنا بعد الإسلام فرحاً أشد من قول النبي ﷺ (**فإنك مع من أحببت**)[٣٤٥].

قال القرطبي: وإنما كان فرحهم بهذا القول عنه ﷺ أشدَّ من فرحهم بسائر أعمال البر، أنهم لم يسمعوا أن في أعمال البر ما يحصل به ذلك المعنى من القرب من النبي ﷺ والكون معه إلا حبَّ الله ورسوله، فأعظم بأمر يلحق المقصرَ بالمشهِّر، والمتأخر بالمتقدم. ولما فهم أنس أن هذا اللفظ محمول على عمومه علق به رجاءه وحقق فيه ظنه فقال: أنا أُحبُّ الله ورسوله ﷺ وأبا بكر وعمر فأرجو أو أكون معهم وأن لم أعمل بعملهم.

وقد بيَّنَ النبي ﷺ حدود المحبة اللازمة عندما قال له عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «يا رسول الله أنت أحبُّ إليَّ من كل شيء إلا من نفسي».

فقال: لا والذي نفسي بيده، حتى أكون أحب إليك من نفسك.

فقال له عمر: فإنك الآن والله لأنت أحب إليَّ من نفسي.

فقال: «الآن يا عمر»[٢٤٦]. وعلامةُ هذه المحبة اتباع الرسول ﷺ، وعدم التقدم عليه بالقول أو العمل، فلا يكون رأي الإنسان أحبُّ إليه من حديث الرسول ﷺ وحُكمه، وعلامةُ حدود المحبة وبلوغها المرتبة الواجبة أن تكون نصرةُ السنَّة والذبُّ عن الشريعة أحبَّ لديه من رعاية مصالحه والحفاظ على نفسه وأهله وماله وجاهه، لقول النبي ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من ولده ووالده والناس أجمعين»[٢٤٧].

وقوله: «ثلاث من كُنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان، أن يكون الله ورسولُهُ أحبُّ إليه ما سواهما، وأن يحبَّ المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار»[٢٤٨].

قال البيضاوي: المراد بالحب هنا الحب العقلي الذي هو إيثار ما يقتضي العقل السليم رجحانه، وإن كان على خلاف هوى النفس؛ كالمريض يعاف الدواء بطبعه فينفر عنه، ويميل إليه بمقتضى عقله فيهوى تناوله، فإذا تأمل المرء أن الشارع لا يأمر ولا ينهى إلا بما فيه صلاح عاجل أو خلاص آجل. والعقل يقتضي رجحان جانب ذلك، تمرن على الائتمار بأمره بحيث يصير هواه تبعاً له، ويلتذ

بذلك التذاذا عقلياً، إذ الالتذاذ العقلي إدراك ما هو كمال وخير من حيث هو كذلك. ومما يستدعي محبة الرسول التفكرُ في عظم رسالته وجهاده في تبليغها طيلة حياته، حرصاً على هداية أكبر عدد من الناس، حتى إن الله تعالى امتنّ على العباد ببعثته ﷺ فقال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾[٢٤٩].

وجاء في صحيح مسلم عن معاوية رضي الله عنه «أن رسول الله ﷺ خرج على حلقة من أصحابه فقال: **ما أجلسكم؟** قالوا: جلسنا نذكر الله ونحمده على ما هدانا لدينه ومنّ علينا بك. فقال لهم: **أتاني جبريل فأخبرني أن الله عز وجل يُباهي بكم الملائكة**»[٢٥٠].

وهذه المحبة التي ربطت بين النبي ﷺ والصحابة رضي الله عنهم حملتهم على افتدائه بأرواحهم وأهليهم وأموالهم.

هذا أنس بن النضر رضي الله عنه رأى بعض المسلمين قعوداً محتارين، بعد أن أشاع المشركون خبر مقتل رسول الله ﷺ في غزوة أحد، فصاح بهم: «**واها لريح الجنة أجد دون أُحُد**» فقاتل حتى قُتل، ووجد في جسده بضع وثمانون أثراً من بين ضربة ورمية وطعنة، حتى ما عرفته أخته الربيع بنت النضر إلا ببنانه، ونزلت فيه وفي أمثاله من المجاهدين الصادقين هذه الآية ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾[٢٥١].

وقد أرسل الرسول ﷺ زيد بن ثابت بعد المعركة يتفقد أنس بن النضر، فوجده بين القتلى وبه رَمَق، فما كان منه - بعد أن ردّ على سلام الرسول ﷺ إلا أن قال: «أجدني أجد ريح الجنة، وقل لقومي من الأنصار: لا عذر لكم عند الله إن يخلص إلى رسول الله ﷺ وفيكم شفر يطرف» وفاضت عيناه[٢٥٢].

فيا لها من وصية تفوح بالحب الذي لا يؤثر فيه الموت وآلام الجراح. وكان أبو طلحة الأنصاري يحمي الرسول ﷺ ويرمي بين يديه ويقول: «إني لأتشرف أن يصيبني سهم من سهام القوم نحري دون نحرك»[٢٥٣].

ورغم هذا الحب العميق لرسول الله ﷺ ومفاداتهم له بالنفس والنفيس، فإنّ عقائد المسلمين استقامت بفضل الله، فلم يتجاوزا صفة النبوة، ولم ينسبوا إلى نبيهم صفات الألوهية، ولم يعبدون من دون اله، بل كان صوته ﷺ يتردد في عقولهم (**أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد**)[٢٥٤] ومن قبله تذكير القرآن ببشرية الرسول ﷺ ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ﴾[٢٥٥].

وإنه يصيبه ما يصيب البشر ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللّهُ الشَّاكِرِينَ﴾[٢٥٦].

وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَٰبِكُمْ

أمهات المؤمنين

إن تصفح سيرة المصطفى ﷺ يعطي صوراً مشرقة عن خلقه الكريم ﷺ في معاملة الناس جميعاً، ولكن سلوكه في بيته ومع أزواجه له دلالته الخاصة على رقة طباعه، وعمق عاطفته، وقدرته الفذّة على مراعاة مشاعر أزواجه واحترام رغباتهن، ما دامت لا تخرج عن حدود الشرع وأحكامه.

هذه عائشة رضي الله عنها تحج معه ﷺ فتمنعها حيضتها من أداء العمرة مع الناس، فلما أراد الرسول ﷺ العودة إلى المدينة قالت: يا رسول الله تعودون بحج وعمرة، وأعود بحجة وحدها. فإذا بالرسول يشفق أن تعود زوجه وهي تشعر بفوات بعض الفضل والخير عليها، فيتوقف ويطلب من أخيها عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما أن يصحبها إلى التنعيم حيث تحرم بالعمرة[٢٥٧].

في غزوة المريسيع (بني المصطلق) يوقف الجيش كله لأن عقداً لعائشة انفرط منها فهي تجمع حباته من بين الرمال.. وعندما تحضر الصلاة ولا يجد المسلمون الماء للوضوء فتنزل آية التيمم ويعبر أحد الصحابة عن إحساسه بالحب لأبي بكر وآله واعترافه بفضل هذه العائلة وبركتها يقول: « **هذه إحدى بركاتكم يا آل أبي بكر**»[٢٥٨].

وروى البخاري أنه ﷺ لما رجع من غزوة خيبر وتزوج صفية بنت حيي كان يدير كساء حول البعير الذي تركبه يسترها به، ثم يجلس عند بعيره فيضع ركبته فتضع صفية رجلها على ركبته حتى تركب!!

ولم يكن هذا المشهد بعيداً عن أعين الناس، بل كان على مشهد من جيشه المنتصر.. كان يعلمهم أن الرسول البشر والنبي الرحمة والقائد المظفر لا ينقص من قدره أن يوطيء أكنافه لأهله، وأن يتواضع لزوجه،وأن يعينها ويسعدها.

ويتجلى موقف رائع يصور عظمة خلق الرسول الكريم حين دخل على امرأة كان قد عقد عليها هي الجونية، روى البخاري من حديث أبي أسيد الساعدي قال: «خرجنا مع النبي ﷺ حتى انطلقنا إلى حائط يقال له الشوط حتى انتهينا إلى حائطين جلسنا بينهما، فقال النبي ﷺ: **اجلسوا هاهنا**، ودخل، وقد أُتي بالجونية، فأنزلت في بيت في نخل في بيت أميمة بنت النعمان بن شراحيل، ومعها دايتها - حاضنة لها - فلما دخل عليها النبي ﷺ قال: هبي نفسك لي. قالت: وهل تهب المَلِكةُ نفسَها للسُّوقة (ولم تعرف أنه رسول الله) قال: فأهوى بيده يضع يده عليها لتسكن. فقالت: أعوذ بالله منك. فقال: **قد عذت بمعاذ**، ثم خرج علينا فقال: **يا أبا أسيد اكسها رازقيَّين وألحِقها بأهلها**»(٣٥٩).

لم يغضب رسول الله ﷺ ولم يعنِّف المرأة، بل لم يجهر أمامها بطلاقها، وإنما أمر أبا أسيد أن يمتعها بالثياب ويعيدها إلى أهلها.

والمتأملُ في سيرة الرسول ﷺ يشهد الكثير من الأمثلة الرائعة على حسن ذوقه، وجميل طبعه، كرم خلقه، وحسن معاشرته، ورفق معاملته، واعتدال مزاجه وعدالة أحكامه وصدق كلامه.. وهذا الكمال الخلقي من أعم أدلة نبوته ﷺ. فقد كان الصدق يملأ حياته، ويحكم علاقاته، ويطبع أقواله وأفعاله، فلا غربة إذا كان أول المسلمين المؤمنين بدعوته هم أقرب الناس إليه وأعرفهم به، خديجة رضي الله عنها زوجه، وعلي رضي الله عنه ابن عمه، وأبو بكر الصديق صاحبه، وزيد بن حارثة مولاه، والكل ظلوا أوفياء لدعوة الإسلام طيلة حياتهم يفدنها بالنفس والنفيس.

وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ

ويشهد الإنـسـان طابع الصدق في علاقاته ﷺ بأزواجه، فهو الرسول البشر، ليس فيه تعاظم وكبرياء الأقوياء بجاههم أو غناهم، بل فيه سماحة الأنبياء، ونـدى الـعـظـماء، وسـيرة الأتـقـيـاء، تجده يحنو عـلى أزواجــه ويعينهن، فيقمّ بيته بيده، ويحلب الشاة، ويخرز النعل، ويتلطف إليهن، ويداري غضبهن، ويعدل بينهن، ويراعي ما جبلن عليه من الغَيرة، ويحتمل هفواتهن، ويرفق بصغيرتهن، وهكذا عاش الرسول البشر عيشة إنسان لا ملاك، تلتصق خطواته بالأرض وقلبه معلّق بالسماء، يهفو إلى ما عند الله، ويهتف متواضعاً «**إنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد**»[٣٦٠].

ولنعرض لنماذج أخـرى من حياة الرسول البشر في بيته: حيث تعيش أمهات المؤمنين في غرفهن الصغيرة بجوار المسجد النبوي، تمتزج حياتهن بأصوات الأذان للصلوات، ويشهدن جموع الناس مقبلين مدبرين، يصلون ويستمعون لأحاديث الرسول ﷺ، ويشتركن في بيان تعاليم الإسلام، وخاصة في شؤون المرأة، حين يتعذر على النبي ﷺ - لحيائه - البيان. ثم لهن حياة خاصة مع ا لرسول ﷺ حافلة بالعبادة وبالعلم، مليئة بالعبر، دافقة بالخير. ولا تخلو من الجدل والخصومة حيناً، والغَيرة حيناً آخر. قالت عائشة رضي الله عنها: «ما علمتُ حتى دخلت عليّ زينبُ بغير إذن وهي غَضبى، ثم قالت: يا رسول الله أَحَسْبُكَ إذا قلبت لك بُنَيةُ أبي بكر ذُرَيعَتَيها - أي ساعديها -؟ ثم أقبلت عليّ، فأعرضتُ عنها، حتى قال النبي ﷺ: **دونك فانتصري**. فأقبلتُ عليها حتى رأيتُها وقد يبس ريقها في فيها ما تردُّ عليّ شيئاً، فرأيت النبيَّ ﷺ يتهلّلُ وجهُه»[٣٦١].

وهنا نلمس تقدير النبي ﷺ لغيرة الضرائر من بعضهن، ومراعاته للفطرة، فقد ترك زينب تفرغ غضبها

في تعامله ﷺ مع زوجاته لم يكن الموقف يفلت من يده بل كان يبين الخطأ ويقوّمه

وأذن لعائشة أن ترد عليها، وعدل بين زينب - وهي بنت عمه وزوجه - وعائشة - وهي بنت صاحبه وزوجه - ولم يغضب من هذه الملاحاة، فهي أمر طبيعي في حياة الضرائر. بل لم تتغير ملامح وجهه إلى العبوس لتكدير صفوه، بل علته ابتسامة رقيقة وهو يشهد انتصاف عائشة من زينب.

وكانت زينب بنت جحش تطاول عائشة وتفاخرها في الحظوة عند رسول الله ﷺ كما ذكرت عائشة في حديث الإفك[٣٦٢] وكانت تفخر بأن الله تعالى زوّجها من الرسول ﷺ، فأنزل في ذلك قرآناً ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾[٣٦٣].

أما عائشة رضي الله عنها فكانت البكر الوحيدة من أزواجه ﷺ، وكانت تُدِلُّ بذلك وتشير إليه بذكاء وفطنة امتازت بها، تقول: «يا رسول الله أرأيت لو نزلتَ وادياً وفيه شجرة قد أكل منها، ووجدت شجراً لم يؤكل منها في أيِّها تُرتِع بعيرك؟ قال: **في التي لم يُرتع منها**. تعني أن رسول الله ﷺ لم يتزوج بكراً غيرها»[٣٦٤] وهذا الإدلال المقبول لا يخالف الحقيقة ولا يجانب الصدق، فليس من ضرر في استجابة الرسول ﷺ وإرضائه لهذا الادلال والاعتزاز، وإدخاله بذلك السرور على قلب زوجه.

وكان رسول الله ﷺ يغضب إذا تجاوزت الغيرة حدها، واعتدت على حقوق الآخرين، فلم يكن زمام الموقف يفلت من يده بل كان يبيِّن الخطأ ويقوِّمه. قالت عائشة رضي الله عنها: «ما غِرتُ على أحدٍ من نساء النبي ﷺ ما غِرتُ على خديجة وما رأيتُها، ولكن كان النبي ﷺ يكثر ذكرها، وربما ذبح الشاة ثم يقطعها أعضاء، ثم يبعثها في صداق خديجة. فربما قلتُ له: كأن لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة؟ فيقول:

إنها كانت وكانت وكان لي منها ولد»[٢٦٥].

وهكذا كان عظيم وفائه لزوجه خديجة أول من آمن به وآزره، وتحمل معه أعباء دعوته فكان يذكرها دائماً ويثني عليها أبداً، ويصل صديقاتها ومعارفها، ويفرح للقاء أقاربها ويكرمهم حتى صارت أم المؤمنين عائشة لإكثاره من ذلك وإلا فهل يغار الحي من الميت!!.

ولم يمنعه حبه لعائشة أن يصرِّح بفضل خديجة ومكانها في قلبه، ولو في ذلك الموقف الذي ظهرت فيه غيرتها، بل لم يكتم حبَّه لها وقد مضت على وفاتها أكثر من خمس سنين؟ فقال لعائشة: «**إني قد رُزقت حبَّها**»[٢٦٦]!

فما أعظم وفاءه وما أرحبَ قلبه وما أصدقَ لسانه، وما أصرحَ وأفصحَ تعبيره!؟.

إنَّ محمداً الرسولَ البشرَ لا يجد غضاضة في أن يحب امرأته، وأن يصارحها بذلك معبراً عن عاطفة خيرة، ويكتم كثيرون سواه عواطفهم تجاه أزواجهم لئلا يخدش كبرياؤهم، أو يقل احترامهم فيما يحسبون وهو مخطئون. روى البخاري عن عمرو بن العاص أنه قال لرسول الله ﷺ: أي الناس أحبُّ إليك؟ قال: عائشة[٢٦٧].

وكان ﷺ يراعي صغير سن عائشة - رضي الله عنها - وحبها للعب مع صديقاتها، قالت عائشة:

«كنت العبُ بالبنات - أي اللُّعب - عند النبي ﷺ - وكان لي صواحب يلعبن معي، فكان رسول الله ﷺ إذا دخل يتقمَّعن منه - أي يختفين - فيسربُهنَّ إليَّ فيلعبن معي»[٢٦٨]. وكانت عائشة - رضي الله عنها - توصي المسلمين بمراعاة ذلك مع أزواجهم حديثاتِ السن تقول: «رأيت النبي ﷺ يسترني بردائه، وأنا أنظر إلى الحبشة يلعبون في المسجد حتى أكون أنا الذي أسأم، فأقدروا قدر الجارية الحديثة السن الحريصة على اللهو»[٢٦٩].

وهكذا سبق الإسلام نظريات التربية الحديثة في إعطاء الحرية للصغير في اللعب والتسلية البريئين.

بل قد ذكرت عائشة رضي الله عنها: «أنه كان لها بنات - تعني اللُعب - وكان إذا دخل النبي ﷺ استتر بثوبه منها. قال أبو عوانة: لكيلا تمتنع[٢٧٠]».

ولم يجد الرسول ﷺ غضاضة في أن يسابق عائشة - رضي الله عنها - مرتين في منأى عن الناس لإدخال السرور على قلبها. قالت عائشة - رضي الله عنها -: «خرجتُ مع النبي ﷺ في بعض أسفاره، وأنا جارية لم أحمل اللحم ولم أبدن، فقال للناس: **تقدّموا** فتقدّموا. ثم قال لي: **تعالي أسابقك**، فسابقتُه فسبقتُهُ، فسكت عني حتى إذا حملت اللحم وبدنت ونسيت خرجت معه في بعض أسفاره فقال للناس: **تقدموا** فتقدموا ثم قال: **تعالي حتى أسابقك** فسابقته فسبقني فجعل يضحك وهو يقول: **هذه بتلك**»[٢٧١].

وكان يتلطف معها بالكلام ويداعبها قال لها مرة: **إني لأعلم إذا كنت عنّي راضية، وإذا كنت عليّ غَضبى.** قالت: ومن أين تعرف ذلك؟

قال: **أما إذا كنت عني راضية فإنك تقولين: لا وربِّ محمد. وإذا كنت غضبى قلت: لا وربّ إبراهيم.** قالت: قلت: أجل والله يا رسول الله ما أهجر إلا اسمك»[٢٧٢].

فما أحسن هذه المعاشرة وما ألطف رسول الله ﷺ وما أحسن خلق عائشة رضي الله عنها مع زوجها الرسول الكريم.

وكان رسول الله ﷺ رقيق الطبع، حسن العشرة، عميق العاطفة، لكن هذه الخصال لم تؤثر على التزامه الدقيق بالعدل بين نسائه أمهات المؤمنين، وهو التزام

عائشة رضي الله عنها أم المؤمنين تزوجها الرسول ﷺ بإرشاد من الوحي

بشرع الله تعالى الذي بلغه للناس وبينه لهم قال تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾[٢٧٢].

والرسول ﷺ تزوج في شبابه خديجة رضي الله عنها، ولم يتزوج عليها حتى توفيت، فتزوج سودة بنت زمعة رضي الله عنها، ثم عائشة، ثم حفصة، ثم زينب بنت خزيمة، ثم أم سلمة بنت أبي أمية، ثم جويرية بنت الحارث، ثم زينب بنت جحش، ثم أم حبيبة بنت أبي سفيان، ثم ميمونة بنت الحارث.

وقد اجتمعت النسوة التسع في حياته ﷺ وهذا من خصائصه لأن الإسلام لم يبح الجمع - بالزواج - لأكثر من أربع من النساء.

وكانت لكل زوجة غرفة صغيرة، فيها أثاث بسيط لا يكاد يزيد ثمنه على عشرة دراهم. وكان زواجه من كل واحدة يتصل بهدف يحقق مقاصد الإسلام، فعائشة رضي الله عنها تمتاز بحدَّة الذكاء، وصفاء الذهن، وجودة القريحة، فحفظت من تعاليم الرسول ﷺ الكثير، فنفعت وانتفعت، حتى بلغ عدد أحاديثها التي روتها عشرة ومائتين وألفي حديث.

ولو قورنت رواياتها بعدد روايات أمهات المؤمنين الأخريات لاتضحت الحكمة من هذا الزواج، فإن أكثرهن حديثاً بعد عائشة هي أم سلمة بنت أبي أمية، ولم يتجاوز عدد أحاديثها ثمانية وسبعين وثلاثمائة حديث، وشتان ما بين الرقمين!

وأما الأخريات فقد روت ميمونة ستة وسبعين حديثاً، وروت أم حبيبة بنت أبي سفيان خمسة وستين حديثاً، وروت حفصة بنت عمر ستين حديثاً، وروت كل من جويرية وسودة بنت زمعة خمسة أحاديث، وروت زينب بنت جحش تسعة أحاديث، وروت صفية عشرة أحاديث، ولم ترو زينب بنت خزيمة شيئاً. فلو جمعنا حديث سائر أمهات

سودة بنت زمعة زوج مثالية

المؤمنين لبلغت ثمانية وستمائة حديث فقط وهي أقل من ثلث عدد أحاديث عائشة!.

هذا فضلاً عن فقهها وفتاويها وخاصة في شؤون المرأة.

وكان زواجه من عائشة رضي الله عنها بعد رؤيا تكررت، مما يدل على أن الزواج منها كانت بإرشاد الوحي لأن رؤيا الأنبياء حق، وهي جزء من الوحي، روى البخاري قالت عائشة «قال رسول الله ﷺ «أريتُك قبل أن أتزوجك مرتين، رأيت المَلَك يحملك في سَرَقة من حرير فقلت له: اكشف، فكشف فإذا هي أنت. فقلت: إن يكن هذا من عند الله يُمضِه»». وقد تكررت الرؤيا كما أخبر عليه الصلاة والسلام[٣٧٤].

أما سودة بنت زمعة - رضي الله عنها - فكانت ثيباً كبيرة السن، تزوجها على أثر وفاة خديجة رضي الله عنها، لترفق بأولاده الصغار من خديجة، وتطييباً لخاطرها فقد كانت زوجة للسكران ابن عمر، وكان مسلماً فهاجر بها إلى الحبشة، ثم رجعا فمات زوجها بمكة، وكان أبوها شيخاً كبيراً أقعدته السن، وكان أخوها عبد بن زمعة مشركاً عنيداً، حتى حثا التراب على رأسه عندما علم بزواجها من رسول الله ﷺ[٣٧٥].. أفليست هذه الظروف المحيطة بهذا الزواج تكشف عن طبيعة دوافعه وحقيقة مقاصده. من حماية الأيِّم وحضانة الأولاد؟.

ولما كبرت سودة خشيت أن يطلقها الرسول ﷺ، فآثرت عائشة رضي الله عنها بيومها وليلتها، لتبقى في عصمة الرسول ﷺ[٣٧٦] فنزل قوله تعالى: ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ

خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزاً أَوْ إِعْرَاضاً فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحاً وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾[٢٧٧] قالت عائشة في سبب نزول الآية: «لا يستكثر منها، فتكون لها صحبة وولد، فتكره أن يفارقها فتقول له: أنت في حلّ من شأني»[٢٧٨].

وهكذا بقيت سودة في عصمة الرسول ﷺ حتى وفاته لتبعث في أزواجه يوم القيامة.

وأما حفصة بنت عمر رضي الله عنهما - فقد توفي زوجها الصحابي خنيس بن حذافة السهمي بالمدينة، فتزوجها رسول الله ﷺ إكراماً لأبيها.

وأما زينب بنت خزينة فكانت متزوجة من عبيدة بن الحارث، فاستشهد بعد بدر، فتزوجها رسول الله ﷺ جبراً لخاطرها.

وأما أم سلمة بنت أبي أمية فقد مات زوجها أبو سلمة بالمدينة، بعد إصابته بجراح في أُحُد تاركاً معها ولدين وبنتين، فتزوجها رسول الله ﷺ تكريماً لها ورعاية لأولادها.

وأما جويرية بنت الحارث فكانت بنت رئيس قبيلتها بني المصطلق، وقعت أسيرة مع نساء قبيلتها، فكانت في سهم ثابت بن قيس بن شماس، فكاتبته، ثم جاءت إلى الرسول ﷺ تستعينه في قضاء المكاتبة، فعرض عليها الزواج وقضى عنها كتابتها وتزوجها فلما علم الناس بذلك أطلقوا سائر السبي وقالوا: أصهار رسول الله، فأعتقوا سائر السبي «فما كانت امرأة أعظم على قومها بركة منها» وقد قصد الرسول ﷺ بالزواج منها تكريمها، وتأليف قلوب قبيلتها، وإطلاق سبيهم، وقد أثمرت هذه المعاملة الحكيمة ثمرتها فأسلم بنو المصطلق.

وأما زينب بنت جحش فهي ابنة عمة الرسول ﷺ زوّجها الرسول ﷺ من مولاه زيد بن حارثة، فكانت لا تشعر بأنه كفؤ لها لمكانها من قريش مما أدى إلى إخفاق الزواج، وقد تدخل الرسول ﷺ للإصلاح بينهما دون جدوى حتى نزل الوحي الإلهي يأمره بالزواج منها، لإبطال عادة جاهلية تتمثل بالتبني، وما كان يترتب عليه من آثار، منها عدم

كانت مقاصد الرسول ﷺ من زيجاته تتمثل في تأليف قلوب الناس واجتذابهم الى الاسلام ورعاية الأرامل وتربية اليتامى

زواج الرجل من زوجة متبناه، وقد شق الأمر على الرسول ﷺ ولكن لم يكن وسعه إلا طاعة أمر الله، فكان أن تزوج منها، ولو كان الأمر يتعلق برغبة في الزواج منها لفعل قبل أن يزوجها من مولاه زيد.

وأما صفية فقد كانت سيدة قومها، ووقعت في السبي في غزوة خيبر فأسلمت، فأعتقها الرسول ﷺ وتزوجها حفاظاً على مكانتها.

وأما ميمونة بنت الحارث فكانت أرملة كبيرة السن، وهي قريبة الرسول ﷺ، ولم تمكث بعد زواجها إلا يسيراً.

وبعد هذا العرض لملابسات زواجه ﷺ تتبرَّز حقيقة مقاصده من الزواج، وهي مقاصد الإسلام في تأليف قلوب الناس، واجتذابهم إلى الإسلام، ورعاية الأرامل، وتربية اليتامى، وحفظ تعاليم الدين، وخاصة ما يتعلق منها بشؤون المرأة.

أفبعدَ هذا يجترىء المتشدقون فيمدّون ألسنتهم بالأراجيف الباطلة، والتهم الكاذبة لتشويه صفحة طاهرة من جوانب حياة النبي الكريم، وكأنه أمضى حياته في النعيم، وقضى وقته مع الزوجات العديدات، متناسين زهده وشظف عيشه حتى ضاقت بذلك أمهاتُ المؤمنين، وطلبن التوسعة عليهن في النفقة، فنزلت آية التخيير وهي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً (٢٨) وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْراً عَظِيماً﴾[٢٢٩].

فأمره الله تعالى أن يخيِّر أزواجه بين بقائهن معه، واحتمالهن عيشه وزهده، بين الطلاق مع إعطائهن حقوقهن وتكريمهن، وقد اختارت أمهات المؤمنين البقاء في عصمته. وقد ذكرت عائشة «أن رسول الله ﷺ جاءها حين أمر الله أن يخيِّر أزواجه» قالت: فبدأ بي رسول الله ﷺ فقال:

«إني ذاكر لك أمراً فلا عليك أن تستعجلي حتى تستأمري - أي تستشيري - أبويك، وقد علم أن أبوي لم يكونا يأمراني بفراقه.

قالت: ثم قال: إن الله قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ﴾ إلى تمام الآيتين، فقلت له: ففي أي هذا أستأمر أبوي؟ فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة»[٢٨٠].

أما بقية أزواجه - رضي الله عنهن - فقلن كما قالت عائشة، فصبرن على ضيق النفقة وقلة المؤنة، رغم أنهن من عقيلات قريش والعرب، وعشن قبل الزواج في ثراء الآباء، وتذوقن رغد العيش، واعتدن على كريمه، لكنهن آثرن عند تخييرهن اللهَ ورسوله والدارَ الآخرة.

وقد استفاضت الروايات في بيان قلة الطعام في بيوت رسول الله ﷺ، فما كان أهله يشبعون من خبز الشعير يومين متتالين، وكان جل طعامهم التمر، وحتى التمر ما شبعوا منه حتى فتحت خيبر، وأما اللحم وخبز البر والسمن والقثاء فقلما كانوا ينالونه، وقد يمضي عليهم الشهر والشهران ما يوقدون ناراً تحت قدر لا لخبز ولا لطعام إلا نادراً، مكتفين بالتمر والماء، وقد يبيتون الليالي طاوين، لا يجدون عشاء. لقد خُيِّرنَ فاخترنَ متطلعاتٍ إلى الرفيق الأعلى ﴿فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْراً عَظِيماً﴾.

لقد انتبه كارلايل (Carlyle) إلى ظاهرة الزهد في حياة الرسول ﷺ فقال: «لم يكن محمد في حياته الشخصية من عشاق اللّذة على الإطلاق، فقد كان متاع بيته يعد من أكثر الأمور اعتدالاً، ومع ذلك فلم يحظ أي قيصر بتاجه بالطاعة مثلما حظي هذا الرجل بردائه الذي كان يرقعه بيده»[٢٨١].

واعتبر بعض هذه الحادثة وما نزل فيها من القرآن «أقوى رد على سفهاء المبشرين ومغرضي المستشرقين الذين حاولوا النيل من أخلاقه الكريمة في نسبتهم حب الدنيا ومباهجها وشهواتها إليه، مع ما كان منه من استغراق في الدعوة وابتعاد عن ذلك في مكة، وتبدو قوة الرد حينما يلاحظ أن الآيات قد نزلت في أواسط العهد المدني وبعد أن تمكن من القضاء على أعدائه..»[٢٨٢].

إن قصة زواجه من أم المؤمنين زينب بنت جحش أثارت جدلاً طويلاً لذلك يلزم تفصيل خبر هذا الزواج الذي نزل فيه قرآن.

قال تعالى: ﴿وإذْ تَقُولُ للَّذي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْه وأَنْعَمْتَ عَلَيْه أَمْسكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ واتَّق اللَّهَ وتُخْفي في نَفْسكَ مَا اللَّهُ مُبْديه وتَخْشَى النَّاسَ واللَّهُ أَحَقُّ أن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وطراً زَوَّجْنَاكَهَا لكَيْ لا يَكُونَ عَلَى المُؤْمنينَ حَرَجٌ في أَزْوَاج أَدْعيَائهِمْ إذَا قَضَوْا منْهُنَّ وطَراً وكَانَ أَمْرُ اللَّه مَفْعُولاً﴾[٢٨٣].

لقد ورد في صحيح البخاري أن هذه الآية نزلت في شأن زينب بنت جحش وزيد بن حارثة، وزينب هي بنت عمة الرسول ﷺ أميمة بنت عبد المطلب. وزيد بن حارثة عربي من بني كعب وقع في السبي في غارة على قوم أمه بني معن من طيء، فاشتُري لخديجة أم المؤمنين - رضي الله عنها - فوهبته لرسول الله ﷺ، وقد رباه رسول الله وأحبه حتى ما كان يدعى إلا زيد بن محمد كما في حديث ابن عمر - رضي الله عنهما - في الصحيحين[٢٨٤].

وقد زوجه الرسول الكريم بمولاته أُم أَيمن، ثم زوجه ابنة عمه زينب بنت جحش، وقد نزلت الآيات الكريمة في شأن هذا الزواج الذي لم يكتب له التوفيق، والذي سجل اسم زيد في كتاب الله تعالى حيث انفرد بهذا الذكر من بين سائر الصحابة.

ويظهر من مجموع الروايات التي يسوقها الطبري في تفسيره(٢٨٥) أن الرسول ﷺ حين خطب زينب بنت جحش لزيد بن حارثة، استنكفت منه وأعلنت عدم رضاها به، وقالت: أنا خير منه حسباً، وكانت امرأة فيها حدّة فأنزل الله ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ فأسلمت زينب أمرها لله ولرسوله وكانت امرأة عابدة أوّاهة، فتزوجت زيداً دون رغبة فيه.

والحق أن الوحي الإلهي تدخل مباشرةً في عقد هذا الزواج، كما تدخل أخيراً في فصم عُراه، فهو زواج يهدف إلى تحقيق أمر الله عز وجل في تغيير عُرف ساد الحياة العربية في الجاهلية، وتأصل فيها حتى صَارت له قدسية العقائد واحترام المحارم، ذلك هو نظام التبني بحيث ينسب الابن المتبنى إلى متبنيه بدلاً من أبيه، وتترتبُ على ذلك حقوق في الميراث والحرمة تماثل حقوق الأبوة على البنوة من الصلب. ولا يخفي ما في ذلك من افتئات على الفطرة ومجانبة للعدل، وتجاوز على الأنساب، فضلاً عن أن التحريم لا يكون إلا بوحي إلهي ولا يستطيع البشر ولو اجتمعوا أن يقرروا حرمة شيء أو حله.

ولكن كيف تبطل هذه العادة فيقلع الناس عن التبني وينتهون عن التحريم والتحليل من دون وحي إلهي؟

لقد اتجه الوحي الإلهي إلى التعامل مع الواقع القائم بصورة عملية كفيلة بالتغيير مباشرة، دون الاكتفاء بالإعلان النظري، وهذا التغيير الواقعي أقوى أثراً وأسرع في إحداث التغيير، فإقرار العدل يحتاج إلى سرعة التغيير، واجتثاث الانحراف والظلم، فكانت قصة زواج زينب بنت جحش من زيد وقصة انفصالهما تحكي تدخل الوحي في أولها وآخرها لإحداث التغيير السريع في الواقع القائم.. وهكذا كان.

نزلت زينب على قضاء الله ورسوله، فتزوجت زيد بن حارثة، ولم يتم التوافق بين الزوجين، وكلما اشتكى زيد زوجَهُ للرسول ﷺ قال له: أمسك عليك زوجك مع علمه ﷺ بقضاء الله تعالى، وتقديره زواجه من ابنة عمته زينب بعد طلاق زيد لها.. وعلمه هذا كان يُخفيه في نفسه، فمواجهةُ الأعراف المستقرة في قضية خطيرة كانت أمراً ثقيلاً، إذ كيف يتزوج زوجة ابنه - في عرف نظام التبني الجاهلي - ماذا تقول العرب وماذا يقول ضعاف الإيمان من المسلمين؟.

لم تكن زينب بعيدة عن رسول الله ﷺ بل كانت تحت عينه وفي رعايته، فلو كانت له رغبة في الزواج منها لما زوجها من زيد بن حارثة ولكن ما كان له بد من تنفيذ قضاء الله.

لم يطق زيـد العيش مـع زوج لا تألفه فكان أن طلقها، فلما انقضت عدتها أرسل الرسول ﷺ زيداً نفسه يخطبها له، ففعل زيد ذلك وبذلك تبين أنه ما كان راغباً في استمرار زواجه بها، وكان راضياً عن زواجها برسول الله ﷺ، إذ هو الذي قام بالخطبة، وقد ذهب زيد إلى زينب خاطباً لرسول الله ﷺ، فلما رآها هابها واستجلّها من أجل إرادة النبي ﷺ تزوجها، فعاملها معاملة أمهات المؤمنين في الإعظام والإجلال والمهابة، كما يقول الإمام النووي شارح صحيح مسلم[٢٨٦].

ويروي زيد بن حارثة قصة الخِطبة كما في رواية صحيح مسلم من حديث أنس بن مالك قال: «فانطلق زيد حتى أتاها وهي تخمِّر عجينها. قال: فلما رأيتها عظمت في صدري حتى ما أستطيع أن أنظر إليها أن رسول الله ﷺ ذكرها، وليتُها ظهري، ونكصت على عقبي، فقلت: يا زينب أرسل رسول الله ﷺ يذكرك. فقالت: ما أنا بصانعة شيئاً حتى أؤامر ربي، فقامت إلى مسجدها، ونزل القرآن وجاء رسول الله ﷺ فدخل عليها بغير إذن..»[٢٨٧].

وكان ذلك في ذي القعدة في السنة الثالثة أو الرابعة أو الخامسة على اختلاف الروايات قبل غـزوة بني المصطلق، وقصة زواجها ترتبط بنزول الحجاب. فقد روي البخاري في «صحيحه» من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أنه كان ابن عشر سنين مقدم رسول الله ﷺ المدينة، فكان أمهاتي يواظبنني على خدمة النبي ﷺ فخدمته عشر سنين، وتوفي النبي ﷺ وأنا ابن عشرين سنة، فكنت أعلم الناس بشأن الحجاب حين أنزل، كان أول ما أنزل في مبتنى رسول الله ﷺ بزينب بنت جحش، أصبح النبي ﷺ بها عروساً، فدعا القوم فأصابوا من الطعام ثم خرجوا، وبقي رهط منهم عند النبي ﷺ فأطالوا المكث، فقام النبي ﷺ فخرج وخرجت معه لكي يخرجوا، فمشى النبي ﷺ ومشيت معه حتى جاء عتبة حجرة عائشة، ثم ظن أنهم خرجوا فرجع ورجعت معه، حتى إذا دخل على زينب، فإذا هم جلوس لم يقوموا، فرجع النبي ﷺ ورجعت معه حتى إذا بلغ عتبة حجرة عائشة وظن أنهم خرجوا، فرجع ورجعت معه فإذا هم قد خرجوا فضرب النبي ﷺ بيني وبينه بالستر وأنزل الحجاب»[٢٨٨].

وكان رسول الله ﷺ صبيحة زواجه بزينب قد أولم عليها بشاة واحدة، وهي أعظم ما أولم على زوجة من أزواجه، كما في حديث أنس بن مالك.

وكانت زينب تفخر على أزواج النبي ﷺ تقول: زوجكن أهلوكن وزوجني الله تعالى من فوق سبع سماوات كما في صحيح البخاري[٢٨٩].

وهكذا كانت حادثة الزواج خرقاً لعرف جاهلي سائد كان يؤدي إلى توارث باطل يحجب أصحاب الحقوق الفعليين. ويحرِّم زواج الرجل من امرأة تحل له، بزعم أنها كانت زوجة ابنه، وإنما هو متبناه. قال تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾[٢٩٠]. ولم يكن للنبي ﷺ

ابن بالغ مبلغ الرجال حين الخطاب، وقال تعالى: ﴿ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ﴾[٢٩١].

فالعدل ألا يُحرم الوالد من نسبة ولده إليه، وأن تعود حقوق الإرث والحرمات إلى ما شرع الله تعالى في ذلك دون أهواء الناس وأعراف الجاهلية.

وقد يتصور البعض أن زيداً - رضي الله عنه - لم يكن كفئاً للقرشيات، فالحق خلاف ذلك فهو من أوائل المسلمين السابقين، زوجه رسول الله بعد طلاقه زينب من عقيلات قريش أم كلثوم بنت عقبة وأروى بنت كريز ودرة بنت أبي لهب وهند بنت العوم أخت الزبير.

وقد أملت الأهواء على بعض الرواة الضعفاء روايات لا يؤبه لقائلها بأن ما كان النبي ﷺ يُخفيه هو محبةُ زينب ورغبتُهُ في الزواج منها، والحق أن الوحي الإلهي أوضح علة هذا الزواج بقوله تعالى: ﴿لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً﴾.

وقد أشارت الآية إلى أن الله تعالى أنعم على زيد بالإسلام، وأن محمداً ﷺ أنعم عليه بالعتق والحرية، وارتضاه زوجاً لابنة عمته، وحاول جاهداً الإصلاح بينهما، وكتم العلم بما سيكون من زواجه منها حتى طلقها زيد - رضي الله عنه - فخطبها وتزوجها بأمر الله تعالى إبطالاً لعادة التبني، وإرجاعاً للحق إلى نصابه.

جيل عصر السيرة

فضل الصحابة ووجوب محبتهم وموالاتهم

ما هي خصائص الجيل الذي رباه محمد ﷺ فأقام دولة الإسلام، وخاض غمرات الجهاد ونشر دعوة الإسلام في الآفاق، وصار من أعظم الأدلة على نجاح التربية المحمدية، فإنه لم يسبق لنبي أن ربّى جيلاً بكامله، كما فعل رسول الله ﷺ. فلنتعرف على هذا الجيل من خلال الكتاب والسنة والواقع التاريخي.

صفة الصحابة في القرآن والسنة:

قال تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾[٣٦٢].

هكذا يصف القرآن محمداً وصحبه، ذلك الجيل المثالي الذي حقق مستوى سامقاً في الارتقاء الروحي والخلقي، فصقلته العبادة وكساه الركوع والسجود نوراً وبهاء، وحددت العقدية مفاهيمه وقيمه وولاءه وبراءه ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ يوالون بعضهم ويحادون من سواهم ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾.

ذلك الجيل الذي خلدته كتبُ السماء فوصفته التوراة والإنجيل والقرآن بهذا الوصف الرائع، ممثلةً امتداد قيمه وانتشار عقيدته وكثرة أنصاره وقوة وجوده واستمساك أمره بالزرع الذي يتفرع وينتشر ويزداد ويشتد ساقه، يعجب أهله الذين غرسوه ويغيظ الأعداء، وقد ذُكر عند الإمام مالك بن أنس رجل ينتقص الصحابة رضوان الله عليهم فقرأ الإمام مالك هذه الآيات حتى بلغ ﴿يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ فقال مالك: من أصبح من الناس في قلبه غيظ على أحد من أصحاب رسول الله ﷺ فقد أصابته هذه الآية.

ذلك الجيل الذي بلّغ الرسالة وأدّى الأمانة، وحفظ القرآن والسنة، ولو فرط فيهم ما وصلا إلينا سالمين محفوظين بحفظ الله تعالى، لذلك ذهب كثير من العلماء إلى أن الطعن في جيل الصحابة إنما هو طعن في مصادر تلقينا للقرآن والسنة. وبالتالي فهو طعن بالدين.

ذلك الجيل الموصوف بالخيرية والأفضلية المطلقة على سائر الأجيال كما أخبر المصطفى ﷺ: «**خير الناس قرني. ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم. إن بعدكم قوم يخونون ولا يؤتمنون، ويشهدون ولا يُسْتَشهدون، وينذِرون ولا يَفُون، ويظهر فيهم السِّمَنُ**»[٢٩٣].

وهذه الخيرية تجعل من جيل الصحابة مُثُلاً عليا للمسلمين في كل زمان ومكان، فهم يتطلعون إليهم يعتزون بهم، ويقتدون بأعمالهم، ويسترشدون بسيرهم، تلك السير المتنوعة في الحرب والسلم والعبادة والمجاهدة والمعاملة مما يكفل للمسلمين في مختلف العصور نماذج متنوعة صالحة للاقتداء.

ففي الحرب تجد الصحابة مؤمنين محتسبين مجاهدين ثابتين وصفهم القرآن في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٢) الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾[٢٩٤].

وهم في السلم هداة معلمون، ومصلحون عاملون، وصفهم رسول الله ﷺ بأنهم أَمَنةٌ لأمته، ففي صحيح مسلم قال رسول الله ﷺ: «النجومُ أَمَنَةُ السماء، فإذا ذهبت النجومُ أتى السماءَ ما تُوعد، وأنا أَمَنةٌ لأصحابي، فإذا ذهبت أتى أصحابي ما يوعدون وأصحابي أَمَنة لأمتي، فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون»[٢٩٥].

ومعنى أَمنةُ أمتي: أي حَفَظَتهم كما أن الملائكة حفظة السماء، وهذا الحفظ للأمة بحفظهم لدينها، وقيامهم بطاعة الله والتزام أوامره، ودعائهم للمسلمين وذودهم عن الدين بالجهاد بالنفس والمال واللسان، لذلك أمر الرسول صلى الله عليه وسلم المسلمين في كل زمان ومكان بتوقير الصحابة واحترامهم ومحبتهم، ونهى عن أذاهم وتناولهم بالكلام الجارح والجرأة عليهم، ففي الصحيحين قال رسول الله ﷺ: «لا تسبُّوا أصحابي، فلو أن أحداً أنفق مثل أُحُد ذهباً ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نصيفَه»[٢٩٦]، أي ما بلغ القدر اليسير من فضلهم.

وقد بشّر رسول الله ﷺ العديد من الصحابة بالجنة فقال ونعم «**أبو بكر في الجنة وعمر في الجنة، وسعد بن مالك في الجنة وعبد الرحمن بن عوف في الجنة، وسعيد بن زيد في الجنة**»[٢٩٧]. فهؤلاء هم المبشرون بالجنة. ولم يحظَ بذلك جيل سوى جيل الصحابة رضوان الله عليهم ولم يكن الصحابة - رضوان الله عليهم - متساوين في الفضل والدرجة، بل كانوا يتفاضلون في السابقة والجهاد وكثرة البذل في سبيل الإسلام، قال تعالى: ﴿لا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى﴾[٢٩٨] وقد فصلت الأحاديث الشريفة مقامات الصحابة وتفاضلهم ودرجاتهم.

روى الإمام مسلم في صحيحه أن رسول الله ﷺ كان على حراء هو وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير، فتحركت الصخرة، فقال النبي ﷺ: «**اهدأ فما عليك إلا نبيّ أو صدّيق أو شهيد**»[٢٩٩] وهذا من علامات نبوته ﷺ فقد استشهد الخمسة الآخرون رضوان الله عليهم أجمعين.

ودل الرسول الكريم ﷺ على خصائص بعض الصحابة العلمية أو الخلقية أو الجهادية، إرشاداً للأمة للأخذ عنهم والاقتداء بهم فقال: «**خذوا القرآن من أربعة، من عبد الله وسالم ومُعاذ وأبي بن كعب**»[٣٠٠] وهم عبد الله بن مسعود وسالم مولى أبي حذيفة ومعاذ بن جبل وأبي بن كعب.

وأشاد مرة بأبي بكر الصديق رضي الله عنه وسماحته

بماله ونفسه في سبيل الإسلام، روى البخاري في صحيحه عن عبد الله بن عباس قال: «خرج رسول الله ﷺ في مرضه الذي مات فيه عاصباً رأسه بخرقة، فقعد على المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال : **إنَّه ليس من الناس أحد أمنَّ عليَّ في نفسه وماله من أبي بكر ابن أبي قحافة، ولو كنت متخذاً من الناس خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن خُلَّة الإسلام أفضل، سُدُّوا عني كلّ خَوخَة في هذا المسجد غيرَ خوخةِ أبي بكر**»[٣٠١].

وأشاد ﷺ بعمر بن الخطاب فقال: «**إنَّ الله تعالى جعل الحّق على لسان عمر وقلبه**»[٣٠٢].

وقال: «**لقد كان فيمن كان قبلكم من الأمم ناسٌ مُحَدَّثون من غير أن يكونوا أنبياء، فإن يكن في أمتي أحدٌ فإنه عمر**»[٣٠٣].

وهكذا بين خصائص عمر بن الخطاب رضي الله عنه حيث صار رمزاً للعدل في الإسلام، وبقيت سيرته الطافحة بالعدل الشامخ،والزهد في الدنيا، والجهر بالحق والقيام بمصالح الأمة من تنظيم الدواوين، ووضع الخراج، وتجهيز الجيوش، وتحرير المجتمعات من ظلمات الجاهلية، والأخذ بيد الشعوب نحو نور الإسلام

علي بن ابي طالب رضي الله عنه بمنزلة هارون من موسى كما أشار ﷺ

وكرامة الإيمان، وعدل الرحمن، فكان ملهماً محدثاً ذا فراسة. كما وصفه رسول الله ﷺ بالعمق في الدين والعلم، والعبقرية في العقل والاجتهاد والعمل.

وأشاد ﷺ بعثمان ذي النورين، الذي ما جمع أحد بين بنتي نبي سواه حيث زوَّجَهُ رسول الله ﷺ بنته رقية، فلما ماتت زوجه بنته الثانية أم كلثوم، لذلك لقب بذي النورين، وقد بشَّره رسول الله ﷺ بالجنة وبالشهادة. فافتدى الأمةَ وحقنَ دماءَها بدمه، ورفض الانصياع للأعراب بالتنازل عن الخلافة بمشورة عبد الله بن عمر لئلا تصبح سُنَّةً كلما كره قوم إمامهم خلعوه أو قتلوه[٣٠٤].

مما يدل على بصيرة سياسية، ووعي بالسنن الاجتماعية، وقدرة على اتخاذ المواقف في أحرج الظروف ومع أشد التضحيات.

وأشاد ﷺ بعلي بن أبي طالب، وزوَّجه بنتَه فاطمة الزهراء البتول، وشهد له بالجنة والشهادة، وروى البخاري ومسلم أن رسول الله ﷺ خلَّف علي بن أبي يطالب في غزوة تبوك، فقال: يا رسول الله تخلِّفني في النساء والصبيان؟ فقال: **أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى غير أنه لا نبيَّ بعدي؟**[٣٠٥].

وروى الإمام مسلم أنه ﷺ قال يوم خيبر: **لأعطينّ الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله..** فدعا علياً فأعطاه الراية[٣٠٦].

فهذه نبذ عن مكانة الصحابة الكرام، مما يوجب موالاتهم ومحبتهم والاستغفار لهم وحفظ حقهم ومكانتهم.

مبادرة الصحابة إلى طاعة الله

كانت أجيال المسلمين في القرون الأولى تقرأ القرآن وكأنه ينزل على كل واحد منهم - رجلاً كان أو امرأة - غضاً طرياً، وكانت لغة التخاطب بينهم هي الفصحى التي نزل بها القرآن، وقد أعانهم ذلك على فهم الخطاب الإلهي بسهولة ويسر، كما ولّد الأثر القوي في نفوسهم، وسرعة الاستجابة التامة لتعاليمه وأحكامه.

ولا شك أن جيل الصحابة (رضوان الله عليهم) كان أسرع استجابة وأبلغ تأثراً، وأقدر على التخلص من عادات الجاهلية وتقاليدها وأعرافها، حتى لو كانت العادة الجاهلية قد استقرت منذ قرون وصارت عُرفاً مشروعاً وتقليداً مقبولاً.

قالت عائشة رضي الله عنها: «يرحم الله نساء المهاجرات الأول لما أنزل الله: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾[٣٠٧] شققن مروطَهُنّ فاختمرن به»[٣٠٨].

ومن أبلغ المواقف التي بادر فيها الصحابة إلى إعلان الطاعة مع إحساسهم بالمشقة ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: «لما نزلت على رسول الله ﷺ ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ ويُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ واللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[٣٠٩] قال: فاشتدّ ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ فأتوا رسول الله ﷺ ثم بركوا على الركب، فقالوا: أي رسول الله كُلّفنا من الأعمال ما نطيق؛ الصلاة والجهاد والصدقة. وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها؟ قال رسول الله ﷺ: **أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: سمعنا وأطعنا**

غفرانك ربنا وإليك المصير. قالوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير. فأنزل الله عز وجل ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ (قال: نعم) ﴿رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ (قال: نعم) ﴿وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (قال: نعم)[٣١٠].

فهذا الحديث يفيد سرعة مبادرة الصحابة إلى الطاعة حتى عندما يجدون في التكليف مشقة. وقد عرف الله تعالى منهم حسن الطاعة فأثابهم بالتخفيف عنهم والتوسعة عليهم، كما قال ابن عباس رضي الله عنه «عندما قرأ ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ قال: هم المؤمنون وسّع الله عليهم أمر دينهم فقال ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[٣١١].
وقال: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾[٣١٢].
وقال: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾[٣١٣] »[٣١٤].

وقد جاء في الحديث النبوي **«إن الله وضع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه»**[٣١٥].

والحديث يوافق الآية ﴿رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ حيث استجاب الله تعالى لهم فقال: نعم كما في صحيح مسلم.

قال ابن كثير في معنى الدعاء في الآية: أي إن تركنا فرضاً على جهة النسيان، أو فعلنا حراماً كذلك، أو أخطأنا الصواب في العمل جهلاً منا بوجهه الشرعي[٣١٦].

وقد حددت الآية والحديث قاعدة عظيمة في تحديد المسؤولية فالإنسان لا يسأل عن الخواطر التي تقع في نفسه ما لم يتكلم أو يعمل بها كما في صحيح مسلم قال ﷺ: **«إن الله تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها ما لم يتكلموا أو يعملوا به»**[٣١٧].

إذ لا يسيطر الإنسان على الخطرات والصور التي ترد إلى ذهنه، ومن هنا أحس الصحابة رضوان الله عليهم بالحرج عندما نزلت الآية ﴿وإن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ﴾ لكنهم بادروا بالطاعة فرفع الله عنهم الحَرَج، كذلك فالإنسان لا يُسأل إلا عن الأعمال التي صدرت منه في حال العقل والعمد والاختيار، ومن هنا لم يُعتبر الكفر مع الإكراه قال تعالى: ﴿إلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ﴾ ولم يعتبر الطلاق للمجنون والمكره، ولم يعتبر ما أكله الصائم ناسياً قادحاً في صومه.

فهذا التيسير في الأحكام إنما كان ببركة مبادرة الصحابة إلى الطاعة مع الإحساس بالمشقة.

وقد حثَّ رسول الله ﷺ على المبادرة إلى الطاعة، خوفاً من تغير الأحوال وإقبال الفتن والأهوال، مما يصرف الإنسان أو يضعفه عن المبادرة إلى الإحسان والطاعات، فقال: «**بادروا بالأعمال فتناً كقطع الليل المظلم يُصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً، أو يُمسي مؤمناً ويُصبح كافراً، يبيعُ دينه بعرَض من الدنيا**»[٣١٨].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أي الصدقة أعظم أجراً؟ قال: «**أن تصدَّقَ وأنت صحيحٌ شحيحٌ تخشى الفقر، وتأمل الغنى، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحُلقوم. قلت: لفلانٍ كذا ولفلانٍ كذا، وقد كان لفلان**»[٣١٩].

اقطع طريق الوساوس والخطرات التي تستهدف اضعاف ايمانك بفعل الطاعة والتزام الصمت

فالحديث يبيِّن أهمية المبادرة إلى بذل الصدقة والمعروف، فالإنسان حين يبذل المال وهو في تمام صحته وعنفوان حياته، وهو إليه محتاج وعليه حريص، ينتابه الخوف من الفقر، وتتملكه الرغبة في جمع المال حباً له أو حيطةً لمستقبله ومستقبل عياله، هذا الإنسان حين يتصدق ويبذل فإنه يكون قد نجح في الامتحان، فغلب توكُلُه الصادقُ على كل الوساوس والخطرات، قال تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الفَقْرَ ويَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ واللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وفَضْلاً واللَّهُ واسِعٌ عَلِيمٌ﴾[٣٢٠].

فالشيطان إذاً يورد على ابن آدم خواطرَ الشر والشك في وعد الله تعالى من الثواب على الأعمال الصالحة والصدقات وبذل المعروف ووَعد رسول الله ﷺ بقوله: «**ما نقصت صدقةٌ من مال**»[٣٢١].

فيورد عليه الشيطان الوساوس يقول: أمسك عليك مالك فإنك تحتاجه، وبادر إلى اللذات والتنعم بالدنيا قبل فواتها، يقول رسول الله ﷺ مبيناً الصراع الذي ينتاب الإنسان بين وساوس الشر يلقيها الشيطان وخواطر الخير يلقيها الملاك: **للشيطان لَمَّةٌ بابن آدم وللمَلَك لمّة، فأمّا لَمَّة الشيطان فإيعاد بالشر، وتكذيب بالحق. وأمّا الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحقّ، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله ، فليحمد الله ومن وجد الأخرى فليتعوذ بالله من الشيطان الرجيم** ثم قرأ ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الفَقْرَ ويَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ﴾.

قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب[٣٢٢].

ولعل أقوى ما يدفع لَمَّة الشيطان وإلقاءه الوساوس حال الاقتراب من الإنسان أن يبادر الإنسان إلى فعل الطاعة. وبذلك يقطع السبيل على الوساوس والخطرات التي تستهدف إضعاف إيمانه والنيل من توكله على الله تعالى وتصديقه بوحيه وإخباره.

وقد روى الصحابي جرير البجلي رضي الله عنه: أن قوماً من المسلمين وفدوا على رسول الله ﷺ في أول النهار، فإذا هم عراة حفاة يلبسون أكسية الصوف وعليهم السيوف، فتغيَّر وجه الرسول ﷺ إشفاقاً عليهم، وجمع الناس، وحثهم على الصدقة، وقرأ عليهم الآيات في ذلك ومنها ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾[٣٢٣]. فتتابع الناس حتى جمعوا كومين من طعام وثياب، فتهلل وجه الرسول ﷺ فرحاً بمبادرة الصحابة إلى معونة إخوانهم وطاعة ربهم[٣٢٤].

تجرد الصحابة للدعوة إلى الإسلام

قال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (٨) وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[٣٢٥].

هذه الآيات الكريمة نزلت في وصف المهاجرين والأنصار من صحابة رسول الله ﷺ، وهي توضح تجردهم لدعوة الإسلام، فلم يقف حب الديار والتعلق بالمال عائقاً أمام خدمتها، فلما أمروا بالهجرة سارعوا إليها تاركين ما ألفته النفس من الديار، وما حازوه من المال تجرداً للدعوة، وابتغاء مرضاة الله التي تعلو على كل حظوظ النفس، وقد وصفتهم الآيات بالإيمان الصادق وتسديد النية في ابتغاء فضل الله ورضوانه، فليس لهم مطمع في المال والجاه

والشهرة، وعندما يحين وقت البذل والعطاء نجد أيديهم سمحة بالمال ممدودة بالسخاء، لا تقف عند حدود بذل المال الزائد والفضل عن الحاجة بل تحقق ما هو أرفع.. تحقق الإيثار على النفس المحتاجة.. فتحرم من حاجتها لتلبي حاجة العقيدة أولاً.. لقد انخلع جيل الصحابة عن الشح ليحققوا الفلاح الذي وصفتهم به الآيات بعد أن استحقوا صفة النصرة لله وللرسول، وبذلك صاروا رموزاً شامخة وأعلاماً هادية وقدوات سامقة تتطلع أجيال المسلمين إليهم بكل فخر واعتزاز وبكل تمجيد وتقدير، وما أحسن وصف ابن مسعود لأبناء جيله من الصحابة حين قال: «من كان منكم متأسياً فليتأسَ بأصحاب محمد ﷺ فإنهم كانوا أبرَّ هذه الأمة قلوباً، وأعمقها علماً، وأقلها تكلفاً، وأقومها هدياً، وأحسنها حالاً. قوماً اختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ وإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم واتبعوهم في آثارهم، فإنهم كانوا على الهَدْي المستقيم».

نهض الصحابة رضوان الله عليهم بالدعوة إلى دين الله، وعبَّروا عن مضامينه ومقاصده أجمل تعبير، مما يدل على وعي عميق بواقع عصرهم، ومقاصد دينهم..

قال ربعي بن عامر لقائد الفرس رستم: «الله ابتعثَنا لنُخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام»[٣٣٦].

وكان الصحابة يحملون رسالة إلى أهل الأرض، وكان أشد فرحهم عند دخول الناس في الإسلام، وكانوا بذلك واعين لأهدافهم حريصين على نشر عقيدتهم مستوعبين لقوله ﷺ لعلي رضي الله عنه يوم خيبر: «**لئن يهديَ الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حُمْرُ النِّعَم**»[٣٣٧].

وكانت قياداتهم بعد رسول الله ﷺ تؤكد هذا المعنى.. قال الصحابي الجليل أنس بن مالك: «بعثني أبو

موسى الأشعري بفتح تُسْتَر إلى عمر، فسألني عمر وكان ستة نفر من بكر بن وائل؟ قلت: يا أمير المؤمنين، قوم قد ارتدوا عن الإسلام ولحقوا بالمشركين ما سبيلهم إلا القتل. فقال عمر: لأن أكون أخذتهم سلماً أحب إلي مما طلعت عليه الشمس من صفراء وبيضاء - أي من الذهب والفضة -.

قلت: يا أمير المؤمنين، وما كنت صانعاً بهم لو أخذتهم؟.

قل لي: كنت عارضاً عليهم الباب الذي خرجوا منه أن يدخلوا فيه، فإن فعلوا ذلك قبلت منهم وإلا استودعتهم السجن».

ولما عرض المُقَوقس على عمرو بن العاص الجزية عند فتح الإسكندرية، على أن يرد إليهم الأسرى، كتب عمر بن الخطاب إلى ابن العاص بقبول الجزية، وتخيير الأسرى بين الإسلام والنصرانية ..

وقد وصف موقف التخيير شاهدُ عيانٍ هو زياد بن جزء الزُّبيدي، قال: «فجمعنا ما في أيدينا من السبايا، واجتمعت النصارى، فجعلنا نأتي بالرجل ممن في أيدينا، ثم نخيِّرهُ بين الإسلام وبين النصرانية، فإذا اختار الإسلام كبَّرنا تكبيرة هي أشد من تكبيرنا حين تُفتح القرية. قال: ثم نحوزه إلينا. وإذا اختار النصرانية نخرت النصارى ثم حازوه إليهم، ووضعنا عليه الجزية، وجزعنا من ذلك جزعاً شديداً حتى كأنه رجل خرج منا إليهم.

قال: فكان ذلك الدأب حتى فرغنا منهم.

وقد أُتِي فيمن أُتينا به - بأبي مريم عبد الله بن عبد الرحمن، فوقفناه فعرضنا عليه الإسلام والنصرانية - وأبوه وأمه وأخوته في النصارى - فاختار الإسلام فحزناه إلينا، ووثب عليه أبوه وأمه وأخوته، يجاذبوننا حتى شقّقوا عليه ثيابه، ثم هو اليوم عريفنا»[٣٢٨].

وهذه الحادثة تكشف عن مشاعر الصحابة، وتعلقهم بدينهم، ورغبتهم الصادقة في إسلام الناس، وإن سقطت الجزية عنهم، ثم هي تكشف عن جو الحرية الدينية، وعدم إجبار أحَدٍ على اعتناق الإسلام حتى مع القدرة عليهم.

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾

في طريقك أشواك وامتحان شاق لا تجتاز ذلك إلا بهمة شامخة ونفس عالية حازت الإيمان والتقوى

ولم يكن طريق الإسلام في جيل الصحابة معبداً مفروشاً بالزهور، وخاصة في أولى مراحل الدعوة بل كان محفوفاً بالأخطار، وكان الدخول فيه امتحاناً شاقاً لا تجتازه بنجاح إلا الهممُ الشامخةُ والنفوس العالية، التي حازت الإيمان والتقوى والإخلاص والمجاهدة.. مرّ رجل بالمقداد بن الأسود - رضي الله عنه - فقال: طوبى لهاتين العينين اللتين رأتا رسول الله ﷺ، والله لوددنا أنا رأينا ما رأيتَ، وشهدنا ما شهدتَ!! فقال المقداد: ما يحمل أحدكم على أن يتمنّى محضراً غيّبه الله عز وجل عنه. لا يدري لو شهده كيف يكون فيه! والله لقد حضر رسولَ الله ﷺ أقوامٌ - كبّهم الله عز وجل على مناخرهم في جهنم - لم يجيبوه ولم يصدقوه! أولا تحمدون الله إذا أخرجكم الله عز وجل لا تعرفون إلا ربكم مصدِّقين بما جاء به نبيكم عليه السلام، وقد كُفيتُم البلاء بغيركم؟! والله لقد بُعث النبي ﷺ على أشدِّ حال بعث عليه نبي من الأنبياء في فترة وجاهلية ما يرون ديناً أفضل من عبادة الأوثان، فجاء بفرقان فرّق به بين الحق والباطل، وفرّق بين الوالد وولده، حتى إن الرجل ليرى والده أو ولده أو خاله كافراً . وقد فتح الله تعالى قفل قلبه للإيمان، ليعلم أنه قد هلك من دخل النار فلا تقر عينه وهو يعلم أن حميمه - أي أقربائه - في النار، وإنها للتي قال الله عز وجل: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾. وكان معظم الصحابة من الفقراء، وكانت الدولة الناشئة في المدينة المنورة لا تملك الأموال، فلا مطمع لمن يدخل في دين الله في نيل المال أو الجاه أو أي من أعراض الدنيا، ومن طريق الروايات التي تصور فقرهم وحالهم ما أخرجه البخاري في صحيحه عن الصحابي الجليل سهل بن سعد - رضي الله عنه - قال: كانت منا امرأة تجعل في مزرعة لها سِلْقاً، فكانت إذا كان يوم الجمعة تنزع أصول السِلق فتجعله في قِدْر، ثم تجعل قبضة من شعير تطحنه، فتكون أصول السِلق عَرْقَه - أي عظمه ولحمه -.

قال سهل: كنا ننصرف إليها من صلاة الجمعة فنسلم عليها، فتقرب ذلك الطعام إلينا، فكنا نتمنَّى يوم الجمعة لطعامها ذلك - وفي رواية: ليس فيها شحم ولا وَدَك، وكنا نفرح بيوم الجمعة»[٣٢٩].

وقد تحمَّل الصحابة الكرام من الجوع ولعطش والحرِّ والبرد والأذى، فصبروا على الامتحان، وآثروا العقيدة على نعيم الدنيا، فاستحقوا المكانة التي وصلوا إليها حيث خلدهم كتاب الله تعالى بما وصفهم به من عاطر الثناء، وحفظت لهم الأمة الإسلامية قدرهم على مدى الزمان.

لقد كان الصحابة يلتزمون بالبيعة لرسول الله ﷺ، ثم للخلفاء الراشدين من بعده، وكان للبيعة قيمة عالية فهي التزام حرٌّ وتعاقدٌ بين الطرفين، وقد دلَّلوا دائماً على صدق التزامهم فلبُّوا داعي الجهاد وخاضوا غمار المعارك في أماكن نائية عن ديارهم، ودُفنَ كثير منهم في أطراف الأرض ما بين كابل والقسطنطينيَة والقيروان وما عرفوا القعود عن الجهاد والحفاظ على الكرامة والذود عن العقيدة.

وبيعة الناس للخليفة تدل على أن الأمة هي مصدر السلطة، وأن السلطة ليست ثيوقراطية، وليست ممنوحة من الله لأحد من البشر، بل هي تعاقد بين المسلمين وحاكمهم على أن يطيعوه في العسر واليسر والمنشط والمكره، مقابل حفاه على دين الله، وإنفاذه حكم الله، وحفظه للأمن، وتحقيقه لمصالح الرعية، فلا كهنوتَ في الإسلام ولا تفويض إلهياً، بل بيعة حرة يدرك الطرفان، الأمة والحاكم عمق معناها ومدى التزاماتها؛ ذلك العمق والالتزام النابعان من معنى الآية الكريمة ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾[٣٣٠].

وما أدق تعبير عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - حين قال له عمير بن عطية الليثي - رضي الله عنه -: يا أمير المؤمنين ارفع يدك - رفعها الله - أبايعْكَ على سُنَّة الله ورسوله. فرفع عمر يده وضحك وقال: هي لنا عليكم ولكم علينا. فالتزام البيعة إذاً يشمل الراعي والرعية.

تفاضل الصحابة حسب سبقهم وخدمتهم لفكرتهم وليس على نسبهم أو شرف مكانتهم

لقد خلد القرآن الكريم مواقف المسلمين الأوائل من المهاجرين والأنصار في آيات كثيرة. قال تعالى: ﴿والسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ المُهَاجِرِينَ والأَنصَارِ والَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ورَضُوا عَنْهُ وأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الفَوْزُ العَظِيمُ﴾[٣٣١].

والسابقون الأولون هم الذين صلّوا إلى بيت المقدس أولاً ثم صلوا إلى الكعبة بعد تحويل القبلة إليها، وهذا الرأي قال به سعيد بن المسيب، ومحمد بن سيرين، وهما من كبار التابعين. وتحويل القبلة إلى الكعبة كان في السنة الثانية من الهجرة بعد ستةَ عشرَ شهراً من قدومه صلى الله عليه وآله إلى المدينة، فمن كان على الإسلام قبل هذا التاريخ فهو من السابقين الأولين.

إنّ أولي السابقة تحمّلوا المسؤولية في ظروف الشدة والخطر، فالمهاجرون ضحوا بالأهل والمال والديار، وهاجروا لنصرة عقيدتهم، والأنصار عرّضوا مدينتهم للخطر، وآثروا العقيدة بالنفس والمال والأمن.

وقد تفاضل الصحابة - رضوان الله عليهم - حسب قدمهم في لإسلام وخدمتهم للعقيدة، فكان البدريون طبقة أولى فهم من السابقين الأولين، وكان من شهد أُحداً طبقة ثانية، وكان من شهد الخندق طبقة ثالثة، ومن شهد بيعة ا لحديبية طبقة رابعة، ومن أسلم في ما قبل الفتح طبقة ومن أسلم بعد فتح مكة طبقة.

وروى البخاري ومسلم أن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - استأذن الرسول صلى الله عليه وآله في أن يقتل حاطب بن أبي بلتعة، وهو صحابي بدري، حاول أن يرسل خبر إعداد المسلمين لفتح مكة إلى قريش، لكن الرسالة سقطت بيد المسلمين، واعترف حاطب بأنه أراد أن يحمي أهله بمكة من أذى قريش، وهنا نجد أن سابقة حاطب وشهوده بدراً تشفع له، فلا يأذن الرسول صلى الله عليه وآله لعمر بقتله بل يقول: **إنه شهد بدراً وما يدريك لعل الله اطّلع على أهل بدر**

فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرتُ لكم»[٣٣٢].

وقد اشتكى أحد عبيد حاطب بن أبي بلتعة عليه عند رسول الله ﷺ وقال: يا رسول الله ليدخلنّ حاطب النار، فقال رسول الله ﷺ: كذبتَ لا يدخلها إنه شهد بدراً والحديبية»[٣٣٣].

وقد قال رسول الله ﷺ: «لن يدخل النار أحدٌ شهد بدراً والحديبية»[٣٣٤].

وقد اختص عمر بن الخطاب أهلَ السابقة والخدمة للإسلام بعطاءٍ أوفر من الدولة، وهكذا قرن بين التكريم المعنوي والمادي لتمكين هؤلاء الرجال من العيش الكريم، ولتقوية نفوذهم في المجتمع، وتدعيم مركزهم في القيادة والتوجيه، وهي التفاتة تدلُّ على عبقرية أمير المؤمنين عمر - رضي الله عنه -.

روى البخاري عن زيد بن أسلم عن أبيه قال: «خرجت مع عمر بن الخطاب - رضي الله عنه- إلى السوق، فلحقت عمر امرأة شابة فقالت: يا أمير المؤمنين، لك زوجي وترك صبية صاراً، والله ما يُنضِجون كُراعاً، ولا لهم زرعٌ ولا ضرعٌ، وخشيت أن تأكلهم الضبُعُ - أي السَنةُ المجدبة - وأنا بنت خفاف بن إيماء الغفاري وقد شهد أبي الحديبية مع النبي ﷺ.

فوقف معها عمر ولم يمضِ، ثم قال: مرحباً بنسب قريب، ثم انصرف إلى بعير ظهير كان مربوطاً في الأرض، فحمل عليه غرارتين ملأهما طعاماً وحمل بينهما نفقة وثياباً، ثم ناولها بخطامه ثم قال: اقتاديه، فلن يفنى حتى يأتيكم الله بخير.

فقال رجل: يا أمير المؤمنين أكثرتَ لها.

فقال عمر: ثكلتكَ أمُك، والأهل إني لأرى أبا هذه وأخاها قد حاصرا حِصناً زمناً فافتتحناه، ثم أصبحنا نستفيءُ سهامنا فيه».

وقد تكرر ذلك من عمر - رضي الله عنه -، فقد قسّم مروطاً (أكسية من صوف أو خزّ) بين نساء أهل المدينة، فبقي منها مرط جيد، فقال بعض من حضر: يا أمير المؤمنين أعطِ هذا ابنة رسول الله ﷺ التي عندك - يريدون أم كلثوم بنت علي - رضي الله عنه - وكانت زوجة لعمر بن الخطاب.

فقال عمر: أم سُليط أحق به، فإنها ممن بايع رسول الله ﷺ وكانت تحمل للناس القِرَب يوم أُحد[٣٣٥].

وهكذا فإن تكريم الأبطال الذين يقدمون خدمات عظيمة للمجتمع انسحب على أبنائهم، وبذلك يعرف الناس جميعاً أن تضحياتهم لا تضيع في الدنيا ولا في الآخرة ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾.

ولا شك أن الإسلام جعل أتباعه يتطلعون إلى ما عند الله من الأجر العظيم، الذي لا يعدله شيء من تكريم الدنيا مهما عظم، فقد صحّ أن أعرابياً شهد فتح خيبر أراد النبي ﷺ أثناء المعركة أن يقسم له قِسْماً وكان غائباً، فلما حضر أعطوه ما قسم له، فجاء به إلى النبي ﷺ فقال: ما على هذا اتبعتك، ولكني اتبعتك على أن أُرمى هاهنا - وأشار إلى حلقه - بسهم فأدخُلَ الجنة.

قال: **إن تصدقِ الله يَصْدُقْك.**

فلبثوا قليلاً، ثم نضوا في قتال العجم، فأُتي به يحمل قد أصابه سهم حيث أشار، فكفّنه النبي ﷺ بجُبَّتِه وصلّى عليه ودعا له فكان مما قال:

«اللهم هذا عبدك خرج مهاجراً في سبيلك فقُتل شهيداً، وأنا عليه شهيد»[٣٣٦].

وقد أثبت الأبطال المسلمون ترفعاً على الدنيا وما فيها، وشمخت نفوسهم إلى الرضوان الأكبر، فعن جابر بن عبد الله - رضي الله عنه - قال: «والله الذي لا إله إلا هو، ما اطلعنا على أحد من أهل القادسية، أنه يريد الدنيا مع الآخرة»[٣٣٧].

لم تعن أمة بتسجيل تراجم رجالاتها مثل عناية هذه الأمة بذلك

اقتد ونفرق بين العظمة والعصمة. فكون الرجل عظيما لا يعني خلوه من خطأ أو نسيان

ولما قُدم بسيف كسرى على عمر ومِنْطَقَته وزِبْرجِه، قال عمر: إن أقواماً أَدَّوا هذا لَذَوو أمانة.

فقال علي - رضي الله عنه -: إنَّك عففتَ فعفَّت الرعية(٣٣٨).

ومن أجل مظاهر تكريم الصحابة في الإسلام أنهم اعتبروا موضعَ قدوة وتأسٍ من بين المسلمين فكتبت سيرهم وعرفت أخبارهم وبلغت كتب التراجم التي خلدت ذكراهم عشرات الألوف من الكتب، فلم تعنَ أمة بتسجيل تراجم رجالاتها مثل عناية الأمة الإسلامية، وهذا هو السبب الذي جعل كتب التراجم أوسع موضوعات المكتبة العربية الإسلامية.

وكان العلماء قديماً وحديثاً يوجُّهون النشأ إلى النظر في سيرة الرسول ﷺ، وسير أصحابه الغر الميامين، لينشأوا على حب البطولة والأبطال، وليتأسوا بخلق أصحاب المروءة والشجاعة والكرم والصدق والعفاف والمعروف. وقد نبَّه القرآن الكريم إلى ضرورة تحقيق هذا المنهج في الاقتداء بالصالحين فقال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾(٣٣٩). والاقتداء بالرسول ﷺ شامل لمنهجه في مطالب الدين والدنيا لأنه لا ينطق عن الهوى بل هو وحي يوحى.

أما الاقتداء بالعظماء والصالحين من البشر فيكون في الجانب الذي تميزوا به مما يتطابق مع أحكام الشرع ومقاصده، فيستفاد من تطبيقهم ذلك في حياتهم لتوضيح المعنى وإبراز موضع القدوة، مع ضرورة اعتبار بعض القواعد، ومنها أن الأفذاذ من الأبطال والصالحين لهم أخطاؤهم أيضاً، وكل يؤخذ منه ويرد عليه إلا المعصوم ﷺ، ومن هنا تظهر أهمية قاعدة «اعرف الرجال بالحق ولا تعرف الحق بالرجال» فمن المهم وضوح الحق وتميزه ومعرفة الباطل وتميزه، وقد قال الإمام أحمد: «من ضيق علم الرجل أن - يقلد في دينه الرجال».

والصحابة أنفسهم يتفاضلون في السابقة والجهاد والعلم بالقرآن والسنة والفقه، فمنهم البدريون وأُحديون وأصحاب الخندق ومسلمة ما قبل الفتح ومسلمة ما بعد

لكل مجتمع رموز وقادة يمثلون قيمه ويوجهون الامة نحوها ورموز المجتمع الإسلامي الاول هم صحابة رسول الله ﷺ

الفتح، ولا شك أن أصحاب السابقة هؤلاء يمتازون بأنهم رموز الدعوة الإسلامية، ومثلها العليا، وكانت أعمالهم سوابق تُحتذى، كما أن النبي ﷺ نص على أن أعمال الخلفاء الراشدين سنّة تُحتذى، وسوابق يقاس عليها، وذلك في الحديث «**عليكم بسنتي وسنة الخلفاء المهديين الراشدين تمسكوا بها وعَضّوا عليها بالنواجذ**»[٢٤٠].

ونجد الآية الكريمة هنا توجه المؤمنين إلى اتباع أهل السابقة ﴿والَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ﴾.

ونجد الخليفة عمر بن الخطاب يختص أهل السابقة من البدريين بأعلى العطاء، وكان يدرك أن ترسيخ جذور هذه الفئة وتقويتها بالدعم المادي والأدبي يمكنها من القيام بدورها خير قيام ويجعلها تتخلص من الضغوط الاقتصادية والاجتماعية وبذلك تعين على ترسيخ القيم الإسلامية والحفاظ عليها وتمارس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر دون أن تعيقها الحاجة، أو تستذلها المادة، أو تخيفها من قولة الحق.

إنّ لكل مجتمع رموزاً وقادة يمثلون قيمه، ويوجهون الأمة نحوها، ورموز المجتمع الإسلامي الأول هم صحابة رسول الله ﷺ وأفضلهم أهل السابقة، فقد محصتهم الفتن، وامتُحنوا بالنفس والنفيس، فاسترخَصوا كل شيء من أجل رفع راية العقيدة الإسلامية.

هذا صهيب - رضي الله عنه - أقبل مهاجراً نحو النبي ﷺ فتبعه نفر من قريش مشركون، فنزل فانتشل كنانته فقال: قد علمتم يا معشر قريش أني أرماكم رجلًا بسهم، وأيم الله لا تصلون إليّ حتى أرميكم بكل سهم في كنانتي، ثم أضربكم بسيفي ما بقي في يدي منه شيء، ثم شأنكم بعد ذلك، وإن شئتم دللتكم على مالي بمكة وتخلوا سبيلي، قالوا: نعم. فتعاهدوا على ذلك فدلهم، فأنزل الله على رسوله القرآن ﴿ومِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾[٢٤١].

حتى فرغ من الآية. فلما رأى النبي ﷺ صهيباً قال: ربح البيع يا أبا يحيىّ ربح البيع يا أبا يحيى! وتلا عليه الآية[٣٤٢].

وأمثال صهيب كثير عافوا الأرض والأهل والمال، وهاجروا بأنفسهم إلى الله ورسوله، فكانوا مادة لإسلام ورجاله الأولين. وكانت الهجرة نصرةً لدين الله ودفعاً لفتنة الإقامة بين ظهراني المشركين، كذلك كانت بيعة الأنصار في العقبة الثانية على النصرة، فقد مكث رسول الله ﷺ بمكة عشر سنين يتبع الناس في منازلهم عكاظ ومجنة وفي المواسم يقول: « **من يؤويني من ينصرني حتى أبلغ رسالة ربي وله الجنة؟** «فلا يجيبه أحد يؤويه ولا ينصره، حتى إن الرجل ليخرج من اليمن أو من مضر، يأتيه قومه وذوو رمه فيقولون: احذر غلام قريش لا يفتنك. حتى بعث الله إليه الأنصار فآووه وصدقوه ونصروه»[٣٤٣].

وأنفق الأنصار النفقة العظيمة، وواسوا المهاجرين بأموالهم، وآثروهم على أنفسهم حتى قال المهاجرون: يا رسول الله ما رأينا مثل أقوام قدمنا عليهم أحسن مواساةً في قليل، ولا أحسن بذلاً من كثير، لقد كفونا المؤونة وأشركونا في المهنأ، حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله. فقال ﷺ: «**لا ما أثنيتم عليهم ودعوتم الله لهم**»[٣٤٤].

وقد استحق الأنصار وصف رجال العقيدة المخلصين كما قال لهم ﷺ: «**إنكم ما علمت تكثرون عند الفزع وتقلّون عند الطمع**». وتخليداً لمروءتهم وعفتهم وشهامتهم قال ﷺ: «**ما يضر امرأة نزلت بين بيتين من الأنصار أو نزلت بين أبويها**»[٣٤٥].

وهكذا كان جيل الصحابة رضوان الله عليهم يقدم التضحيات الجسيمة في سبيل نصرة دين الله، فمكّن الله لهم في الأرض كما وعدهم - ووعدُهُ الحقُّ - بقوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾[٣٤٦].

وقد دلّ التاريخ على نجاح التربية المحمدية للصحابة رضوان الله عليهم، فبرز منهم علماء الإسلام من الخلفاء والولاة والقضاة والقادة والعلماء والمربين، وتمكنوا من إرساء قواعد العقيدة ومناهج الشريعة وأصول التربية وقيم الأخلاق في المجتمع الإسلامي والدولة الإسلامية.

فلما توفي رسول الله ﷺ ترك في الدنيا الرجال الذين رباهم على عينه، وقد ودعهم الوداع الأخير عندما أطل عليهم من حجرته صفوفاً منتظمةً خلف الصديق - رضي الله عنه - فابتسم ابتسامة الرضا والطمأنينة والثقة على مصير العقيدة في أيدي الصحابة الثقات.

وتتالت الأحداث الخطيرة بعد وفاته وعجن التاريخ عود الصحابة واختبر صلابة قناتهم التي لا تلين.. ارتد الاعراب خارج المدينة ومكة والطائف، وامتنعوا عن أداء الزكاة، ونصح بعض الصحابة أبا بكر الصديق - رضي الله عنه - أن يدعهم يصلون ولا يؤدون الزكاة فقال: «والله لأقاتلنَّ من فرَّق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حقُّ المال، والله لو وضعوني عَناقاً كان يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها»[٣٤٧].

فقاتل الأعرابَ حتى رجعوا إلى الإسلام، وأعاد توحيد الدولة، ونظم حملات الجهاد لفتح العراق والشام.

وتوفي أبو بكر - رضي الله عنه - وبايع الناس عمر بن الخطاب، فحرص الناس على الجهاد، وأتم فتح العراق وإيران والشام ومصر، وأعاد تنظيم الجيش ورتب ديوان الجند وفرض الخراج على الأراضي المفتوحة عنوة، وعزز استقلال القضاة عن الولاة، وحقق قول النبي ﷺ فيه: «**لم أر عبقرياً يفري فريه**»[٣٤٨].

وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ

خرجت مدرسة القرآن جيلاً عظيماً في دينه عظيماً في خلقه عظيماً في جهاده

وعزّز مبدأ الشورى وطبقه في حياته وعند وفاته، وبذلك أكّد على دور الأمة ممثلة في أهل الحل والعقد، وصارت سيرته رمزاً للعدل المطلق على مدى التاريخ، ومات غيلة على يد أبي لؤلؤة المجوسي.

وهكذا كان دور عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب في إقامة صرح الإسلام، وتوسيع رقعة دولته، ودعاءِ الناس إلى اعتناقه، وإقامة الشرع الحنيف وأحكامه بين أتباعه، وإعلاء راية الجهاد، ونشر العلم، وإشاعة الفقه وتولي الفتيا، وإطفاء الفتن، حتى ماتا شهيدين - كما بشّرهما رسول الله ﷺ.

ورغم حداثة عهد العرب بالدولة الواحدة التي لم يعرفوها قبل الإسلام، فقد دامت دولة الإسلام بعد رسول الله ﷺ قروناً طويلة، مما يدل على عمق الأساس الذي بناه رسول الله ﷺ، وعلى نجاح تربيته للصحابة الذين تولوا الأمر من بعده.

لقد خرّجت مدرسة القرآن جيلاً عظيماً في دينه، عظيماً في خلقه، عظيماً في جهاده، وحسن بلائه، وفتّقت الأذهان والقرائح، وأنارت القلوبَ بوَهَج الإيمان، والعقولَ رحيق القرآن، وأثبتت تاريخياً أنها قادرة على تحقيق إنسانية الإنسان، والحفاظ على جوهره النقي، ومعدنه الأصيل، وفطرته السليمة في حين أضاعت الأيديولوجيات والفلسفات الوضعية الإنسان وأحالته إلى مسخ، فصادرت روحه وعقله وخلقه، وغرست التوحش والانتقام، ونمّت أنيابه ومخالبه، وما زالت مدرسة ا لقرآن قادرة على إعادة الإنسان إلى إنسانيته، عندما يرتشف من رحيق الكتاب والسنة، ويقتدي بجيل الصحابة رضوان الله عليهم.

فضل الهجرة

لقد بيّن القرآن في آيات كثيرة فضل الهجرة في سبيل الله، ومكانة المهاجرين الأولين الذين خلّد الله ذكرهم، وأعلى مكانهم، وبيّن عظيم أجرهم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(٣٤٩). وقال تعالى: ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾(٣٥٠).

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾(٣٥١).

وقال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾(٣٥٢).

وكانت الهجرة من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة دليلاً على ما للعقيدة من تأثير بالغ، يقوى على فصم روابط الإنسان بالمكان؛ أرضاً ومالاً ومصالح وأهلاً، فقد ترك المهاجرون كل ذلك وراءهم عندما اقتضت مصلحة العقيدة ذلك، وكانوا يرسمون مستقبلاً وضيئاً لأمة الإسلام، فهجرتهم وصبرهم وجهادهم وتضحياتهم أقامت دولة الإسلام الأولى على أرض المدينة المباركة.

ومنذ ذلك الحين قبل أربعة عشر قرناً استمرت دولة الإسلام تتوسع حتى شملت مساحة واسعة في قارات آسيا وأفريقيا وأوروبا.

صبغتها جميعاً بصبغة العقيدة، وأظلتها بروح الإسلام، وحضارته الشامخة، وشريعته السمحاء، فوحدت قلوب الناس بالمعتقد وقانونَهم ونظامَهم بالشرع، وسلوكهم ووجهتهم بأهداف الإسلام في تحرير الإنسان من الشرك والظلم والتيه. وكانت اللغة العربية أداة الاتصال بين جميع المسلمين من سائر الأجناس والألوان، إذ ما أن يعتنق الإنسان الإسلام

بعد مئة عام .. لن يذكر الناس شيئاً عن أحوالنا .. ولكن من التأكيد أنهم سيذكرون مآثر ومفاخر المنجزات الفكرية التي قام بها البعض منا

حتى يسعى لتعلمها ومعرفة كتاب ربه وحديث نبيه بواسطتها.

وهكذا أسهم الجميع في بناء صرح أدب عربي إسلامي رفيع. كما أسهموا في فهم معاني القرآن والسنة وأحكامهما، ووضع قواعد الاستنباط منهما، فنمت الثروة الفقهية الهائلة التي هي مجهود عقول اعتصرها أصحابها للوصول إلى حكم الله في كل ما يستجد في الحياة من أحداث.

وما خلد القرآن ذكر المهاجرين الأولين فقد خلد ذكر الأنصار الذين آووهم وشاركوهم بيوتهم وأموالهم، وعرضوا أمن مدينتهم للخطر في سبيل العقيدة التي اعتنقوها والدين الذي آمنوا به.

قال تعالى: ﴿والَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ والإِيمَانَ من قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ولا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ﴾[٣٥٣].وقال ﷺ في بيان فضل الهجرة ومكانة النصرة **(ولولا الهجرة لكنت أمرأ من الأنصار)**[٣٥٤].

وسميت المدينة بـ«دار الهجرة والسنة» كما في صحيح البخاري.

وصارت الهجرة إليها من مكة أولاً ثم من سائر الأنحاء الأخرى التي انتشر منها الإسلام، وكانت الآيات القرآنية تحث على الهجرة بقوة وترتب عليها من الفضل العظيم، ورجاء رحمة الله، وتكفير السيئات، وتوبة الله تعالى على المهاجرين ورضا الله عنهم، ودخول الجنة.. هذا في الآخرة، وأما التقويم في الدنيا فقد اعتبرت الهجرة من أفضل الأعمال، وأولاها برفع مرتبة المسلم معنوياً، ثم صار لها اعتبار مادي في العطاء السنوي منذ أن نظم عمر - رضي الله عنه- العطاء. فاعتبر السابقة في الإسلام سبباً في زيادة عطاء المسلم السنوي، وكان المراد من الحث المستمر على الهجرة

النية الصالحة شرط رئيسي في كل الأعمال

توفير القوة البشرية اللازمة للدفاع عن المدينة المنورة، لذلك لم تتوقف الهجرة إلا بعد فتح مكة المكرمة حيث قال الرسول ﷺ: «**لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا**»(٣٥٥). أما قبل فتح مكة فكانت الآيات القرآنية ترتب حقوقاً خاصة للمهاجرين، وتحدد من حقوق المسلمين إذا لم يهاجروا. قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَنَصَرُوا أُوْلَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلايَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾(٣٥٦).

ولم يقبل القرآن عذراً للقادرين على ا لهجرة من أرضهم ممن يلاقون العنت في المحافظة على دينهم، فأرض الله وسعة فيمكنهم الهجرة، ولا ينبغي لهم الاستكانة للجبابرة قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً (٩٧) إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً (٩٨) فَأُوْلَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوّاً غَفُوراً﴾(٣٥٧).

ووعد الله تعالى المهاجرين بالرزق والسعة وثبوت أجرهم إذا توفوا في الهجرة فقال: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَماً كَثِيراً وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً﴾(٣٥٨).

وتوافر النية الخلاصة لازم للهجرة الصحيحة كما هو شرط في كل الأعمال الصالحة، قال ﷺ:

«إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه»[٣٥٩].

ومن أجل ذلك أمر الله تعالى نبيه ﷺ بامتحان النساء المهاجرات بعد صلح الحديبية، فمن تبين أنها هاجرت بسبب العقيدة فإنها لا تعاد إلى أهلها قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ ولا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وآتُوهُم مَّا أَنفَقُوا ﴾[٣٦٠].

وكانت البيعة التي يبايع بها المؤمنون رسول الله ﷺ تشتمل على الهجرة، حتى كان فتح مكة فأبى رسول الله ﷺ أن يبايع أحداً على الهجرة لأنها انقطعت.

قال مجاشع: «أتيت النبي ﷺ بأخي بعد الفتح، فقلت يا رسول الله جئتك بأخي لتبايعه على الهجرة. قال: **ذهب أهل الهجرة بينما بما فيها**، فقلت: على أي شيء تبايعه؟ قال: **أبايعه على الإسلام والإيمان والجهاد**»[٣٦١].

وعن مجاهد قال: قلت لابن عمر رضي الله عنهما: «إني أريد أن أهاجر إلى الشام قال: لا هجرة ولكن جهاد فانطلق فأعرض نفسك فإن وجدت شيئاً وإلا رجعت»[٣٦٢].

وقد بين رسول الله ﷺ أن مهاجرة الحبشة الذين تركوا مكة في ظروف الاضطهاد بأمر الرسول ﷺ فهاجروا إلى الحبشة ثم هاجروا منها حين افتتح خيبر إلى المدينة المنورة بين أن لهم هجرتين، الهجرة إلى المدينة والهجرة إلى الحبشة، فقال ﷺ:

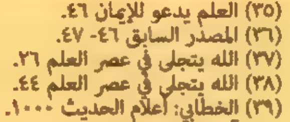
«لكم أنتم يا أهل السفينة هجرتان»[٣٦٣].

إن عالم الإسلام اليوم لا بد أن يقدر للعقيدة قدرها، ويعمل على إعادة بناء صرح العقيدة والحضارة من جديد، ويهجر المعصية إلى الطاعة، والفرقة إلى الوحدة، واليأس إلى الأمل، والكسل إلى العمل، والذل إلى العز، والضعف إلى القوة،والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَـٰبِكُمْ

الحواشي

(١) البقرة ١-٢.
(٢) الأنبياء ٤٩.
(٣) الرعد ٢١.
(٤) الأنبياء ٩٠.
(٥) إبراهيم ١٤.
(٦) الأنبياء ٩٠.
(٧) يس ٣٨.
(٨) صحيح البخاري ٧٦/٤ط. استانبول.
(٩) كولن ولسن: «الإنسان وقواه الخفية» ص٨، ١١، ١٤.
(١٠) كولن ولسن: «الإنسان وقواه الخفية» ص ٢١.
(١١) المصدر نفسه ص ٣٦٨، ٣٢٤.
(١٢) المصدر نفسه ص ٣٨٩.
(١٣) صحيح البخاري ٧٦/٤ط. استانبول.
(١٤) صحيح البخاري ٧٤/٤ط استانبول.
(١٥) المصدر نفسه.
(١٦) صحيح البخاري ١٦٨/٧.
(١٧) النور ٤٠.
(١٨) الزمر ٦٧.
(١٩) آل عمران ١٨ – ١٩.
(٢٠) الطور ٣٥ – ٣٦.
(٢١) رواه البخاري في صحيحه حديث رقم ٤٨٥٤.
(٢٢) الفتاوى ١٥١/١٣.
(٢٣) الزخرف آية ٨٧.
(٢٤) الزمر آية ٣٨.
(٢٥) الزمر آية ٩.
(٢٦) النحل آية ١٧.
(٢٧) الحج آية ٧٣.
(٢٨) النحل: ٢٠.
(٢٩) الفرقان: ٣.
(٣٠) الأعراف: ١٩١.
(٣١) الرعد: ١٦.
(٣٢) فاطر: ٤٠.
(٣٣) المؤمنون: ٩١.
(٣٤) الملك: ٣.





(٣٥) العلم يدعو للإيمان ٤٦.
(٣٦) المصدر السابق ٤٦- ٤٧.
(٣٧) الله يتجلى في عصر العلم ٢٦.
(٣٨) الله يتجلى في عصر العلم ٤٤.
(٣٩) الخطابي: أعلام الحديث ١٠٠٠.
(٤٠) آل عمران ٨٤، ٨٥.
(٤١) تفسير ابن أبي حاتم للآية ٩٥ من سورة آل عمران، وإسناد الحديث حسن وله حكم الرفع لأنه من أمور الغيب.
(٤٢) الشورى: آية ١٣.
(٤٣) محمود سليم الحوت: في طريق الميثولوجيا عند العرب ١٤٦ – ١٦٢.
(٤٤) آل عمران: ٣.
(٤٥) الأنعام: ١٢٤.
(٤٦) الحج: ٧٥.
(٤٧) الأنبياء: ٧٤.
(٤٨) تشير رواية ضعيفة إلى أن عدد الأنبياء ٢٤،٠٠٠ نبي وعدد الرسل ٣١٥ رسولا. انظر مسند أحمد ٢٦٦/٥ وفي إسناده معان بن رفاعة السلامي لين الحديث كثير الإرسال كما في التقريب وعلي بن يزيد الألهاني ضعيف والقاسم بن عبد الرحمن صدوق يغرب كثيرا.
(٤٩) البقرة: ٢٥٣.
(٥٠) أخرجه الترمذي: سنن ٥٨٧/٥ وقال: هذا حديث صحيح، وأخرجه أحمد في المسند ٥/١.
(٥١) البقرة: ٢٨٥.
(٥٢) فصلت: ٦.
(٥٣) الدرامي: سنن ٣٥/١- ٣٦ من طريقين، وأخرجه البزار من طريق ابن عباس أيضا (الهيثمي: مجمع الزوائد ٢١/٩ وقال: رجاله رجال الصحيح).
(٥٤) الهيثمي: مجمع الزوائد ٢١/٩ وقال: رجاله رجال الصحيح).
(٥٥) مسند أحمد ١٧٦/٦ ونظر: ١٢١، ٢٦٠ منه.
(٥٦) آل عمران آية: ٧٩.
(٥٧) ابن ماجة: السنن ١١٠١/٢ حديث رقم ٣٣١٢ وصحيح سنن ابن ماجة ٢٣٢/٢ حديث رقم ٣٦٧٧.
(٥٨) صحيح البخاري حديث رقم ٥٦٤٨.
(٥٩) صحيح البخاري حديث رقم ٤٤٦٢.
(٦٠) مسند أحمد ٩٤/٣.

(٦١) صحيح مسلم حديث رقم ٣٦٠١.
(٦٢) الخطابي: أعلام الحديث ٧٧.
(٦٣) صحيح البخاري حديث رقم ٤٨٢ (فتح الباري ٥٦٥/١).
(٦٤) رواه البخاري في صحيحه كما في فتح الباري حديث رقم ٢٧٣١.
(٦٥) ابن حجر: فتح الباري ٣٤٦/٥ - ٣٤٧.
(٦٦) صحيح البخاري ١٠٣/٣.
(٦٧) متفق عليه (صحيح البخاري ٤٤/٢) وصحيح مسلم حديث رقم ٢٨١٩.
(٦٨) الأحزاب: ٤٠.
(٦٩) صحيح مسلم ١٧٩١.
(٧٠) المائدة آية: ٣.
(٧١) آل عمران آية: ١٩.
(٧٢) آل عمران آية: ٨٥.
(٧٣) الأعراف آية: ١٥٧.
(٧٤) الحج آية: ٧٨.
(٧٥) فصلت آية: ٣٣.
(٧٦) آل عمران آية: ٦٨.
(٧٧) صحيح البخاري ١٤٢/٤ واللفظ له وصحيح مسلم حديث رقم ٢٣٦٥.
(٧٨) متفق عليه (صحيح البخاري ١٢٦/٤) وصحيح مسلم حديث رقم ١١٣٠.
(٧٩) سبأ آية: ٢٨.
(٨٠) صحيح البخاري ٨٦/١.
(٨١) صحيح مسلم ٣٧١/١ حديث رقم ٥٢٣.
(٨٢) الحجر: ٩.
(٨٣) انظر إعجاز القرآن لأبي بكر الباقلاني.
(٨٤) متفق عليه واللفظ لمسلم (صحيح البخاري ٩٧/٦، وصحيح مسلم ١٣٤/١ حديث رقم ١٥٢).
(٨٥) الآية رقم ٥٢ من سورة الشورى.
(٨٦) أخرجه رزين موقوفا على عبد الله بن مسعود، ومعناه عند الإمام أحمد والنسائي مرفوعا إلى النبي صلى الله عليه وسلم.
(٨٧) القيامة: ١٦.
(٨٨) أخرجه البخاري ومسلم (فتح الباري ٢٣/١).
(٨٩) الحجر : ٩.
(٩٠) البخاري: الصحيح، كتاب فضائل القرآن، باب القراء من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ٤٧/٩ وكتاب المناقب، باب مناقب زيد بن ثابت ١٢٧/٧.
(٩١) صحيح البخاري ٩٨/٦ وانظر التفاصيل في الاتقان للسيوطي ٧٦.
(٩٢) العنكبوت: ٦٩.
(٩٣) محمد: ١٧.
(٩٤) النساء: ٦٦-٦٧.
(٩٥) يوسف: ٨٣.
(٩٦) المائدة: ٣٠.
(٩٧) المائدة: ٣١.
(٩٨) المؤمنون: ١١٥.
(٩٩) الشمس: ٧،٨.
(١٠٠) العلق: ٦،٧.
(١٠١) سبأ: ١٣.
(١٠٢) العاديات: ٦.
(١٠٣) عبس: ١٧.
(١٠٤) البلد: ٤.
(١٠٥) النجم: ٣٩.
(١٠٦) القمر: ٣٥.
(١٠٧) نوح: ١٠.
(١٠٨) الزخرف: ٥٤.
(١٠٩) الأحقاف: ٣٢.
(١١٠) الزمر: ٥٣.
(١١١) يوسف: ٥٣.
(١١٢) الأنعام: ٤٣.
(١١٣) الناس: ٥.
(١١٤) الأعراف: ٢٠.
(١١٥) الكهف: ١٠٤.
(١١٦) فاطر: ٨.
(١١٧) البقرة: ٢٦٨.
(١١٨) رواه الترمذي: السنن ٢١٩/٥-٢٢٠.
(١١٩) النور: ٥٤٧.
(١٢٠) النساء: ٨٢.
(١٢١) آل عمران: ٧.
(١٢٢) المدثر: ٢٦-٣١.
(١٢٣) المدثر: ٢٥.

(١٢٤) النساء: ٥٦.
(١٢٥) المدثر: ٣١.
(١٢٦) رواه الترمذي وقال: هذا حديث حسن (سنن ١٥٧/٢).
(١٢٧) رواه الترمذي (سنن ١٥٧/٢).
(١٢٨) منهم الدكتور محمد حسين هيكل في كتابه (حياة محمد).
(١٢٩) الأنعام: ١٠٨-١١٠.
(١٣٠) الأنعام: ٧-٨.
(١٣١) الحجر: ١٤.
(١٣٢) ابن تيمية: النبوات ١٦٤.
(١٣٣) متفق عليه (صحيح البخاري ٣/٩ وصحيح مسلم ١٣٤/١).
(١٣٤) الإسراء: ٨٨.
(١٣٥) هود: ١٤.
(١٣٦) يونس: ٣٦.
(١٣٧) البقرة: ٢٣.
(١٣٨) الطور: ٣٣.
(١٣٩) رواه الإمام مسلم في صحيحه ١٤٧/١.
(١٤٠) رواه البخاري في صحيحه كما في فتح الباري ٤٥٨/١ ومسلم في صحيحه ١٤٨/١.
(١٤١) البقرة: ٣.
(١٤٢) رواه البخاري في صحيحه ٦٣١/٦.
(١٤٣) رواه الإمام أحمد في مسنده ٨١/٤ وروى ابن حبان طرفه (موارد الظمآن ٥١٩).
(١٤٤) أخرجه البخاري في صحيحه ٤٤٧/١.
(١٤٥) المسند: ٢٢٣/١.
(١٤٦) أخرجه البخاري في صحيحه ٥٨٧/٦.
(١٤٧) أخرجه البخاري في صحيحه ٥٨٠/٦-٥٨١.
(١٤٨) أخرجه البخاري في صحيحه ٣٢٩/٥.
(١٤٩) صحيح البخاري ٥٨١/٦.
(١٥٠) رواه مسلم في صحيحه ١٧٨٤/٣.
(١٥١) رواه البخاري ومسلم (صحيح البخاري ٣٩٥/٧ وصحيح مسلم ١٦١٠/٣).
(١٥٢) رواه البخاري في صحيحه ٢٢٦/٩.
(١٥٣) صحيح مسلم ٥٥/١.
(١٥٤) رواه الإمام أحمد في مسنده ٣٥٢/٢، والترمذي في جامعه وقال: حسن غريب من هذا الوجه وقد روي من غير هذا الوجه عن أبي هريرة (سنن الترمذي ٦٨٥/٥ حديث رقم ٣٨٣٩).
(١٥٥) رواه البخاري في الصحيح ٣٤/٧.
(١٥٦) رواه الإمام أحمد بإسناد صحيح (المسند ٢٨/٥ و٨١).
(١٥٧) رواه البخاري في صحيحه ١١٦/٣.
(١٥٨) رواه البخاري في صحيحه ١١٦/٣ من حديث أنس بن مالك.
(١٥٩) رواه مسلم في صحيحه ١٧٨٥/٤.
(١٦٠) أخرجه أبو داود بغسناد حسن (سنن ٦٢٧/٣ حديث رقم ٣٣٣٢، ومسند أحمد ٢٩٤/٥.
(١٦١) صحيح البخاري ٢٢٩/٣.
(١٦٢) رواه مسلم في صحيحه ٢١٥٤/٢.
(١٦٣) رواه البخاري في صحيحه ٣١٩/٤.
(١٦٤) رواه مسلم في صحيحه ١٧٨٢/٤.
(١٦٥) رواه أحمد بإسناد حسن (المسند ٢٠٩/٦.
(١٦٦) رواه الإمام أحمد بإسناد صحيح (المسند ٢٥٠/١ و٢٦٩).
(١٦٧) رواه مسلم واللفظ لسلمة بن الأكوع (الصحيح ١٣٩٨/٣ و١٤٠٢).
(١٦٨) رواه الإمام أحمد بغسناد حسن (المسند ٣٦٨/١).
(١٦٩) سيرة ابن هشام ٢٤٤/١ حيث يسوق ابن إسحق الخبر دون إسناد، وروى الحديث مسندا إلى زيد بن حارثة لكن في إسناده ابن لهيعة وهو ضعيف هنا.
(١٧٠) سيرة ابن هشام ٣٤٥/١.
(١٧١) المدثر: ٤ وراجع تفسيرها في ابن كثير ٤٤١/٤.
(١٧٢) اروض الأنف ١٣/٣.
(١٧٣) مسلم (بشرح النووي) ١٠٢/٣.
(١٧٤) المائدة: ٦.
(١٧٥) الروض الأنف ١٣/٣.
(١٧٦) مسلم (بشرح النووي) ١٠٢/٣.
(١٧٧) العلق: ٩-١٠.
(١٧٨) طه: ١٣٢.
(١٧٩) الأعلى: ١٤-١٥.
(١٨٠) المدثر: ٤٢-٤٣.
(١٨١) أكرم العمري: الرسول في مكة ص٦٥.



(١٨٢) ابن هشام: السيرة ٢٥١/١-٢٥٢.
(١٨٣) البخاري: الصحيح (فتح الباري (٤٦٤/١).
(١٨٤) السهيلي: الروض الأنف ١١/١-١٢.
(١٨٥) مسلم (بشرح النووي) ١٠٩/٥.
(١٨٦) البخاري: صحيح (فتح الباري ٢٦٧/٧-٢٦٨).
(١٨٧) ابن هشام: سيرة ٢٦٣/١.
(١٨٨) ابن هشام: سرة ٣٤٢/١.
(١٨٩) البخاري: صحيح (فتح الباري ٧٢/٣-٧٣ وابن القيم: زاد المعاد ١١٨/٢-١١٩ وابن كثير: البداية والنهاية ٩٢/٣.
(١٩٠) المزمل: ١-٨.
(١٩١) أنظر سورة «المؤمنون» آية ١-٤ وسورة الروم آية ٣٩،وسورة الذاريات آية ١٥-١٩ وسورة المعارج آية ١٩-٢٥.
(١٩٢) ابن كثير: البداية والنهاية ٣٤٧/٣.
(١٩٣) سنن أبي داؤد ١٠٦٩ ومستدرك الحاكم ٢٨١/١ وسنن البيهقي ١٧٦/٣-١٧٧ وقد صرح ابن غسحق بالتحديث عند الحاكم والبيهقي، وقال البيهقي: «وهذا حديث حسن الإسناد صحيح».
(١٩٤) الفتح: ١.
(١٩٥) مختصر الشمائل لمحمدية ١٥٢ وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.
(١٩٦) مسلم: الصحيح رقم ١١٦.
(١٩٧) رواه الترمذي وقال حديث حسن (مختصر الشمائل المحمدية ١٥٤).
(١٩٨) مسلم: الصحيح ٥٣٧/١ رقم ٧٧٣.
(١٩٩) صحيح البخاري ٥٣/١ وصحيح مسلم ٥٢٥/١ حديث رقم ٧٦٣.
(٢٠٠) مختصر الشمائل النبوية ١٦٦-١٦٨.
(٢٠١) أخرجه أبو داؤد رقم ٩٠٤.
(٢٠٢) الآية من سورة النساء ٤١، والحديث أخرجه البخاري: الصحيح ١١٤/٦ ومسلم: الصحيح حديث رقم ٨٠٠ والترمذي: سنن ٢٣٨/٥ رقم ٣٠٢٥ وسنن أبي داؤد ٧٤/٥ حديث رقم ٣٦٦٨.
(٢٠٣) فتح الباري ٧٢٦/٨ حديث رقم ٤٩٦١.
(٢٠٤) سنن أبي داؤد: ٩١٩.
(٢٠٥) أخرجه ابن ماجه في سننه (الألباني: صحيح سنن ابن ماجة ١٠٩/٢ رقم ٢١٨١).



(٢٠٦) الألباني: مختصر الشمائل ١٦٤-١٦٥.
(٢٠٧) النسائي في سننه ٢٣/٢ وأحمد: المسند ٢٤/٦.
(٢٠٨) صحيح البخاري ٤٦/٢.
(٢٠٩) الترمذي: سنن ٧٤٥ وابن ماجة سنن ٧٣٩ وإسناده صحيح (الإرواء ١٠٥/٤ و١٠٦).
(٢١٠) صحيح سنن الترمذي ٢٢٧/١.
(٢١١) صحيح البخاري ٤٧/٢-٤٨ وصحيح مسلم ٥٠٩/١ حديث رقم ٨٣٨.
(٢١٢) صحيح البخاري ١٤٩/٧.
(٢١٣) صحيح البخاري ١٤٧/٧.
(٢١٤) صحيح البخاري ١٠٦/٦.
(٢١٥) صحيح مسلم ٢٨٥/٤ حديثه رقم ٢٧١٥.
(٢١٦) صحيح مسلم ٤٥٥/١.
(٢١٧) صحيح مسلم ٤٦٣/١، ١٨١٠/٤ ومسند أحمد ٩١/٥.
(٢١٨) مسلم: الصحيح ٤٩٩/١ وروى البخاري في صحيحه الوصية بركعتي الضحى ٥٢/٢.
(٢١٩) رواه أحمد وأبو يعلى ورجال أحدهما رجال الصحيح، وأخرجه الترمذي (السنن ٢ ٣٤٠ وقال: حسن غريب وأخرجه أبو داؤد: السنن ١٣/٢ وأحمد: المسند ٢٨٦/٥، ٢٨٧.
(٢٢٠) رواه البخاري (صحيحه ١٤٥/٧).
(٢٢١) صحيح سنن الترمذي ٣٠٥/٢.
(٢٢٢) رواه الترمذي (سنن ٥٦٩/٥) وقال: حسن صحيح غريب. وابن ماجة: سنن (صحيح سنن ابن ماجة ٢٣١/١-٢٣٢).
(٢٢٣) التوبة: ١٢٨.
(٢٢٤) صحيح مسلم ١٧٩١/٤-١٧٩٢ حديث رقم ٢٢٨٨.
(٢٢٥) صحيح البخاري (فتح الباري ٣١٢/٦) وصحيح مسلم ١٤٢٠/٣.
(٢٢٦) الأنفال: ٣٣.
(٢٢٧) رواه البزار كما في كشف الأستار ٣٩٧/١.
(٢٢٨) الأنبياء: ١٠٧.
(٢٢٩) الأحزاب: ٤٥.
(٢٣٠) مسند أحمد ٢٢٨/٣-٢٦٨ والحاكم: المستدرك ٥٧/٣ وصححه ووافقه الذهبي.
(٢٣١) متفق عليه واللفظ لمسلم (صحيح البخاري ١٤٥/٧ وصحيح مسلم ١٨٩/١ حديث رقم ١٩٩).

(٢٣٢) الحج: ٧٨.
(٢٣٣) الفتح: ٢٩.
(٢٣٤) صحيح مسلم ٢٣١٦/٤.
(٢٣٥) صحيح البخاري ٨٠/٢ وصحيح مسلم ٦٣٥/٢ حديث رقم ٩٢٣.
(٢٣٦) صحيح مسلم ١٣٥٧/٣ حديث رقم ١٧٣١.
(٢٣٧) أحمد: المسند ٢٩٦/١ وأبو داؤد: السنن ١٢٦/٣.
(٢٣٨) صحيح مسلم ١٥٤٩/٣-١٥٥٠ حديث رقم ١٩٥٨.
(٢٣٩) مسند أحمد ٤٢٦/٣.
(٢٤٠) مسلم الصحيح ١٥٤٨/٣ حديث رقم ١٩٥٥.
(٢٤١) متفق عليه (صحيح البخاري ٧٧/٣) وصحيح مسلم ١٧٦١/٤ حديث رقم ٢٢٤٤ واللفظ له.
(٢٤٢) الحاكم: المستدرك ٣٥/١ وصححه وأقره الذهبي.
(٢٤٣) التوبة: ٢٤.
(٢٤٤) رواية الترمذي وقال: حسن صحيح (سنن ٥٤٥/٥ حديث رقم ٣٥٣٥) وأخرجه البخاري في صحيحه ١١٢/٧-١١٣ شاهدا مختصرا من حديث ابن مسعود، ومسلم في صحيحه ٢٠٣٤/٤ ديث رقم ٢٦٤٠ شاهدا مختصرا أيضا من حديث ابن مسعود.
(٢٤٥) صحيح مسلم ٢٠٣٢/٤ ديث رقم ٢٦٣٩.
(٢٤٦) صحيح البخاري ٢١٨/٧.
(٢٤٧) صحيح البخاري ٩/١، وصحيح مسلم ٦٧/١ حديث رقم ٧٠ واللفظ له.
(٢٤٨) صحيح البخاري ٩/١ وصحيح مسلم ٦٦/١ حديث رقم ٤٣.
(٢٤٩) آل عمران: ١٦٤.
(٢٥٠) صحيح مسلم ص٢٠٧٥ وسنن الترمذي حديث رقم ٣٣٧٩ واللفظ له.
(٢٥١) صحيح البخاري (فتح الباري ٢١/٦، ٣٧٤/٧، ٥١٧/٨).
(٢٥٢) الهيثمي: مجمع البحرين ٢٣٩/٢ من رواية ابن إسحق بإسناد رجاله ثقات.
(٢٥٣) صحيح البخاري (فتح الباري ٣٦١/٧).
(٢٥٤) صحيح سنن ابن ماجة ٢٣٢/٢.
(٢٥٥) الكهف: ١١٠.
(٢٥٦) آل عمران: ١٤٤.
(٢٥٧) صحيح البخاري ٢٠٠/٢-٢٠١ (ط. استنبول).



(٢٥٨) صحيح البخاري (فتح الباري ٤٣١/١).
(٢٥٩) صحيح البخاري (فتح الباري ٣٥٦/٩).
(٢٦٠) ابن سعد: الطبقات ٢٣/١ بإسناد صحيح.
(٢٦١) البخاري: الأدب المفرد ٥٥٨ بإسناد صحيح.
(٢٦٢) ابن حجر: فتح الباري ٤٣١/٧.
(٢٦٣) الأحزاب: ٣٧.
(٢٦٤) صحيح البخاري (فتح الباري ١٢٠/٩).
(٢٦٥) متفق عليه واللفظ للبخاري (فتح الباري ١٣٣/٧).
(٢٦٦) صحيح مسلم ١٨٨٨/٤ حديث رقم ٢٤٣٦.
(٢٦٧) متفق عليه (صحيح البخاري ٧٤/٨ وصحيح مسلم ١٨٥٦/٤ حديث رقم ٢٣٨٤).
(٢٦٨) صحيح مسلم ١٨٩٠/٤ حديث رقم ٢٤٤٠.
(٢٦٩) صحيح مسلم ١٨٩٠/٤ حديث رقم ٢٤٤٠.
(٢٧٠) ابن سعد: الطبقات ٦٥/٧ بإسناد صحيح.
(٢٧١) أحمد: المسند ٢٦٤/٦ بإسناد حسن، وأبوداؤد: السنن ٢٨/٢ مختصرا.
(٢٧٢) متفق عليه (صحيح البخاري كما في فتح الباري ٣٢٥/٩ وصحيح مسلم ١٨٩٠/٤ حديث رقم ٢٤٣٩.
(٢٧٣) النساء: ٣.
(٢٧٤) متفق عليه (صحيح البخاري ٧٥/٨-٧٦ وصحيح مسلم ١٨٩٠/٤ حديث رقم ٢٤٣٨).
(٢٧٥) مسند أحمد ٢١١/٦ بإسناد حسن كما في فتح الباري ٢٢٥/٧.
(٢٧٦) صحيح مسلم ١٠٨٥/٢ حديث رقم ١٤٦٣. وانظر الأحاديث في سنن أبي داؤد ٦٠١/٢-٦٠٢ وسنن الترمذي ٢٤٩/٥ وقال: حسن غريب.
(٢٧٧) النساء: ١٢٨.
(٢٧٨) صحيح البخاري (فتح الباري ٢٦٥/٨ وصحيح مسلم ٢٣١٦/٤).
(٢٧٩) الأحزاب: ٢٨ و٢٩.
(٢٨٠) متفق عليه (صحيح البخاري كما في فتح الباري ٥١٩/٨، وصحيح مسلم ١١٠٣/٢ حديث رقم ١٤٧٥).
(٢٨١) سيرة الرسول في تصورات الغربيين لجوستاف بفانمو للمر G. Pfannmulie ترجمة د.محمود حمدي زقزوق (ضمن بحوث مجلة مركز بحوث السنة والسيرة في قطر. العدد الثاني ١٤٠٧هـ (١٩٨٧م) ص١٣٠.
(٢٨٢) محمد عزة دروزة: سيرة الرسول ٥٦/١.

(٢٨٣) الأحزاب: ٣٧.
(٢٨٤) صحيح البخاري (فتح الباري ٥١٧/٨) وصحيح مسلم ١٨٨٤/٤ حديث رقم ٢٤٢٥).
(٢٨٥) تفسير الطبري ٢٢/٩-١١.
(٢٨٦) صحيح مسلم بشرح النووي ٢٢٨/٩.
(٢٨٧) صحيح مسلم ١٠٤٨/٢ (ط. استانبول).
(٢٨٨) متفق عليه (صحيح البخاري كما في فتح الباري ٢٣٠/٩ وصحيح مسلم ١٠٥٠/٢).
(٢٨٩) صحيح البخاري كما في فتح الباري ٤٠٣/١٣.
(٢٩٠) الأحزاب آية: ٤٠.
(٢٩١) الأحزاب: ٥.
(٢٩٢) الفتح: ٢٩.
(٢٩٣) رواه البخاري (الصحيح ١٥١/٣).
(٢٩٤) آل عمران: ١٧٢.
(٢٩٥) رواه مسلم في صحيحه حديث رقم ٢٥٣١.
(٢٩٦) رواه البخاري ومسلم (صحيح البخاري ٢٧/٧ و٢٨ وصحيح مسلم حديث رقم ٥٤١).
(٢٩٧) الترمذي: سنن ٦٤٧/٥-٦٤٨ وانظر: صحيح البخاري ١٩٦/٤، ٩٧/٨، ١٣٦، وصحيح مسلم ١٨٦٨/٤.
(٢٩٨) الحديد: ١٠.
(٢٩٩) صحيح مسلم حديث رقم ٢٤١٧ وقارن برواية البخاري في الصحيح ٢٠٤/٤.
(٣٠٠) رواه البخاري ومسلم (صحيح البخاري ١٠٢/٦ وصحيح مسلم ١٩١٣/٤ حديث رقم ٢٤٦٤).
(٣٠١) صحيح البخاري: ١٢٠/١.
(٣٠٢) رواه الترمذي وقال: حسن غريب (سنن ٦١٧/٥ حديث رقم ٣٦٨٢).
(٣٠٣) رواه البخاري ومسلم (صحيح البخاري ٢٠٠/٤ وصحيح مسلم ١٨٦٤/٤ حديث رقم ٢٣٩٨).
(٣٠٤) خليفة بن خياط: التاريخ ١٧٠ بإسناد حسن.
(٣٠٥) صحيح البخاري ٢٠٨/٤ وصحيح مسلم ١٨٧٠/٤ حديث رقم ٢٤٠٤.
(٣٠٦) صحيح البخاري ٢٠٧/٤ وصيح مسلم ١٨٧١/٤.
(٣٠٧) النور: ٣١.
(٣٠٨) صحيح البخاري ١٣/٦ مختصراً وقارن بسنن أب يداؤد ٣٥٦/٤-٣٥٧.
(٣٠٩) البقرة: ٢٨٤.
(٣١٠) صحيح مسلم رقم الحديث ١٢٥. وقارن رواية سنن الترمذي رقم الحديث ٢٩٩٢.
(٣١١) الحج: ٧٨.
(٣١٢) البقرة: ١٨٥.
(٣١٣) التغابن: ١٠٦.
(٣١٤) تفسير الطبري ١٥٤/٣.
(٣١٥) سنن ابن ماجة رقم الحديث ٢٠٤٥.
(٣١٦) تفسير ابن كثير ٣٤٢/١-٣٤٣.
(٣١٧) صيح مسلم، رقم الحديث ١٢٧.
(٣١٨) صحيح مسلم رقم الحديث ١١٨.
(٣١٩) صحيح البخاري ٢٣٦/٣ وصحيح مسلم رقم ١٠٣٢.
(٣٢٠) البقرة: ٢٦٨.
(٣٢١) صحيح مسلم حديث رقم ٢٥٨٨.
(٣٢٢) صحيح مسلم حديث رقم ٢٥٨٨.
(٣٢٣) الحشر: ١٨.
(٣٢٤) صحيح مسلم ٧٠٤/٢-٧٠٥ حديث رقم ١٠١٧.
(٣٢٥) الحشر: ٨-٩.
(٣٢٦) تاريخ الطبري ٥٢٨/٣.
(٣٢٧) صحيح مسلم ٢٧٩/٢.
(٣٢٨) تاريخ الطبري ٢٢٧/٤.
(٣٢٩) المنذري: الترغيب والترهيب ١٧٣/٥.
(٣٣٠) الفتح: ١٠.
(٣٣١) التوبة: ١٠٠.
(٣٣٢) صحيح البخاري (فتح الباري ٥١٩/٢) وصحيح مسلم ١٩٤١/٤.
(٣٣٣) صحيح مسلم ١٩٤٢/٤. وكذبت تستعمل بمعنى أخطأت.
(٣٣٤) صحيح مسلم ١٩٤٢/٤.
(٣٣٥) ابن الجوزي: مناقب عمر ٥٧.
(٣٣٦) مصنف عبد الرزاق ٢٧٦/٥.
(٣٣٧) تاريخ الطبري ١٩/٤.
(٣٣٨) المصدر السابق ٢٠/٤.
(٣٣٩) الأنعام: ٩٠.
(٣٤٠) سنن أبي داود ١٤/٥ حديث رقم ٤٦٠٧ وسنن الترمذي حديث رقم ٢٦٧٨ وقال: حسن صحيح. وسنن ابن ماجة حديث رقم ٤٢.
(٣٤١) البقرة: ٢٠٧.

(٣٤٢) ابن سعد: الطبقات ١٦٢/٣-١٦٣. والحاكم: المستدرك ٣٩٨/٣، وصححه على شرط مسلم.
(٣٤٣) الحاكم: المستدرك ٦٢٥/٢.
(٣٤٤) رواه الإمام أحمد بإسناد صحيح (مسند أحمد ٢٠٠/٣-٢٠٤)، وسنن الترمذي ٦٥٣/٤ حديث رقم ٢٤٨٧ وقال: صحيح حسن غريب.
(٣٤٥) الهيثمي: مجمع الزوائد ٤٠/١٠ وقال: رجاله رجال الصحيح.
(٣٤٦) النور: ٥٥.
(٣٤٧) النسائي: سنن ٥/٥-٦.
(٣٤٨) صحيح البخاري ١٩٨/٤.
(٣٤٩) البقرة: ٢١٨.
(٣٥٠) آل عمران: ١٩٥.
(٣٥١) التوبة: ١١٧.
(٣٥٢) التوبة: ١٠٠.
(٣٥٣) الحشر: ٩.
(٣٥٤) صحيح البخاري ٢٢٢/٤ط. استنبول.
(٣٥٥) متفق عليه (صحيح البخاري ٢٠٠/٣ وصحيح مسلم ١٤٨٧/٣ حديث رقم ١٣٥٣).
(٣٥٦) الأنفال: ٧٢.
(٣٥٧) الأنفال: ٩٧-٩٩.
(٣٥٨) الأنفال: ١٠٠.
(٣٥٩) أخرجه البخاري في صحيحه ٢/١ .
(٣٦٠) المتحنة: ١٠.
(٣٦١) رواه البخاري في صحيحه ٩٧/٥ (ط. استانبول).
(٣٦٢) رواه البخاري في صحيحه ٩٧/٥.
(٣٦٣) رواه البخاري في صحيحه ٢٦٤/٤.




وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ
مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ
ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ

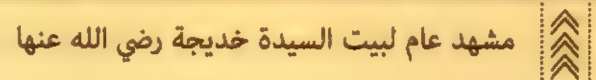

يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ
فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ
وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ




وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين
الفصل السادس:
صور وآثار الرسول
صلى الله عليه وآله وسلم
الله
رسول
محمد



بيت السيدة خديجة رضي الله عنها زوجة النبي ﷺ

مشهد عام لبيت السيدة خديجة رضي الله عنها



مخطط توضيحي لبيت السيدة خديجة رضي الله عنها



١

مصلى الرسول ﷺ في بيت السيدة خديجة رضي الله عنها



مدخل غرفة الرسول ﷺ في منزل السيدة خديجة رضي الله عنها



مكان مولد السيدة فاطمة الزهراء رضي الله عنها

٤



المحراب الموجود في مكان استقبال الوفود



مكان استقبال الوفود

غار حراء



مدخل غار حراء



غار حراء من الداخل

الحجرات



تصوير تقريبي لبيوت النبي

باب السيدة عائشة أو بـاب الـوفـود (الـبـاب الـغـربي للحجرات المطل على الروضة الشريفة)





【صورة للواجهة الشمالية للحجرات المطلة على دكة التجهد ومنها لباب جبريل】



صورة للواجهة الغربية للحجرات المطلة على الروضة الشريفة

باب السيدة فاطمة
(وهو باب الحجرات
المستخدم حالياً)





الضبة والمفتاح (قفل)
باب السيدة فاطمة
الزهراء



قطعة من كسوة
الحجرة

من الآبار التي كان يصب ماؤها على النبي ﷺ أثناء تمريضه



بئر غرس

وعن عمر بن الحكم قال: قال رسول الله ﷺ :

نِعم البئر بئر غَرْس، هي من عيون الجنة، وماؤها أطيب المياه.

وكان رسول الله ﷺ يُستعذب له منها، وغسل من بار غَرْس.



بئر العهن



بئر البصة الكبرى




عصا النبي ﷺ





مكحلة النبي ﷺ.

عمامة وبردة وعصا النبي ﷺ





الصندوق الذي وضعت به بردة النبي ﷺ





نعل النبي ﷺ التاسومة (وهي النعل
التي يكون لها سيور من جلد بين الأصابع)



نعل النبي السبتية



نعل النبي ﷺ يمنية الطابع ، ذات مقدمة مدببة ، من الجلد الأسود



راية النبي ﷺ التي أعطاها لعلي رضي الله عنه يوم فتح خيبر



(المأثور)
سيف النبي ﷺ



(القضيب)

سيف النبي ﷺ

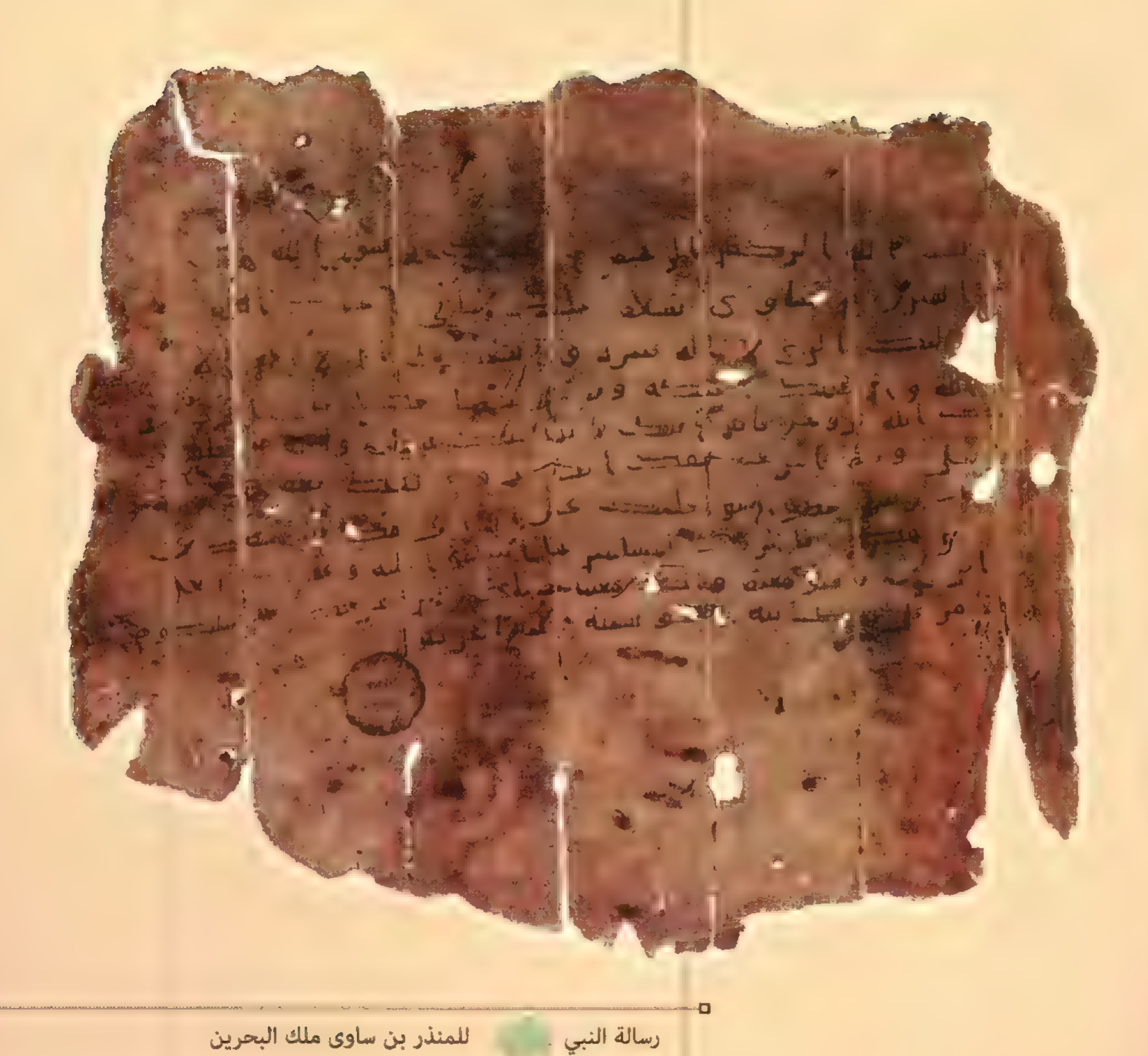


سيف النبي صلى الله عليه وآله وسلم (العضب) ، أهدي إليه في معركة أحد من سعد بن عبادة رضي الله عنه ، وقاتل به أبو دجانة رضي الله عنه



قوس النبي ﷺ

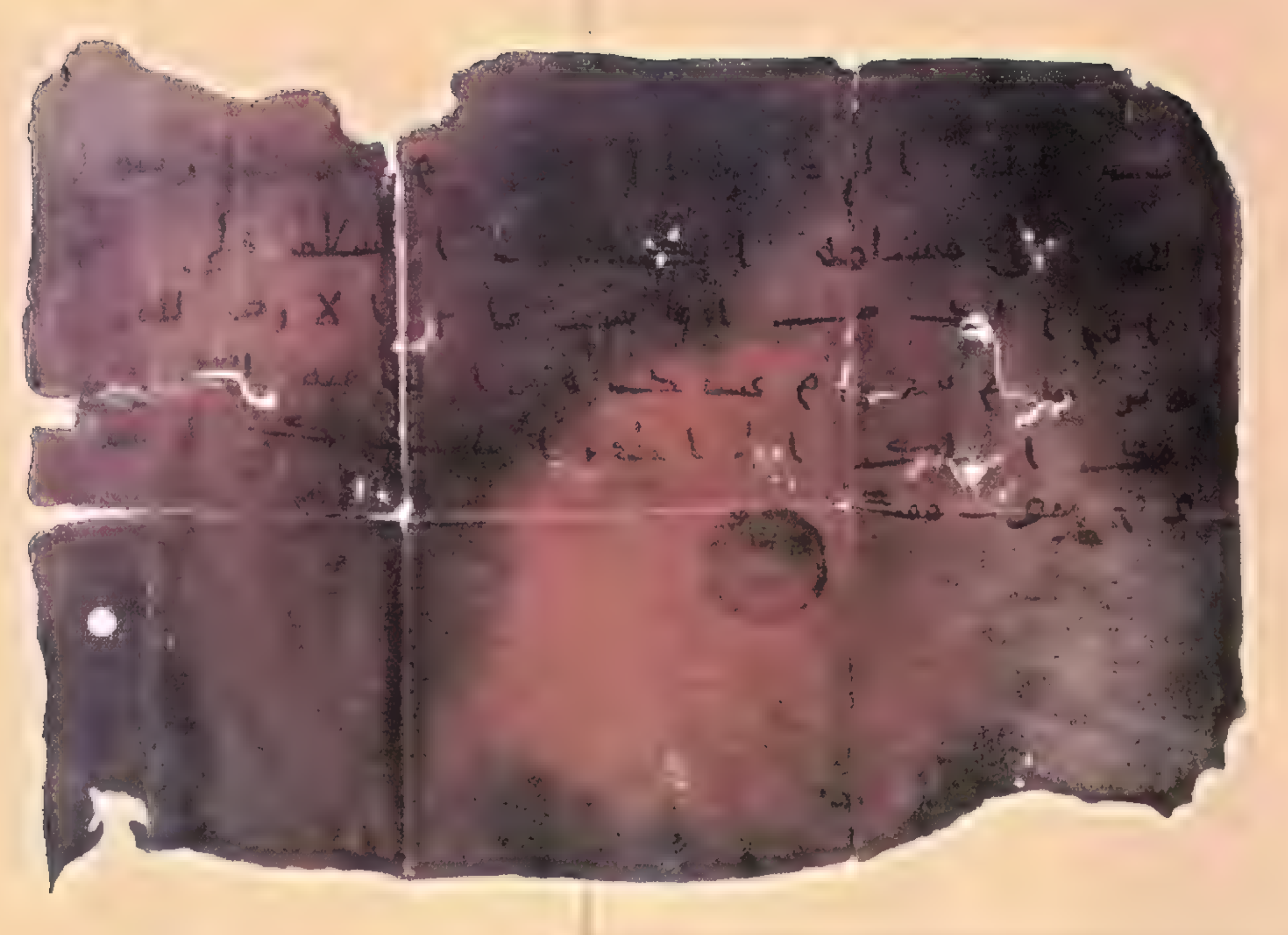

الله
رسول
محمد



رسالة النبي ﷺ للمنذر بن ساوى ملك البحرين



رسالة النبي للحارث الغساني



رسالة النبي ﷺ لمسيلمة الكذاب

المحتويات

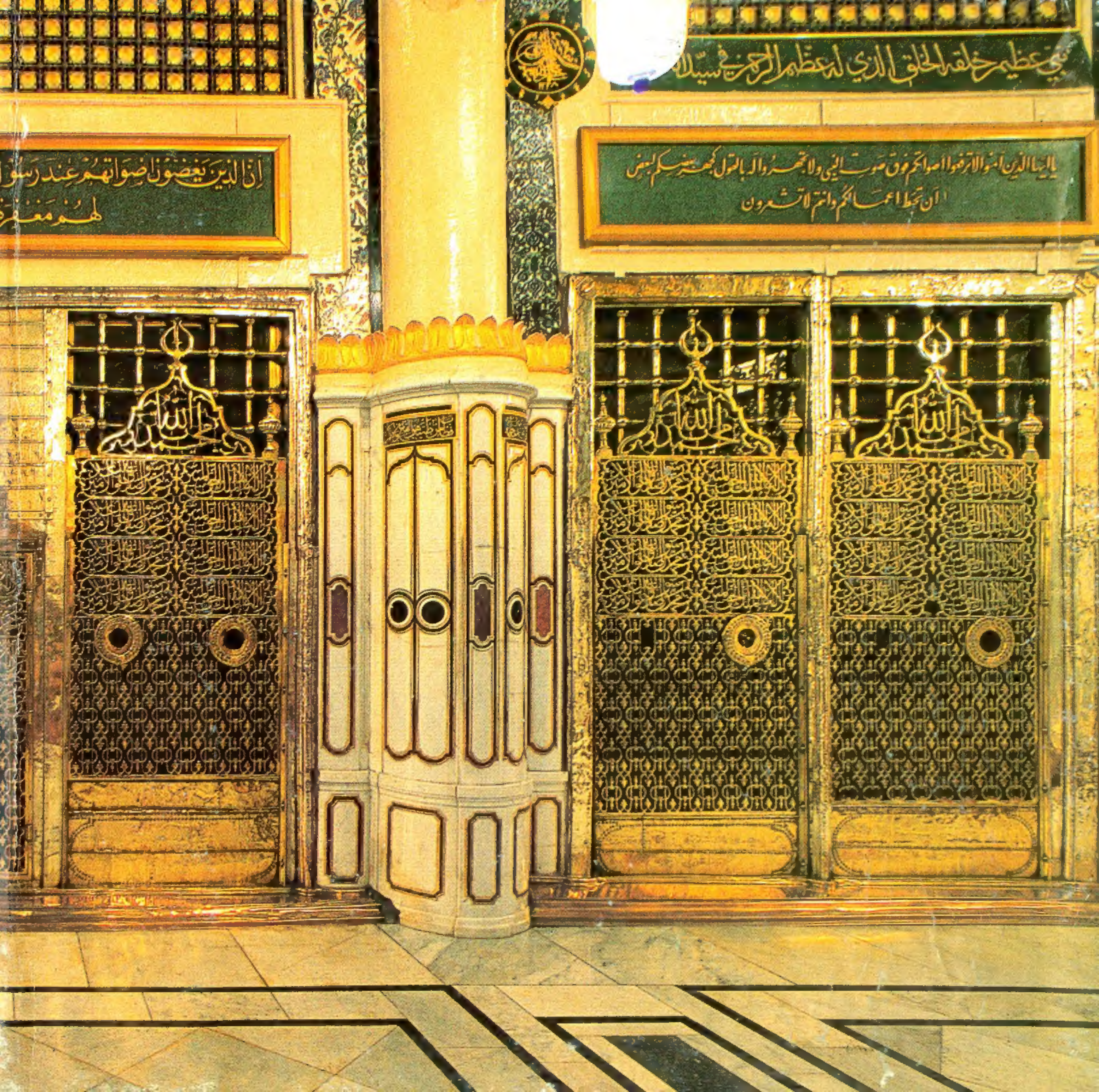
الإهداء

إلى ...

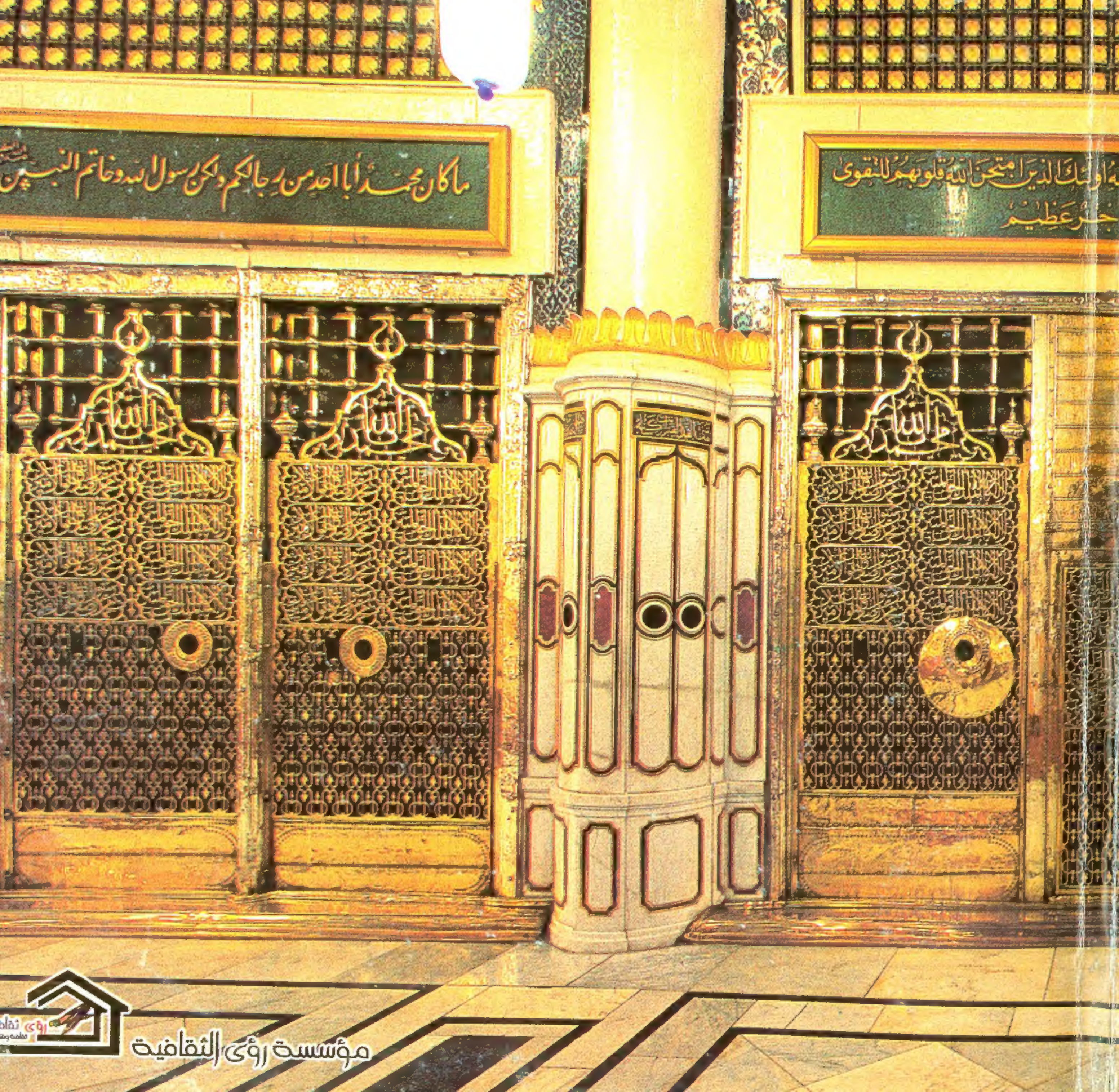
الإنسان الذي يتطلع إلى مُثُلٍ ورسالة وهدف في حياته. تقدّم وصادق محمداً ﷺ تصدق في حياتك.

رؤى ثقافية





يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض
أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون


مؤسسة رؤى الثقافية


وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين. سورة النحل:30
سيدي يارسول الله: كم جاهدت دون هذه الرسالة الكريمة؟!
رسالة: عرفت نفوسنا بها معني الكمال والسعد والمجد.
رسالة: لم يضق بها صدر ولم يحرم من هدايتها قلب.
رسالة: كنت دؤوبا على الدعوة إليها ماتركت حيلة ولافاتتك وسيلة تمضي بها وفي صدرك نبع من الأمل لايغيض وكنز من الثقة لاينفد وطموح مديد.
سيدي يارسول الله: انتهى الزمان إليك ليبدأ منك وعلى يديك.
وددت أن أسرج الروح إليك وأن أحلق بعدك ما شاء لي الشوق ولكنها الآثام تقصيني عنك تسقط بي نحو الأرض تهوي بي إلى قاع سحيق.
جئت والناس يرحلون من كون إلى كون ومن شقاء إلى شقاء محتشدين على غير وجهة.
تحت الشعارات وخلف الخيانات فأخذت بأيديهم ليرتحلوا من الأكوان إلى المكون ورفعتهم من التعلق بكثافة الجسد وأحزان الأرض إلى التعلق بخيط من أنوارك الصاعدة في اتجاه السماء صوب منابع الضياء ومساقط الأمل.
... ياالله
أي فضل غمرتنا به لما بعثته لنا وشاءت رحمتك الواسعه أن تسعد به العالمين.
فاللهم أفرح قلوبنا بإشراق يوم تكتب أشعته هذه الآية الكريمة (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) واجعلنا ممن تدركهم في هذا اليوم المبارك رحمتك (ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير، ربنا لاتجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم)... الممتحنة
عبد العليم الشلفي
مدير عام رؤى الثقافية
وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ
السعر 30 دولار